وزارة التعليم العالي

إدارة البحث العلمي

جامعة امدرمان الإسلامية

كلية الدراسات العليا - كلية اللغة العربية

قسم الدراسات الادبية والنقدية

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراة في الأدب والنقد

خصائص أسلوب ابن عربشاه من خلال كتابيه عجائب المقدور في نوائب تيمور وفاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء

دراسة أسلوبية نقدية

إعداد الباحث : عبد المالك ادريس مالك موسي

إشراف بروفسير : عبد الله بريمة فضل

العام 2010م

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية

قال تعالي : (لِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

صدق الله العظيم

سورة النحل الآية (٦٠)

إهداء

إلي والدتي الوفاء بكل خير صفاء ، لي ولأخواتي وأخواني يا ربنا من تحت قدميها الجنة العلياء آمين.

إلي من ظلت دوماً زهرة ربيعية سحر ، زوجتي ام يحي هما قوة في صدري ، صورة حق بهما اشتهر لهما الخير والوفاء ، آمين.

إلى روح والدي إدريس مالك ، الذي وفقني الله إلى أن أحقق وصية تمناها وكانت. وفاء حق لأب عالم عامل ، بنا مثابر ، آمين.

إلى روح والدّي أمي ، وأخيها رضوان بابكر الطاهر.

إلى روح خالي عبد اللطيف عيسي الطاهر.

وإلى روح والديّ زوجتي أم يحي ، مصطفي عبد العزيز ، وحليمة محمد احمد سليمان.

برحمتك يا الله ، يا حي يا قيوم ، أدخلهم فسيح فردوسك العلا تاج الجنان.

الباحث

عبد المالك بن إدريس



الحمد لله الشكور ، فاطرالسموات والارض من كل لون ، علي مر الازمان والدهور ، سبحانك ربي العظيم ، آمنت بك ، ولا شريك لك يارب العالمين .

أماّ بعد فالشكر الفضل ، لأهل الفضل ، في دار الفضل ، جامعة امدرمان الاسلامية ، وجزيل العرفان لمداد هذا الفضل ، كلية اللغة العربية ، ومؤدبيها وطلابها في صرح أدابها ، دعامة الدين الحنيف ، في فناء هذه الدنيا وابوابها .

وموفور امتنان الشكر ، لمشرف هذا البحث البروفسيور/ عبد الله بريمة فضل ، مرشدي المثابر ، إلى لجنة الحكم والمناقشة د/ عبد الله محمد أحمد عميد مركز الدراسات الدبلوماسية بجامعة الخرطوم ، الممتحن الخارجي ، وإلى بروفسور/ بابكرالجزولي عثمان ، الممتحن الداخلي ، بتوفيق الله السداد ، اليهم ولجميع اهل الضاد ، الأحياء والأموات. صدق ذاك الشكر الفضل آمين.

الباحث/ عبد المالك بن إدريس

مقـــدمة

الحمد لله ، " أحمده حمداً تفتقت في رياض آلائه ، انوار فصاحته ، وأشكره شكراً تعبقت في رياض نعمائه ، أزهار بلاغته ، واشهد انّ لا آله الا الله وحده لا شريك له ، شهادة طابق خبرها الواقع والاعتقاد ، واسندت إلي حقيقة الصدق فصارت حقيقة الاسناد ، فتمنطق الإيمان بأقوالها ، وتعلق الإسلام بأفعالها.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صلي الله عليه صلاة باقية بقاء اعجازه ، موصولة بطنب الاطناب ، وصل فصيح الكلام بايجازه ، وعلي آله واصحابه ، شموس سماء الفصاحة ، وبدور افلاك البلاغة" ، مصابيح أسرته ، ومفاتيح نصرته آجمعين ، وسلم تسليما كثيرا. إلي يوم الدين. آمين

بادي ذي بدء هذا البحث مسيرته في تبين خصائص قوة الأدب ، لاسيما الشعر في العصر المملوكي ، الذي كم قيل إنّه عصر انحطاط ، على الأكثر في الشعر وصنعته ، بيد في هذا البحث إنّ ابن عربشاه شاعراً ، نموذجاً لقوة الشعر ، في قيمته الاسلوبية الادبية والدعوية ، ومتانة فكرته ، وبلاغة تعبيره ، في هذا العصر، والذي وجدناه في كتابه عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ما يعادل ديوانا منفصلا ، يستحق الدراسة لقيمته الأدبية والفنية والأسلوبية ، بجانب تعبيره عن حالة العصر من خلال إبداعه ، بالاهتمام بالأدب والأدباء ، والعلماء ، في كتابه فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، حين طرح فيه حنكته السياسية ، والأدبية واللغوية ، عندما برع فيه بالحجاج الأسلوبي على مستوياته الثلاثة الصورة الفنية والتركيب والمعجم. وأفاد الدراسة الأسلوبية هذه بمعيار نقدي جيد في تبين خصائص أسلوب ابن عربشاه من خلال كتابيه موضوع البحث.

:

وجاء التمهيد لخطة البحث كالآتي

١/ أسباب اختيار البحث :

صار اختيار الموضوع علي أربعة مستويات ، وتتمثل في المستوي التاريخي ، والمستوي الأدبي ، وعلي مستوي المعيار الإسلامي للنقد الأخلاقي للأدب ، وعلى المستوي الفني للقيم الروحية والإنسانية للأدب.

أولا : المستوي التاريخي .

تسليط الضوء على ما قيل إنّ الأدب في العصر المملوكي أدب انحطاط ، بل قيل العصر نفسه عصر انحطاط ، وبيان أمر الوجهة التاريخية في حقيقة ذلك ابن عربشاه نموذجاً.

ثانيا : على المستوى الأدبي:

إنّ من دواعي اختيار الباحث لهذه الشخصية ابن عربشاه ، هو إعجابه كيف يمكن أنْ تتكامل فيه كل عناصر الأسلوبية من نثر وشعر ، ورواية وحكاية وسرد ، لاسيما على مستوي الحجاج الأسلوبي بمستوياته الثلاثة ، الصورة الفنية ، والتركيب والمعجم.

ثالثا : علي مستوي المعيار الإسلامي للنقد الأخلاقي للأدب:

فالأدب والأديب قدر لهم الله أمرهما لا شئ إلا لعبادته ، منفعة للنفس البشرية على ضوء القيم الروحية والإنسانية ، فكان لابد من النقد الأخلاقي الذي يتحقق به الأدب الملتزم ، والذي في إمكاننا أن نرفعه بآيات القرآن دعامة تفسير دعوى له ، دعماً لمتانة فكرة الأديب ، وصدقاً لعاطفته ، والقيمة الأسلوبية والتعبيرية والأدبية لحبكه وسبك نصه الأدبي علي ضوء تصنيف الإمام مسلم ، في صحيحه في "كتاب الشعر". والذي يمثل أساس خصائص النقد الأخلاقي ، ويعتبر معياره ، بصدقه الفني والإنساني من مصدره من لسان الرسول صلي الله عليه وسلم في تصديقه "كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل" التي تقوم على التوحيد وإشارته بالتوحيد في شعر أمية بن الصلت ، على الرغم من أنه مات قبل أن يدرك الإسلام.

رابعاً : على المستوى الفني للقيم الروحية والإنسانية للأدب:

نجد إنّ ابن عربشاه يخبرنا من خلال قصيدته "الدهر دولاب يدور" في رثاء تيمور ، بتلك القيم الروحية والإنسانية التي جعلها دعماً لأساليب دعوته لله ، من خلال الأدب الملتزم ، علي ضوء إن العقل أساساً للوعي ، دالةً للعاقل ، استبدالا للجاهل ، مدلولا للشرع على ضوء "الاستقامة على الإسلام والإيمان".

٢/ اهداف البحث:

١- يهدف هذا البحث لطرح المعرفة الكاملة ، لاعلام فترة العصر المملوكي لاسيما الادباء ، ابن عربشاه نموذجا في قيمة خصائص اسلوب أدبه.

٣/ اسئلة البحث :

١- من هو ابن عربشاه ؟ متى كان مولده ؟ ومتى كانت وفاته ؟

٢- وفي أي العصور كان عصره ؟ ما هي ترجمته ؟ ومن هو ابن عربشاه الاديب الشاعر الناثر ؟ ما هي خصائص اسلوبه الفني والإنساني؟ ما هي ثقافته من خلال آثاره ؟ ما قيمة حجاجه الاسلوبي بمستوياته الفنية والأسلوبية.

٤/ الدراسات السابقة:

من حيث العصر المملوكي ونتاجه العلمي والادبي من تلك الدراسات السابقة ، والتي تعرض لمؤلفات ابن عربشاه مع التعريف المفيد لشخصيته الادبية والدعوية ، وهي بعنوان عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي ، وهي من موسوعة محمود رزق سليم بجامعة الازهر حينذاك ، حين تقدم بها لنيل درجة الماجستير بحيث استخدم فيها المنهج التاريخي ، في دراسته للنثر الفني في العصر المملوكي ، بحيث عرض من خلالها من أدباء ومؤرخين ومصنفات مؤلفات ابن عربشاه ، وكان العرض الذي جاء به في رسالته ، ذات قيمة مهمة دعامة جيدة لخصائص اسلوب ابن عربشاه من خلال اثاره ، جعلت الباحث أنْ يستفد من هذه الدراسة القيمة ، عن ابن عربشاه بعد التحقق من مطابقتها لاهداف البحث ، لذا عرضت مجهود محمود رزق سليم بحقه ، والتعريف به ، والاشارة الى موسوعته وأهميتها ، وهي عصر سلاطين المماليك ونتاجه الفكري والعلمي والادبي ، والتي طبعت ١٩٥٥م .

٥/ هيكل خطة البحث :

الحمد لله رب العالمين ، الذي مكنني من وضع خطة البحث ، والتي يتضمنها أيضاً المحتوي العام للرسالة ، أي الهيكل العام للرسالة على أربعة فصول تحتوي على عدداً من المباحث ، والمطالب ذات الصلة بموضوع البحث. فكانت الفصول كالآتي على الترتيب :

الفصل الاول : بعنوان ابن عربشاه : سيرته ومجتمع عصره اساس بواعث شاعريته في نثره. وتضمن هذا الفصل مبحثين :

المبحث الاول : بعنوان : اسمه وميلاده وشاعريته وثقافته احتوي هذا المبحث على مطلبين :

المطلب الأول : اسمه وميلاده وبواعث شاعريته ، حيث ذكرت فيه تعريف اسمه من خلال تعريف "إسماعيل باشا البغدادي" له في كتابه "هداية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين" – المجلد الأول.

ثم تحدثت عن بواعث شاعريته والتي وضحت في نثره فعكس به صوراً عديدة من صور عصره الأدبية والاجتماعية ، فضمن هذا النثر عدداً من الأشعار إذ يقطع نثره بأبيات من الشعر حيث يفاجئك بقوله : قلت ، فكانت حقيقة فنية ، صورة عصره في شعره من خلال نثره.

المطلب الثاني : وهو بعنوان ثقافته من خلال كتبه الثلاثة ، ووفاته وشهادة ابن تغري بردي له وتحدثت في هذا المطلب عن أهم آثاره الثقافية والتي تتصمن – إلى جانب علمه بفنون الترجمة وعدداً من اللغات – موهبته في التأليف الكثير في عدداً من المؤلفات من أهمها كتابه سيرة الملك الظاهر بيبرس والذي احتوي على عدداً من النقاط تتمثل في رؤيته للخليفة الصالح ، وأيضاً كتابيه موضوع البحث عجائب المقدور في نوائب تيمور ، وفاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء.

في هذا المطلب كان الحديث عن وفاته بشهادة صديقه ومعاصره ابن تغري بردي ، والتي أبرزت شهادته تلك ثقافته في ذكره لعدد من الخصال والمعارف التي كان يتمتع بها لهما الرحمة والمغفرة آمين.

المبحث الثاني : صورة مجتمع ابن عربشاه

والذي عرضت فيه صورة هذا العصر وخاصة أحوال العامة من حيث الحالة السياسية والاقتصادية ولاسيما حالة الشعراء ، وهذا ما عكسه ابن عربشاه بقلمه في كتابه عجائب المقدور ، حيث أبان بعدم اهتمام البلاط المملوكي بالأدباء والعلماء فأبرز لنا أسلوبه ، نظرية الفن المتجدد ، بها سلط الضوء على نموذج لقوة الأدب والأدباء في العصر المملوكي وجاءت اسلوبيته الأدبية والتعبيرية في صور أخرى لاسيما اتخاذه للحيوان كأداة لإبراز همومه وقضايا عصره في كتابه فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء.

الفصل الثاني : الأسلوب والصورة في كتابه عجائب المقدور في نوائب تيمور ثم انتقلت بحمد الله إلى الفصل الثاني حيث كان لكتابه عجائب المقدور في نوائب تيمور ولقد على مبحثين :

المبحث الأول : وجعلت له مطلبين :

المطلب الأول : العرض العام لكتاب عجائب المقدور في نوائب تيمور حيث تناولت فيه دواعي تأليفه لهذا الكتاب من ذكر تيمورلنك وحروبه الوحشية ضد الأمة العربية والإسلامية وغيرها من بلاد العالم وتطرقت كذلك إلى غزواته وانفعالاته وتصوراته متطرقاً إلى الحديث عن جوانب كثيرة من جوانب شخصيته من حيث سيرته الذاتية.

المطلب الثاني : القيمة الأسلوبية الأدبية لكتاب عجائب المقدور في نوائب تيمور.

برزت القيمة الأسلوبية الأدبية وجملة أشعاره التي تتخلل نثره ، في براعة فنية تلائم ذات الموضوع في نثره ، لاسيما السرد التأريخي المتمثل في التجربة الشخصية باستدعاءه للشخصيات التراثية والدينية وغير ذلك ، وتوظيف ذلك على ثلاث مستويات : المستوي العادي ، والمستوي الانفعالي أو النفسي ثم المستوي الواعي. فكان كذلك مبيناً في خاتمته في كتاب عجائب المقدور والتي تبين دواعي كتابته لهذا الكتاب. فهذا المطلب يحتوي على نماذج شعرية مختلفة على اختلاف مستوياتها وموضوعاتها الأدبية.

المبحث الثاني : الصورة الفنية في عرض عجائب المقدور في نوائب تيمور من خلال خاتمته.

المطلب الأول: في هذا المبحث كان الحديث عن الصورة الفنية لهذا الكتاب وعلى ضوء فيما ذكر في خاتمته حيث أبان : "تعلم فنون السحر كيف يكون؟" فكان كتابه حافلاً بالصور البلاغية ، وفيما احتوت من تشبيهات ومجازات ، وصور متعددة للعلم والأدب في فنون الكلام من حيث الجزل ودقته ، والغزل ورقته والأدب ولطافته والعلماء ودقتهم في اختيار اللفظ وجرسه ، والشعراء وظرافتهم حيث التلاعب بفنون الكلام في بلاغة الفصحاء لاسيما تصوير تيمورلنك وخاصة في حربه في دمشق فبدأ بتصوير بدايات هذه الحرب من التجهيز بالعدة والعتاد ثم دخول الجيوش إلى حلب ثم عرضه للجنود للتوجه إلى دمشق. ثم دخول جيوشه لدمشق ولقد برع ابن عربشاه في تصوير قسوة تيمورلنك وجنوده.

المطلب الثاني : التوظيف الرمزي للطبيعة في وصف السلام في المجتمع التتري.
حيث برع ابن عربشاه في الحديث عن الطبيعة الني اقترنت بصورة مغايرة لصورة الحروب والتي تمثلت في الحديث عن زواج حفيد تيمورلنك حيث كان اللهو والعبث فكن سلاماً خلافاً للحروب.

ولقد احتوي هذا السلام عدة صور كان للباحث تصوره لها بأن جعلها في عدة لوحات فكان تصوير ابن عربشاه لها قيمة أسلوبية وتعبيرية أدبية في توظيف الطبيعة.

الفصل الثالث : ابن عربشاه شاعراً واحتوي على :

المطلب الأول : شاعرية الأسلوب الدعوي لله عند ابن عربشاه في ضوء القيم الروحية في قصيدته :

والـــــــــدهر دولاب يـــــــــــدور والـــــــــدهر مكـــــــــار غيـــــــــور

ولقد تسني للباحث شرح هذه القصيدة مبرزاً أهم الجوانب الدعوية فيها ثم التاريخية حيث كانت هذه القصيدة وكأنها المعني العام لكتاب عجائب المقدور من حيث القالب الشعري فكانت بمثابة المقابلة لنثره فكانت قصيدته تبين شاعرية باسلوبية احتوت على القيم الروحية والدعوية.

المطلب الثاني: أسلوبية ابن عربشاه في التلقي الفني لشواهد الشعر لسيما أثر لبيد والمتنبي عليه وفيه عمد ابن عربشاه إلى الاستشهاد بهذين الشاعرين والزيادة والنقصان أو التعديل معهما في مناظرة شعرية.

٦/ منهج البحث :

استخدمت المنهج التكاملي الشامل في مسيرة البحث.

٧/ مصطلحات البحث :

اهمها الاسلوب والاسلوبية التي تساعد علي درس ادب عصر ابن عربشاه. بجانب المصطلحات التي جاء عرضها من خلال فصول البحث.

٨/ حدود البحث :

النماذج الفنية والأسلوبية في أدب ابن عربشاه من خلال كتابيه والتي تبين خصائص أسلوبه فيهما.

٩/ خاتمة البحث :

خاتمة البحث التي يأتي عرضها كخلاصة للبحث في نهايته إن شاء الله رب العالمين.

الفصل الأول

الفصل الأول

ابن عربشاه سيرته وصورة مجتمع عصره

المبحث الأول : اسمه ، وبواعث شاعريته وثقافته

المطلب الأول:

- **اسمه وميلاده**
- **شاعريته من خلال نثره**

المطلب الثاني :

- **ثقافته من خلال كتبه الثلاثة**
- **وفاته وشهادة ابن تغري بردي له**

المبحث الأول

المطلب الأول : اسمه وميلاده وبواعث شاعريته :

- اسمه وميلاده :

يقول عنه العلامة إسماعيل باشا البغدادي :

" هو أحمد بن محمد بن إبراهيم الدمشقي الأصل ، ثم الرومي ، الحنفي ، شهاب الدين أبو محمد المعروف بابن عربشاه الأديب ، ولد سنة (٧٩١هـ)" [١].

- بواعث شاعريته :

بان أسلوب ابن عربشاه في التأليف لاسيما في كتابه عجائب المقدور، أنْ يدعم نثرية خطابه الفني بكثير من أشعاره مشاكلاً ما يكتبه من نثر فني ، حيث يأتي قبل ذكر أشعاره بعد خطابه الفني بعبارة "قلت" أو "قلت بديهياً" او "بمعني ما قلته" أو "قلت قديماً" وغير ذلك من العبارات التي نعرضها في بعض الأمثلة من كتابه "عجائب المقدور في نوائب تيمور" مثل هذه المعركة التي دارت بين الجيوش الشامية وجيوش التتار بقيادة تيمورلنك ، بحيث برز في أسلوب ابن عربشاه التصنع الأدبي في كتابة التاريخ ، عندما ضمّن خلال نثره مصطلحات العروض من بحور وما يلحق بها من زحاف وعلل وغير ذلك ، حيث يصف ويوظف الطبيعة الحية والصامتة في **ذكر واقعة وقعت ومعركة صدعت لو انها نفعت.**

(١) فتح الباري في شرح صحيح البخاري لإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، ت ٧٧٣هـ ، تخريج محمد فؤاد عبد الباقي ، تخريج عبد العزيز باز ، دار الحديث ، القاهرة ، ص ١٤٤ — ١٤٥.

" ثم في الأيام ، تقدم من أولئك الأغتام ، نحو من عشرة آلاف ، وزحفوا إلى ميدان المصاف ، فنهض لهم من العساكر الشامية ، نحو من خمسمائة ثم اتبعهم الأمير استنباي[1] في نحو من ثلاثمائة.

قلت :

أسـود إذا لاقـوا ظبـاء إذا عطـوا * جبـال إذا أرسـوا بحـار إذا سـروا

شـموس إذا لاقـوا بـدور إذا تجلـوا * ريـاح إذا هبـوا غمـام إذا همـوا

صـقور إذا انقضـوا نمـور إذا سـموا * رعـود إذا صـاحوا صـواعق إن رمـوا

مع كل منهم خطار تسجد قدود الملاح لخطراته ، وبتار يتعلم سفك الدماء من لحظاته ، وحنية تضاهي حاجبه ن وسهام في تشبهها بأجفانه صائبة. وترس لين اللمس ، إذا تغطي به رأيت البدر علا الشمس ، وعليه خوذة كأنها من لمعات وجنته مأخوذة ، أو من بوارق طلعته مفلوذة ، إذا نظر الطرف إليها يأخذه الانبهار ، يكاد سنا برقها يذهب بالأبصار ، ولبوس أشبه لابسه ،وصار ملابسه ظاهره حرير ناعم كبشرته ، وباطنه حديد كقلبه في قسوته ، وقد امتطوا الفحول من نجائب الخيول فكأن بدور تلك الجموع ، مع الرماح الملتهبة الأسنة عرس تجلى تحت الشموع ، وتوجهوا إلى حومة الوغى ، وتلاقوا في وادي قبة يلبغا.

وفتيـة مـن كمـاة التـرك مـا تركـوا * للرعـد أصـواتهم حيـا ولا صـيتا

قـوم إذا قوبلـوا كـانوا ملائكـة * حسـناً وإن قـاتلوا كـانوا عفاريتـا

ولما رأت هذه الأسود تلك الذئاب والكلاب ، كانوا كالمؤمنين وقد رأوا الأحزاب ، فبان منهم صحيح الضرب وعليله ، و "هذا ما وعد الله ورسوله" فأحاط أولئك بهؤلاء لكثرة الغلبة ، وأداروا لقرضهم على هذه البحور الدائرة المجتلبة ، وحين صاروا في خباء هذه الدائرة كالعروض اشتغلوا بالضرب ، وتقطيع الدائرة بالحرب العضوض ، فأول ما أضمروا لهم في ذلك الزحف : قطع الرأس وخبل

---

(1) فتح الباري في شرح صحيح البخاري لإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، ت ٧٧٣هـ ، تخريج محمد فؤاد عبد الباقي ، تخريج عبد العزيز باز ، دار الحديث ، القاهرة ، ص ١٤٤ – ١٤٥.

العقل ، وقطف الكتف ، فصلموا بالرمح الطويل عقلهم ، وثلموا بالرشق المديد شكلهم، ويتروا بالعضب البسيط وافرهم ، وشتروا بالسهم السريع كاملهم ، فخذوهم وقصموهم ، وخزموهم وخرموهم ، وشعثوهم وثرموهم ، وجموهم ، ووفصوهم ، وعصبوهم ، عقصوهم ، وخذلوهم ، ونقصوهم ، فردوا صدورهم على الأعجاز ، وسدوا على الحقيقة الخلاص منهم المجاز ، فأنكشفوا عنهم ، وهم ما بين مشطور ومقطوع ومحذوف ومجزوء ومنهوك وموقوف.

ورجع استنباي المشار إليه ، وقد اقتضب بحرية المتدارك حفيفهم ، واجتث بضربه المتقارب المتماسك ثقيلهم وخفيفهم ، وتسبيغ سوابغهم بالنصر مرفل ، وبالتمكين التام مذيل ، وبيت دائرتهم المتفقة آمن من الخلل ، وعروضه وضربه سالم من الزحاف والعلل"[١].

فالدور الإيجابي للمرأة وبواعث شعر ابن عربشاه من خلال نثره ، يبين حينما يذكر ابن عربشاه قصة أحد الأبطال الأوائل الذين حاربوا تيمورلنك وكاد أحدهم أن يفتك به سوى كيد النساء ، ومن لهن من وفاء ليتمورلنك حينذاك ، وهو شاه منصور حيث يقول ابن عربشاه (ثمّ إن شاه منصور أصبح وقد قل ناصره ، وفل مؤازره ، فانتخب من جماعته فئة نحواً من خمسمائة فجعل يصول بهم صولة الأسد ويخوض بهم غمار الموت فلا يلوي أمامهم أحد على أحد ، ويميل يمنة ويسرة وينتسب ويصيح : أنا شاه منصور الصابر المحتسب ، فتراهم بين يديه حمراً مستنفرة ، فرت من قسورة) وقصد مكاناً فيه تيمور فهرب منه ، ودخل بين النساء ، واختفي بينهن وغطي بكساء ، فبادرنه وقلن نحن حرم وأشرن إلى طائفة من العسكر المصطدم وقلن هناك بغيتك وبين أولئك طلبك ، فألوي راجعاً وتركهن مخادعا وقصد حيث أشرن إليه وقد أحاطت به جموع العساكر وحلقت عليه".

قلت بدبهياً :

وما حز أعناق الرجال سوى كيد النسا * وأي بـــلاء مـــالهن بـــه أبلـــي

وكـم نـار شـر أحرقـت كبـد الـوري * ولـم يـك إلا مكـرهن لهـا أصـلا

---

(١) عجائب المقدور في نوائب تيمور.

وكان على فرس فاقت خصالاً فضرب فيهم بسيفين يميناً وشمالاً ، وفرسه السبوح، كانت تقاتل معه وتصدم وتكدم من يقربها في تلك المعمعة وكأنه ينشد معني ما قلته في "مرآة الأدب":

يــــد الله قـــوتتي فغلــــت يــــداهم * وهــذي يــدي فـيهم بسـيفين تضــرب"[١]

وخلاصة هذا الدور الإيجابي بهذا الشعر الحكمة الذي جاء به ابن عربشاه من خلال كيد النساء السابق بين تيمور غريمه شاه منصور أن جعله أساس الخطاب السردي في كتابه فاكهة الخلفاء كمقدمة منطقية تقوم عليها أكثر القصص المحورية في الموروث الحكاي السردي لابن عربشاه في كتابه السابق.

المطلب الثاني : ثقافته من خلال كتبه الثلاثة

نقصد بثقافة ابن عربشاه من خلال كتبه الثلاثة – عجائب المقدور في نوائب تيمور ، والملك لظاهر بيبرس ، وفاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، هو معرفة بواعث نثره وشعره ومعارف وآداب وعلوم وفنون كانت له واحاطت بواقعه الفني.

فيقول فيه شمس الدين السخاوي :

" إنّ ابن عربشاه تقدم في غالب العلوم ، وإنشاء النظم الفائق ، والنثر الرائق، ونقل المقريزي وصفه لابن عربشاه في ترجمته بأنه " بحر بلاغة ، وفصاحة، وعلى الرغم من إنّه مؤرخاً وفقيهاً ولغوياً ، فأن الغالب عليه الأدب نظماً ونثراً ، وكان أحد الأفراد في إجادة النظم باللغات الثلاث العربية والعجمية والتركية ، جيد الخط "([٢]).

وتبرز ثقافته في اللغة العربية في كتبه الثلاث على التوالي الملك الظاهر بيبرس التي جاء عرضا ثقافيا في تصدير هذا البحث ، .....

وثقافته في عجائب المقدور التي يقول فيها محمود رزق سليم مؤلف كتاب عصر سلاطين المماليك:

([١]) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٤١.

(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، تأليف المؤرخ الناقد شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ، مكتبة القدس ، القاهرة ، ط ١٣٥٤هـ ، ج١ ، ص ١٢٨. ، ينظر فاكهة الخفاء ومفاكهة الظرفاء لابن عربشاه ، تحقيق د. محمد رجب النجار ، الشركة الدولية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ص ٣.

((يكاد هذا الكتاب يكون سجلاً يومياً لحوادث الطاغية المغولي ، ويعد من أصدق الكتب التي أرخت له ، وذلك لملابسة مؤلفه للبيئات التى عاش فيها تيمور، وحسن اتصاله بها، ولأنه سمع من أصدقاء تيمور، كما سمع من أعدائه وكارهيه الأولون ببلاد تركستان، ومدينة سمرقند، والخرون بالأناضول، وبلاد العثمانيون ، وقد كان ابن عربشاه كثير الطواف بالبلاد مفيداً مما يتصل بما فيها من أخبار. كما أتيحت له موارد ثقافية طيبة، هيئت له إخراج كتابه معبراً تعبيراً أقرب
إلى الصدق عن حياة تيمور وحوادثه [١].

ثقافته من خلال صاحبه وأقرب المعاصرين له : ابن تغري بردي:

يقول :" كان إماماً بارعاً في علوم كثيرة، في الفقه والعربية وعلم المعاني، والبيان والأدب والتاريخ، وله محاضرة حسنة، ومذاكرة لطيفة مع أدب وسكون وتواضع، وله في النظم الرائق الفائق الكثير المليح" [٢].

إنّ هذا التعليق من ابن تغري بردي يمثل إشارة لسردية الخطاب الإبداعي الفني لابن عربشاه في كتاب فاكهة الخلفاء ، مؤكداً مدارك الثقافة الواسعة له، و التي مكنته من تلك المحاضرة الحسنة، والمذاكرة اللطيفة مع الأدب والسلوك والتواضع، وبلاغة النظم الرائق الفائق الكثير المليح.

ويؤكد ذلك محمود رزق سليم عن تبيين ثقافة ابن عربشاه من خلال كتابه فكاهة الخلفاء :

يقول : هذا كتاب أدبي طريف لا نظير له، في موضوعة في عصره على الأقل ، لأنه مجمع أمثال وحكم، صورتها يدي المؤلف وخياله، تصويراً بارعاً مشوقاً في أسلوب قصصي حواري بديع، على مثال كليلة ودمنة[٣].

---

(١) عصر سلاطين المماليك : محمود رزق سليم ، ق ١ ج ٢ ، النثر الفني ، ص ٤٩٤-٤٩٥.

(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، العماد الحنلي ، ج ١٥ ، ص ٥٤٩ .

(٣) عصر سلاطين المماليك ، مرجع سابق ، ص .

هذا الكتاب الذي أبرزت حكمة أمثاله الدكتورة ليلي حسين سعد الدين في كتابها: مصادر الحكمة في قصص كليلة ودمنة في الأدب العربي(١)، وإنّما امتداد له وإتمام لفائدته، من خلال تجسيد المواقف والأخلاقيات والسلوكيات التي يعالجها ابن المقفع في كتابه، وكانت نموذجاً لما نعايشه ونحياه، وصور لكل بيئة وعصر. **فالحكم** ومبادئه التي سعى إليها الكاتب في عصره، هي ذاتها التي يعتقد إنّها تناسب الحاكم وحكومته، وينفع أمته بما يهيئ لها دعائم السلامة والاستقرار، .....

والصداقة : التي نتبينها في كليلة ودمنة ومعاييرها هي نفسها **كل آن وأوان**(٢) ، هذه قيمة (كليلة ودمنة) الإنسانية والروحية ، هي التي جعلت محمود رزق سليم أنْ يشبه فاكهة الخلفاء بها حين يواصل ويقول عنه " تتجلى فيه ضروب الأخلاق الإنسانية ، وألوان من السياسة الدنيوية ، كل هذا يؤكد مدي الثقافة الواسعة لابن عربشاه، لأن كتابه فيه الفكاهة ودعابتها، والحيلة وتخصصاتها والمكر وإئتماره ، والعدل وجلاله ، والصدق وجماله ، وما إلى ذلك، وهو مثل حي على نضج القصة المنثورة نضجاً ما في عصر المماليك ، وصورة ملبوسة دالة على إطلاع المؤلف للثقافات المختلفة الملامح والعلوم ، كما إنّه استفاد من إطلاعه على الآداب الفارسية وغيرها" (٣).

هذه الثقافات المختلفة التى ألمَّ بها ابن عربشاه، وتمكن منها من صور لمجتمعات، وتقويم بيئاتها، وحاجة تلك المجتمعات إلى الإنسانية واستقرارها ، التي فقدت في هذا العصر، لاسيما مجتمع الشام ومصر المسلم من العامة. وليس العامة فحسب إنَّما أحوال العلماء والأدباء الخاصة، على الرغم الموروث الكبير من التأليف والاجتهاد والدعوة، بأنْ أغلب كلامهم لم يسمع .

---

(١) رسالة ماجستير ، كليلة ودمنه في الأدب العربي ، الدكتورة ليلي حسين سعد الدين ، الجامعة الأردنية .

(٢) مصادر الحكمة في قصص كليلة ودمنة ، الدكتورة ليلي حسين سعد الدين ، الجامعة الأردنية ، مركز اللغات ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، ط١ ، ١٩٨٣م -١٩٨٤م ، ص ١٠.

(٣) عصر سلاطين المماليك ، النثر الفني ، مكتبة الآداب ، م٥ ، ق ١ ، ج ٣ ، ص ٤٨٤.

لاسيما استفاد من محنة بعض العلماء، على الرغم من الثقافات الواسعة التي نالوها إلاَّ إنّ بطشاً وقع بالعلماء في هذا العصر ، الذي يأتي من المكايد السياسية بين أرباب العقائد والمعتقدات في هذا العصر، لاسيما التي تخالف المناهج السنية، أو مذاهب الاعتدال. كانت أهم دعائم بواعث تأليف ابن عربشاه
في نثره وشعره .

فالعصر عصر سلاطين المماليك فقدت فيه الذات العربية ميزتها ؛ وهنا تجلت ثقافة ابن عربشاه أنْ يرفع تلك الذات العربية الاسلامية والتى هدت بالأحوال العامة في هذا العصر من حروب، وبعد من السلطة والسلطان لغير المماليك، أي أنه عصر التغلب والشدائد والأهوال بما فيها من تحولات خطير ، عندما هاجم الجيش التيمورى الغازي أرض الشام وقبحت أفعاله في الذات العربية، التي كم أفقدت كثيراً من قيمها وأحوالها الإنسانية ؛ كل هذه الدوافع جعلت من ابن عربشاه بثقافته الواسعة في تصدير الأحداث، وتصويرها ليس بمنظار معاصريه من المؤرخين فحسب ؛ إنَّما أنتهج دعوة تجديدية في تأليف كتب التاريخ أو الأدب التاريخي.

هذه دعوته للتجديد في التأليف التي انطلق إليها ابن عربشاه من دائرة ثقافته الواسعة عن طريق الجوانب الإنسانية للقيم الروحية لعِبَر التاريخ .

بادي ذي بدأ بالملك الظاهر بيبرس، بحيث نهج فيه نهج جديد في كتابته، أتخذ الملك الظاهر بيبرس مقدمة ثانوية للكتاب لدفع عملية انتشاره، لأنه يريد أنْ يبين القيم الإنسانية للخاصة والعامة، لاسيما العرب المسلمين في مصر والشام، وبث فيه أساس وعياً ما، أراد ابن عربشاه أن يكون منشوراً من خلال البلاط المملوكي ، حتى يصل جميع أطراف الدولة هادفاً نشر فيما يكتب، وأنْ يصل فيما يريده من معاني كاملها بفكرته القوية، لعلاج قضايا يراها من حق الدعوة، والحق أنْ تعالج بمثل هذا الكتاب الملك الظاهر بيبرس الذي جوهره " يتميز بخصومات فيه ، ومظاهر جوهرية بادية عليه، أخرجته بثقافة ابن عربشاه الواسعة عربية وأٍجنبية قديما وحديثا، عن نطاق كتب التاريخ، لأن سيرة بيبرس التي ألف لها لم تبدأ أصلاً بل

عارضاً، وخاصة بالقياس إلى المعلومات الأخرى التي سيقت بجانبها"[١]، وكأنّ ابن عرشاه جعلها منطلق دعوته للتجديد في التأليف، سواء كان في التاريخ أو الأدب. ونراه نهج بهذه الدعوة التجديدية التي ساعدته فيها

ثقافته الواسعة من الثقافات الأجنبية لاسيما اليونانية وبالأخص فلسفة أفلاطون وأرسطو.

فنجد ثقافة ابن عربشاه تبين عند العرض العام للكتاب بدأ بالخطبة وقد تضمنت بعد التحميدات والصلوات على النبي الكريم سطوراً في وصف الإنسان وخلقه ، وبراعة تصويره وفي سيرته وأخلاقه المحمودة والمذمومة وفي تفاوت الناس في درجات الكمال.

ثم أشار إلى اختصاص عصره بدولة الظاهر بيبرس لما أتاه الله من ضروب الفضل والكمال وأخذ في الثناء عليه وإطرائه[٢] ....

وليس في الحقيقة الواقع الذي يعيشه بيبرس ودولته بأن يتحقق فيه الكمال الفضل والعدل الفصل، الذي كان منهاج دولة الأمارة الاسلامية في صدر الإسلام، في التفريق الصدق بين الحق والباطل ، على الرغم " فصلاها الملحقان بها في أولهما مبدأ أحوال السلطان، إلى أن صار إماماً عادلاً يتبوأ عرش السلطنة وفي ثانيهما أوضح ما أختصه الله به من الأوصاف المحمودة، مهما ميّزْ به الإنسان حتى صار إنساناً أو بمقدار ما يصيب منها برقي سلم الإنسانية. **أما الفصول العشرة :**

فالأول : في ذكر النفس وماهيتها، ما ذكره من ذلك حكماء الإسلام وغيرهم وفيه تحدث عن طبيعة النفس البشرية وكنهها وتعلقها بالبدن ، وعن تقسيم أفلاطون لها إلى ثلاثة أنواع، ناطقة ومحلها الدماغ ، وشهوانية مركزها الكبد ، وغضبية ومكانها القلب، كما تحدث عن اللوامة والأمارة والمطمئنة.

([١]) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، محمد رزق سليم ، م٥ ، ق١ ، ج١ ، في النثر الفني ، ١٩٥٥م ، مكتبة الآداب ، مصر ، ص ٣٢٠.

([٢]) المرجع السابق نفسه ، ص ٣٢٠.

الثاني : في بيان الصفات الحميدة ومنبع الخصال السعيدة، وقد أرجعها إلى العقل وقسمَّه قسمين غريزي أي خلقي وهو مناط التكليف، وتجريبي يعرف بالتجربة، وفصل الحديث عن كل من القسمين

الثالث : في حسن الخلق وفضله ، وقد تحدث هنا عن سوء الخلق وآثاره ، ثم أورد من محاسن أخلاق جقمق وفضائله وعاداته القديمة، وتقاليده الدينية السليمة ما أستحق من اجله الثناء

الرابع : في العلم وفضيلته ومزية أهله علي سائر المخلوقات وقد أسهب في ذلك إسهاباً محموداً ، مشيراً إلى احتياج الدول والملوك والحاكمين إلى العلم ، مبيناً نصيب جقمق منه، وهو نصيب موفور أهله لولاية المسلمين **والملحوظ أنه يقصد بالعلم فهم الشريعة الاسلامية والعمل بتعاليمها ـ وعلى هذا النسق.**

الخامس : عن التواضع.

السادس : عن الحلم والعفو والشفقة ، لين الجانب ، ونحو ذلك٠

السابع : عن شكر الله علي نعمه.

الثامن : عن التفويض وتحمل المشاق والصبر والثبات في الأمور ٠

التاسع : عن العدل وفضله وقد أسهب في ذلك وأفاض وبين في أعقاب هذا الفصل أن جقمق قد حاز جميع الصفات المذكورة في الآية الشريفة " **إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** "[1] وهذا الفصل من أبدع فصول الكتاب ٠

في العاشر : عما يحتاج إليه الملوك والسلاطين فما هو قوام السلطنة والملك ، وعماد الدولة ، كاتحاد الوزراء والناصحين وغيرهم"[2].

(1) سورة النحل ، الآية ٩٠.

(2) عصر سلاطين المماليك ، محمود رزق سليم ، م٥ ، ج٣ ، ص ٣٢٠ – ٣٢٢.

هذا العرض بسماته الروحية أصبح قاعدة لدواعي تأليفه كتابه فاكهة الخلفاء لأن تأليفه للملك الظاهر بيبرس، هذا على الرغم في الصورة العامة سيرة تاريخ قائد عظيم إلا أنَّه (لم يلتزم الحديث عن سلطانه في أعقاب كل فصل من فصول كتابه ، يحدث عنها في بعضها دون الآخر ، كما أنه حين يتحدث عنه ، لم يذكر من حوادثه التاريخية أو وقائع عهده على نمط المألوف في كتب التاريخ بل عني بذكر نواحيه الخلقية، فحسب ونواحيه الخُلقية المحمودة، وصفاته الفاضلة فقط، وكان ابن عربشاه افترض في سلطانه هذا نموذجاً من نماذج الكمال الإنساني ، فكال له المديح كيلاً ، وأغدق عليه آيات الحمد والتعظيم، ممّا جعل الكتاب في هذه الناحية ، قصيدة مدح منثورة لا كتاب تاريخ)[١]. وليس عجباً إذا كان رأينا في الصورة الرمزية لهذه القصيدة المنثورة التي قامت علي إبداع ابن عربشاه في تصويره للقيم الروحية ، دلالتها رمزاً ، للقواد العمريين، الذين قل موطن عدلهم في هذا العصر المماليكي ، هذا من أحد أهداف الكتاب لبواعث ابن عربشاه في تأليفه له من هذه الناحية ومن ناحية أخرى يريد تحقيق الاتصال وكفاءته لدي المتلقي بقيمة ما كتب ، من حكم بارعة ، تحمل موروث التربية والعدل والأخلاق؛ الذي يراه مفقودة لا سيما في بلاط الدول المملوكية ، والتي أبرزها بواسطة نظريته في الفن المتجدد على لسان الحيوان ، وغيره من غير بني الإنسان ، من الطير والجان " نزهة لبني الآداب وعمدة لأولي الألباب من الملوك والوزراء والأمراء والحجاب" في كتاب فاكهة الخلفاء ومفاكة الظرفاء.

فالقيمة الأسلوبية النقدية الكتاب تبين مدي ثقافة ابن عربشاه الدعوية التى تدعو ، أن يتمسك الحاكم ومن معه بالعصمة والإشارة الفصيحة ، وانْ يعلم إنّ العدل أساس الملك لان الله أمر به و العقل أساس الوعي لمعرفة الإحسان ، وبه تبيين مدلول الشرع دالة العاقل الآمر بالمعروف استبدال الجاهل بدعمه معرفة ذاك الإحسان استخداما ذو معني يساعده على إعدام المنكر وإبطال الباطل وثبات الحق على ضوء قوله تعالي (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا

(١) المرجع السابق ، م٥ ، ج٣ ، ص ٣٢٢.

يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ) [١]. ألم تكن هذه الصور رمزاً للعدل الفاروقى العربي المسلم " عدل العمريين"، وهي الصورة التي ينشدها ابن عربشاه في قصيدته المنثورة التي حوت الكتاب كما سماها محمود رزق سليم " لهذا لا ينبغي عليه في الناحية التاريخية. لأنه . مجموعة من فصول أدبية رائعة، متنوعة الموضوعات، مطبوعة بطابع الوصف وتدل فيما تدل عليه ، على عقلية المؤلف زاخرة بألوان المعارف، وعلى عارضة قوية قديرة على أداء المعاني الدقيقة، بالعبارات الرقيقة، التي بانت خصائص أسلوبه فيها والذي حدده في كتابه فاكهة الخلفاء حينما يقول:" فلذت من دهري فلذة عملت بموجب لكل جديد لذة" فكانت هذه اللذة تلك التي طرحها لنا ابن عربشاه سردية خطابة الإبداعي في فاكهة الخلفاء من بلاغة أسلوبه في الخطاب الإبداعي الآخر ، في كتابه عجائب المقدور في نوائب تيمور ، **فنجد إنَّ هذا الكتاب به الموروث الواسع لثقافة ابن عربشاه ، والتي جاءت من كثرة ترحاله الكثير حينذاك بين مدن العالم** المختلفة ، و عندما ننظر إلى **عجائب المقدور في نوائب تيمور** " وربما نشعر بكلمة "**نوائب**" بأن الكتاب لم يتعرض إلا لنواحي النقص في تيمور، وأنُه لم يصف منه إلا شرَّه وفتكه بالناس، والدول وسفكه الدماء، وما يتصل من معايب، وآثام، مادام العنوان محصوراً في نوائب تيمور، والتاريخ وأحداثه، والتعبير عنه، لا يخرج من العنوان، بجانب تاريخ الأحداث بالسنوات بحيث يقول المؤرخ في سنة كذا وكذا حدثت هذه ٠

فيه تعرض لمساوي تيمور كما تعرض لمحاسنه، ويحدث عن أخباره، خيرها وشرها، وعن أفعالها نافعها وضارها، . فالسفر والترحال والسؤال عمن يقصد أهم مصادر الثقافية الأدبية والتاريخية لابن عربشاه مفيداً ما تصل إليه من أخبار و ما يبحث له ظروف طيبة علي امتداد ثقافات واسعة هيئت له إخراج كتابه معبراً تعبيراً أقرب إلى الصدق ، عن حياة تيمور وحوادثه"[٢] ، وليس هذا فحسب إنَّما فيه ، **ترك لنا ثقافته الواسعة في شتي العلوم الأدبية النظم ، والشاعرية والدعوية**

---

(١) سورة سبأ ، الآية ٤٨ – ٤٩.

(٢) عصر سلاطين المماليك ، م٥ ، ق ١ ، ج٣ ، ص ٤٩٤ – ٤٩٥.

والمعرفية، والتي برزت لنا بهذه الثقافة الواسعة في ثنايا الكتاب حيث ، "يستطرد كثيراً في الاستشهاد بالأبيات الشعرية والعبارات المأثورة ويذكر حقائق العلم والتاريخ ، ورعاية وصف وقائعه وحوادثه، وصفاً لا يخرجها عن طبيعته وواقعها، عن أن يتبع هذا الأسلوب ، وتمشى ذلك في معظم الكتاب، وفي خطبته وعناوين فصوله، وخاتمته، فهو من هذه الناحية تحفة أدبية رائعة، ومظهر آخاذ لتأثر الكتابة العلمية بأساليب الأدباء المعاصرين"(١). **فنجد ابن عربشاه من خلال هذا الاتصال الواسع والفكرة الجيدة والعاطفة القوية، و النخوة العربية والأصولية، جعلته مثقف التعبير ، وحتى ولو أنْه التزم ببديع الكتابة في عصره، نجده طرح في كتابه قضايا الملل والنحل والفلسفة ، لا سيما فلسفة أخوان الصفا بجانب بلاغته في الإعجاز في الايجاز، وبلاغة الأسلوب في حد المساواة.**

فموروث ثقافة ابن عربشاه الواسعة من خلال آثاره الأدبية في عجائب المقدور، والظاهر بيبرس على التوالي ، اتجاه دعوة للتجديد في الأدب والتاريخ والدعوة القائمة بمنهاج النقد الأخلاقي بمنهج مقدمة منطقية إبداعية لطبيعة أي عمل فني ملتزم من أديب ملزم نفسه لإنشاء أدباً متسماً بالقيم الإنسانية والخلقية لمعالجة كل باطل مضمحل، حتى يصير أدباً ملتزماً بمنهج قول لبيد(٢) "

" ألا كل شي ما خلا الله باطل

وكل نعيم لا محالة زائل

وأمسي كأحلام النيام نعيم

وأي نعيم خلته لا يزيل "

هذه الحكمة تمثل المقدمة المنهجية لكل بواعث تأليفه لكتبه، التي مهد لها في كتابه عجائب المقدور في نوائب تيمور، والملك الظاهر بيبرس. كل هذه الكتب التي برع فيها بشتى المحاور الثقافية ، جعلها موروثاً يخص فلذة دهره ، والتي جعلها

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٩٥.

(٢) شرح ديوان لبيد ، دكتور إحسان عباس ، دار القلم الكويت ، ١٩٦٢م ، ص ٣٥٦.

قاعدة منهجية لدعوته للفن المتجدد وهي تمثل بواعث دواعي تأليفه فاكهة الخلفاء ومخالفة الظرفاء.

" **هذه الآثار الأدبية الثلاث هي خير معيار لبيان ثقافة ابن عربشاه التي جعلته علامة إماماً بارعاً في العربية .... ومن ثقافته أنه يجيد العربية مع الفارسية والتركية، التي تؤكد مدي اتصاله بالآداب الفارسية وعلوم الفرس الفلسفية**، والموروث الثقافي التركي.

وكان يحفظ الشعر الفارسي :

في كتابه عجائب المقدور حين يصف شاه شجاع " وكان شاه شجاع هذا رجلاً عالماً وفاضلاً، يقرر الكشاف تقريراً كاملاً، وله **شعر رائق، وأدب فائق، عن شعره العربي ، على ما قيل**[1] :

ألا أن عهـــدي بـــالغرام يطـــول * وأســباب صــبري لا تــزال تــزول

أصــون هواهــا كلمــا ذرّ شــارق * ولكــن مــا بــي قــد يــتم النحــول

ومن لم يذق صبر الصبابة في الصبا * علمــت يقينــا أنــه لجهــول

ومن شعره الفارسي والذي ترجمه الأستاذ نصر الله العرازي رئيس قسم الفهارس الشرقية بدار الكتب المصرية " **علي الترتيب :**

- "يا من يرغب العشاق في حسنك * فكيــف أرغــب فــي أحــد ســواك

إذا غفلت عن ذكرك فعيشي حرام * وإذا اشتكيت من جورك فدمي مهدر

وكــــل يـــــدبر أمـــــراً * لكننـا تركنـاه لله ونعـم الوكيـل"[2]

أيّ بكـام عاشـقان حسـنت جميـل * كـي كـزينم ديكـري برتـو بـديل

كـرَّ زيـادت غـافلم عيشـم حـرام * وزر جـورت دم زنـم خـونم سـبيل

([1]) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، الهامش ، ص ٧٩.

([2]) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، الهامش ، نفس الصفحة.

هركسِّــــى تـــدبير كَـــارِي مكنـــد * مارهـــا كـــرديم يـــا نعـــم الوكيـــل"(١)

ومـن ثقافـة ابـن عربشـاه الواسـعة باللغـة الفارسـية وتمكنـه فيهـا ٠٠٠٠ يؤكد ابن عربشاه بثقافته باللغة الفارسية إنّها مكنته من اطلاع كتاب تاريخ فارسي، من بدأ الدنيا إلى زمان تيمور حيث يقول " ورأيت في زيل **تاريخ** فارسى يدعي (المنتخب) وهو بدء الدنيا إلى زمان تيمور وهو شئ عجباً نسبياً ، يتصل منه تيمور إلى جنكيز خان **من جهة النساء حبائل الشيطان**" (٢) **، ومـن ثقافتـه الواسـعة فـي اللغـة الفارسـية** جعلته بمقدور أنْ يترجم كل ما يتصل بالفارسية، **تبـرز هـذه الثقافـة باللغـة الفارسـية، حينمـا نعـت قـول تيمور، قائلا فيه** : " فأنظر إلى هذا الوبر كيف سلك بهذا القول مسلك القائلين **بالجبر** ".

وأنشدوا فيه بالفارسي بيتين هما :

يـــنْم تِنَـــي ملـــك جهـــانزا كرَّفـــت * جشـــم كُشـــاَ قـــدرت يـــرذان بيـــين

بـــاي نَـــهِ وتّخـــت بزيـــرٍ قَ َدم * دســـت نَـــه وملـــك بزيـــر نكـــين

ترجمته وقلت دوبيت :

قد أظهر قدرة يخافي حكمه

من ملك تشقي الدَنّا في قسمه

لا كف له والملك في خاتمه

ولا رجل له والتخت موطئ قدمه" (٣)

القيمـة الأسـلوبية بثقافتـه باللغـة الفارسـية أبـرزت لـه مقـدرة بارعـة بنظم الشعر بالفارسية، ومن شعره الفارسي الذي أبرز معالم شاعريته فـي الشـعر الفارسـي مـن خـلال سرديته فـي كتابـه فاكهـة الخلفـاء فـي تصويره

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٩.

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٥.

(٣) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٤٧٣.

لجنكيز خان عند هجومه لبغداد، **يقول** : " فلما أستخلص الأموال أمر بقتل الرجال ، وأسر النساء والأطفال والنهب العام ، لسائر الأغنام ومن أخذ شيئاً فهو له ، لا يقطع أحد سبله ، ثم أمر بهدم البلد والإحراق ، وإعدام عينها على الإطلاق ، فمهما قال فعلوه ، وكل ما رسم امتثلوه ، فساروا بالبلد الأرض ، استوفوا أعمار أهلها بالفرض والقرض ، فلم يبقى منهم ديار، ولم ينج من تلك النار نافخ نار ، **ويقال أنّه نجا من هذه النار الواقعة رجل باقعة ، فوصل إلى خراسان** فسألوه عن هذا الشأن ، كيف كان ؟ فقال لهم بذلك اللسان ما صورته :

أمدند وكندند وسو ختند وكشتند وبردند ورفتند

يعني : هجموا وهدموا وأحرقوا وأرهقوا ونهبوا وذهبوا

فقيل : لم يوجد في الفارسي في هذا المعني أحسن ، من هذه الألفاظ ولا أصن ولا أوجز ولا أمتن" (١).

ليس ثقافته باللغة الفارسية فقط إنّما اللغة التركية ، وأيضا تبيين ثقافة ابن عربشاه بالفارسية والتركية، على لسان السخاوي، صاحب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع أنّه " برع في فنون أستيعاب اللسان الفارسي والخط المغولي وأتقنهما وأجتمع في بلاد المغل بالبرهان الاندكانى، والقاضي جلال الدين السرامي ، وأخذ عنه ، وقرأ النحو على جامي ، تلميذ السيد ، ثم توجه إلى خوارزم فأخذ عن نور الله واحمد بن شمس الأئمة ، وكان يقال له ملك الكلام الفارسي والتركي والعربي، ثم إلى بلاد الدشت وسراي ، وحاجي ترخان، ثم إلى قدم ، ثم قطع بحر الروم، إلى **مملكة ابن عثمان ، فأقام** بها نحو عشر سنين ، فترجم فيها للملك غياث الدين أبى الفتح بن محمد ابن أبى بزيد ، فترجم كتاب **جامع حكايات ولامع الروايات** من الفارسي إلى التركي في نحو مجلدات، وتفسير أبى الليث **السمرقندي** القادري بالتركي نظماً ، وباشر عنده ديوان الإنشاء، وكتب عنه إلى ملوك الأطراف عربياً وشامياً وتركياً بالعجمي ، لقرا يوسف ونحوه ، وبالتركي لأمراء الدشت وسلطانها ، وبالمغليَّ لشاروخ

---

(١) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، لابن عربشاه ، ص ٥٧٧.

وغيره، وبالعربي للمؤيد شيخ .... فلما مات ابن عثمان رجع إلى وطنه القديم، فدخل حلب، فأقام بها نحو ثلث سنة ثم الشام، وكان دخوله لها في جمادى الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة ، فجلس بحنوت مسجد القصب، **وتقدم في غالب العلوم وإنشاء النظم** الفائق ، والنثر الرائق، وصنف نظماً ونثراً مرآة الأدب وعلم المعاني والبيان والبديع ، وسلك فيه أسلوباً بديعاً ومقدمة النحو، عقود النصيحة، والرسالة المسماة بالعقد الفريد في التوحيد، ونثر تاريخ تمرلنك سماه عجائب المقدور في نوائب تيمور، وفاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، وخطاب الإهاب الناقب وجواب الشهاب الثاقب ، والترجمان بمنتهى الأدب في لغة الترك **والعجم والعرب** " **معجم** " ، وكان أحد الأفراد في إجادة النظم باللغات الثلاث العربية والعجمية والتركية ، جيد الخط ، جيد الإتقان والضبط ، وعذب **الكلام**"[1] ، **ما قاله معاصروه يدعم مبحث ثقافته من خلال آثاره**[2] ومن ثقافته يذكر خط بلاد الخطا والمغولي حين يقول: " **وفي الخطا لهم** خط يسمي دلبرجين . رأيت حروفه أحداً وأربعين ، وسبب زيادته أنهم يعدون التفاخيم والامالات حروفا وكذلك البين بينات فتتولد الزوائد وكل حرف زائد" [3].

ومن ثقافته أيضا في اللغة المغولية حيث عرض لنا الخط المغولي والمشهور كما يقول (بالقلم المغولي المشهور وعدته أربعة عشر حرفا وهذه مقطعاته).

(1) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ابن العماد الحنبلي ، ج٢ ، ص ١٢٦.

(2) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٤٧٧.

(3)عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص٤٧٧.

وسبب نقصانه وانحصاره في هذا العدد ، إن حروف الحلق يكتبونها على هيئة واحدة وكذلك تلفظهم بها ومثل هذه الحروف المتقاربة في المخرج مثل الباء والتاء والزاي والسين والصاد والتاء والدال والطاء وبهذا يكتبون تواقيعهم ومراسيمهم ومناشيرهم ومكاتيبهم ودفاتيرهم ومخاتمهم وتواريخهم وأشعارهم وقصصهم وأخبارهم وسجلاتهم وأسفارهم وجميع ما يتعلق بالأمور الدنيوية"[١].

ومن ثقافته الواسعة أن عرض لنا شطرنج تيمورلنك في كتابه عجائب المقدور ، وبه تبرز القيمة الأسلوبية الأدبية والتعبيرية لابن عربشاه بمعرفته الواسعة بأساليب كثير من المعارف والفنون والعلوم .

والنموذج الآتي هو صورة لشطرنج تيمور الكبير:

([١]) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٤٧٧.

– وفاته وشهادة ابن تغري بردي له :

وفاته ٨٥٤هـ

هذه السنة توفي شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم "

وفي حق رثاءه : قول لبيد ابن ربيعة العامري : والذي يكشف مهمة الإنسان الخطيرة في هذا الوجود هي العبادة الحق والتقوى والصدق والحمد والوفاء لله رب العالمين " :

" رأيت التّقَي والحمدُ خير تجارة * رباحا إذا ما المرء أصبح ثاقلا
وهل هو إلا ما أبتني في حياته * إذا قذفوا فوق الضريح الجنادلا
وأثنوا عليه بالذي كان عنده * وعض عليه العائدات الأناملا" (١)

توفي ابن عرشاه ، وترك ما عنده عند ابن تغري بردي حين توفي سنة أربع وخمسين وثمانمائة .

عنه قال ابن تغري بردي(٢) : " الإمام العالم العلامة المفنن الأديب ، الفقيه، اللغوي ، النحوي ، المؤرخ الدمشقيّ ، الحنفيّ ، المعروف بابن عربشاه .

كان إمام عصره في المنظوم والمنثور ، تردد إلى القاهرة غير مرة ، وصحبني في بعض قدومه إلي القاهرة ، وانتسج بيننا صحبة أكيدة ومودة ، وأسمعني كثيراً من مصنفاته نظماً نثراً ، بل غالب ما نظمه ونثره وألفه ، وكان له قدرة على نظم العلوم

---

(١) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري – تحقيق د.إحسان عباس – دار القلم – الكويت – ١٩٦٢م – ص ٢٤٦.

(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب – المؤرخ الفقيه الأديب أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي – ت ١٠٨٩هـ – الجزء السابع –دراسة وتحقيق مصطفي عبد القادر عطار ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، ط ١ ١٩٩٨م ، ص ٤١٦– ٤١٩.

، وسبكها في قالب المديح والغزل ، وسيظهر لك فيما كتبه لي لما أستجزته كتبه بخطه وأسمعنيه من لفظه غير مرة وهو ذا :

بسم الله الرحمن الرحيم الذي زين مصر الفضائل بجمال يوسفها العزيز، وجعل حقيقة ذراه مجاز أهل الفضل فحل به كل مجاز ومجيز ، أحمده حمداً من طلب إجازة كرمة فأجاز وأشكره شكراً ، أوضح لمزيد نعمه علينا سبيل المجاز وأشهد أن لا الله إلا الله وحده لا شريك له ، الله يجيب سائله ، ويثبت أمله ، ويطيب لراجيه نائله ، وأشهد أنّ سيدنا محمداً عبده ورسوله ، سيد من روي عن ربه ، وروي عنه المقتدي لكل من أخذ عن العلماء ، وأخذ منه صلي الله عليه وسلم ما رويت من الأخبار ، ورويت الآثار ، وخلدت أذكار الأبرار ، في صحائف الليل والنهار ، وعلى آله وأصحابه ، وتابعيه ، وأحزابه ، وسلم وكرم وشرف وعظم .

وبعد فقد أجزت الجناب الكريم العالي ، ذا القدر المنيف الغالي والصدر الذي هو بالفضائل حالي ، وعن الرذائل خالي ، المولي الأميري الكبيري الأصيلي، العريقي، الكاملي، الفاضلي، المخدومي، أبا المحاسن الذي ورد فضائله وفواضله غير آسن ، يوسف بن المرحوم المقر الأشرف الكريم العالي المولي الأميري الكبيري الملكي المخدومي السيفي ابن تغري بردي الملكي الظاهري أدام الله جماله ، وأبلغه من المرام كماله ، وهو ممن تغذي بلبان الفضائل ، وتربي في حجر قوافل الفواضل ، وجعل اقتناء العلوم دأبه ، ووجه بين مدين الآداب ركابه ، وفتح إلى دار الكمالات بابه ، وصير إحرازها في خزائن صدره اكتسابه ، فحاز بحمد الله تعالي ، حسن الصورة والسيرة ، وقرن بضياء الأسرة وصفاء السريرة ، وحوي السماحة ، والحماسة ، والفروسية ، ولطف العبارة ، والبراعة ، والعرابة ، واليراعة والشهامة ، والشجاعة ، فهو أمير الفقهاء وفقيه الأمراء وطريف الأدباء وأديب الظرفاء :

فيما تصفه صف وأكثر فأنه لأعظم مما قلت فيه وأكثر

فأجزت له معولاً – أحسن الله إليه – أنْ يروي عني هذه المنظومة المزبورة المرقومة ، التي سميتها حلوة الأمداح الجمالية في حلتَّي العروض والعربية ، عظم الله شأن من أنشأت فيه ، وحرسه بعين عنايته وذويه ، وسائر ما تجوز لي وعني روايته ، وينسب إليّ علماً ودراية ، من منظوم ومنثور ومسموع ومسطور بشروطه

المعتبرة ، وقواعده المحررة ، عموماً وما ذكر لي من مصنفات خصوصاً ، فمن ذلك مرآة الآداب في علمي المعاني والبيان من بعد ذكر الخطبة العربية وذكر فائدته وأقسامه :

بدر تأدب حتى كله أدب * يقول من يهو وصلي يكتسب أدبي
بدأ بتاج جمال في حلي أدب * تسربل الفضل بين العجب والعجب
يصن كلامي وخطي في معاهدتي * عن الخطي أنني بدر من العرب
وهذا وقدر علومي كالبروج علا * فمن ينلها يصر في الفضل كالشهب
أصولها مثل أبواب الجنان زهت * ينال من نالها ما رام من رتب
خذ بكر نظم تجلت وجهها غزل * وروحها العلم والجثمان من أدب
فريد إذا ما رمت جوهرة * تري الصحاح كثغر زين بالشنب
وان تصرف من عقد ومن عقد * إلى عقود فهذا الصرف كالذهب
لفظي من الشهد مشتق بخطي ذا * سيف فدونك علم الضرب والضرب
أصل المعاني إذا ما رمت من كلمي * فقل هي الدر واقصد نحونا تصب
معناي زاد على حسني فصنف في * علم المعاني وفي حسني وفي حسبي
طورا أبين كم طورا أبين لذا * فن البيان غدا مراة مطلي
طبعي وشعري وأوزاني يناط بها * علم العروض مناط الود بالسبب
حسني وظرفي وآدابي قد انتظمت * نظم القوافي فخذ علمي وسل نسبي
قد أخلف البان قدي حين خط علي * خدي لريحان خط ليس في الكتب
هذا على أصل حسني يستراد فلا * تعب ودونك علم الخط لا تخب
في وصفي النظم والنثر البديع فخذ * علم القريض مع الإنشاء والخطب
وأنْ تحضر فحضر في مغازلتي * وأحفظ تواريخ ما أمليه من نخب
وأقصد بديع معاني التي بهرت * عند البيان عقول العجم والعرب
إني أنا البدر سار في منازله * مكمل الحسن بين الرأس والذنب

من ذلك العقد الفريد في علم التوحيد وأوله بعد الخطبة:

سبي القلب ظبي من بني العلم أغيد * لـــه مقلـــة كحلـــي وخـــد مـــورد
أوحـــد مـــن أنشـــأه للخلـــق فتنـــة * فيســـأل مـــا التوحيـــد وهـــو يعربـــد
فقلـت لـه الإيمـان بـالله مـن يـري * لحاظـك بـاري الخلـق والكـون يشـهد
فبالكتب والملاك والرسل صل فتي * يـــراه هـــواك القاتـــل المتعمـــد
وأن تفتنـــي هجـراً أقـم يـوم بعثتـي * وقـد نشـر الأمـوات والحـوض يـورد
وقـد كـورت شـمس وشـققت السـما * وكـل الـورى نحـو القصـاص تحشـدوا
وقـد نصـب الميـزان وأمتـد جسـرهم * وأقبلـــت فـــي ثـــوب الجمـــال تـــردد
أنـــادي وقـــد شـــبثت كفـــي بذيلـــه * وتضـــريج أكفـــانى ولحظـــك يشـــهد
حبيبـــي بـــم اســـتحللت قتـــل مبـــراً * ومـــا ذنبـــه إلاّ ضـــني فيـــك مكمـــل
فقـال أمـا هـذا بتقـدير مـن قضـى * وحكـــم مضـــى مـــا فيـــه قـــط تـــردد
فقلـت بلـى والخيـر والشـر قـدرا * وكـــل بتقـــدير المهـــين مرصـــد
فقال فمن هذا الذي ذاك حكمه * وتقـــديره صـــفه لكـــم أو خـــد
فقلـــت إلـــه واحـــد لا مشـــارك * لـــه لـــم يلـــد كـــلا ولا هـــو والـــد

واستطردت من ذلك إلى ذكر الصفات وتنزيه الذات إلى أن قلت:

هو الله من أنشأك للخلق فتنة * ليسفك مـن جفنيـك سيف مهنـد

ومن مصنفاتي المنثورة تاريخ تمر لنك عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ومنها فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، ومنها خطاب الإهاب الناقب وجواب الشهاب الثاقب ، ومنها الترجمان المترجم بمنتهي الأدب في لغة الترك والعجم والعرب ، ومن النظم القصيدة المسماة بالعقود النصيحة أولها:

لـك الله هـل ذنـب فيعتـذر الجـاني بلـي صـدق مـا أنهـاه أنـي بكـم فـاني
ومـن سـوء حـظ الصـب أنْ يلعـب الهـوى بأحشـائه والحـب يـومى بولعـان
ومـن شـيم الأحبـاب قتـل محـبهم إذا علمـــوه فـــيهم صـــادقاً عـــاني

ومن ذلك غرة السير في دول الترك والتتر ، وكان عند كتابة هذه الإجازة لم يتم ، وأقتصر في التذكرة على هذه المصنفات العشرة ، للوجازة لا للإجازة .

هذا وأما مولدي فداخل دمشق ليلة الجمعة الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة تسعين وسبعمائة ثم ذكر ترجمة طويلة لنفسه .

قال صاحب المنهل ومن نظمه معمى:

وجهـــــك الزاهـــــي كبـــــدر * فـــــوق غصـــــن طلعـــــا
وأســـــمك الزاكـــــى كمشـــــكاة * ســـــــــــناها لمعـــــــــا
فـــــــــي بيـــــــــوت أذن * الله لهـــــــــا أن ترفعـــــــــا
عكســـــها صـــــحفه تلقـــــي * الحســـــن فيهـــــا اجمعـــــا

وتوفي يوم الاثنين الخامس رجب بالقاهرة عن اثنتين وستين سنة وستة اشهر وعشرين يوما . ومات غريباً عن أولاده وأهله ووطنه".

وهذه شهادة من صاحبه ابن تغري بردي ومعاصره يؤكد لنا مدي ثقافة ابن عربشاه الأدبية والفنية والعلمية واللغوية لاسيما اللغات الأجنبية.

المبحث الثاني

صورة مجتمع ابن عربشاه

عند دراستنا أدب ابن عربشاه لابد لنا أن نلم ولو بشكل ثانوي بصور من مجتمع عصره ، لأن الواقع الذي يحيط بابن عربشاه هو مصدر بواعثه للنأليف سواء كان التاريخ أو الأدب وغير ذلك من العلوم السالفة الذكر التي نسبت له ، فكان لابد من صورة مجتمع عصره.

المطلب الأول : المجتمع من حيث الحالة السياسية والاجتماعية

(إنَّ المقصود بالعامة في هذه الدراسة هو جمهور الناس من عامة الشعب في سلطنة المماليك سواء أكانوا من العاملين من ذوي الدخل المتوسط ، أم العاطلين عن العمل ، أم المتقاعسين عن تعاطي الحرف المختلفة في المجتمع المعاصر حينذاك ، ويشير المؤرخون المعاصرين إلى هؤلاء بالعامة أو (العوام). ورغم طابع الايجاز الذي اتصفت به أخبارهم إلا أنه يمكن القول انهم يمثلون فئة كبيرة من جمهور الشعب المصري، أو الشامي ، أو الحجازي أهل البلاد الأصليين، بل وأصحاب الحق الشرعي في العيش ضمن حدود ذلك المجتمع، إلا أنهم افتقروا إلى السلطة التى انفردت طبقة المماليك من السلاطين والأمراء والأخيار بممارستها دون رقيب أو حسيب فاحتكروا مزاولة مختلف النشاطات السياسية والفعاليات الاقتصادية والإسهامات الاجتماعية حتى كانوا في ذلك الاستفزاز والاحتكار سبباً رئيسياً في حرمان العامة من المشاركة في كافة تلك المظاهر.

فأصبح حقهم معنوياً وكلمتهم ضائعة ، فكان من نتيجة ذلك كله أنْ أضحت الإشارة إليهم في كتابات المؤرخين المعاصرين باردة وموجزة ، ومن هنا تأتي أهمية بذل عناية كبيرة من أجل دراسة أحوالهم في ظل الحكم المملوكي ، والدور الذي لعبوه في سبيل المشاركة بطبيعة تطور الحوادث ، حتى يمكننا أن نصل إلى صورة

متكاملة لهذه الطائفة التي تضمن فئات متعددة" [١] ، وكان استيلاء المماليك على الحكم بعد سقوط دولة الأيوبيين والتي كان انتهائها (نتيجة حتمية لعدة عوامل تضافرت عليها، منها تكالب الأعداء من الخارج في صورة صليبين ، وأعوانهم من دول أوربا ، وعناصر داخلية أسرعت في القضاء عليها، منها تورط الأيوبيين أنفسهم في نزاع مرير فيما بينهم، ومنها استكثارهم من اقتناء المماليك للاعتماد عليهم في نصرهم. وقد أسرف في ذلك آخر سلاطينهم الصالح نجم الدين، ومنها إهمالهم لشئون الرعية، وسوء معاملة مماليكهم للناس، وتدهور الأحوال الاقتصادية بزيادة نفقات الحروب والأعمال العسكرية ، ورواتب العسكر ، مما أدي إلى تدهور مالي واجتماعي ، وأدي بدوره أو ساعد على تفشي النكبات والجوائح كالطواعين والأوبئة التي حصدت من النفوس العدد الوفير، وأنهكت ما تبقي من الناس ، والمجاعات المتتابعة والزلازل ، وثورات العربان والخارجين في مصر وغيرها من البلدان الشامية والغرابتة. وهكذا سقطت دولة الأيوبيين في مصر باستيلاء شجرة الدر على الملك ، ومقتل ابن زوجها السلطان توران شاه على يد جماعة من أمراء المماليك بعد موقعة المنصورة ، وقد خطب لشجرة الدر أم خليل على المنابر ، وتمكنت بدهائها أن تحكم فترة غير طويلة ، قامت عليها المعارضة فيها واشتدت ، وخاصة من الخلافة العباسية التي كانت تلفظ آخر أنفاسها، ولكن بقي لها النفوذ الأدبي والديني ، فلم يسع الخليفة العباسي تولي امرأة شئون مصر ، وبعث إلى أمرائها برسالة شديدة يقرعهم فيها ، قائلاً لهم كيف تولون عليكم امرأة، إذا لم يكن بينكم رجال بعثنا إليكم بواحد من عندنا" [٢].

إنّ تطورات الأحداث هي التي جاءت على قول ابن عربشاه الدهر دولاب يدور والدهر مكار غيور ، فكانت تقلبات دوران هذا الدهر على الأيوبيين وبما فيهم دولة الخلافة العباسية وكان القدر أن تكن إمارة المؤمنين لسلاطين المماليك وكان رمزهم هو الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري (٦٠٧- ٦٧٦هـ - ١٢١٠ -

---

(١) أحوال العامة في حكم المماليك – دكتور حياة ناصر الحجىّ – الطبقة الأولي – الكويت ١٩٨٤م - شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع – ص١٦

(٢) الأدب في العصر المملوكي ، دكتور محمد زغلول سلام ،

١٢٧٧م) ، حينما ملك وصار سلطاناً لأمارة المؤمنين في الدولة الإسلامية لا سيما في مصر والشام ، وكان استيلائه عليها لم يأت عبثاً إنما كان بتدرج وحنكة حينما انصرف منذ بدايته (للممارسة أمور الحرب والتدرب عليها ، ولم تمض سوي فترة قصيرة حتى اخذ بيبرس في شق طريقه نحو القيادة ، وجاءته الفرصة المناسبة أثناء معركة المنصورة في مصر (سنة١٢٥٠م) فقد قام الفرنج بهجوم قوي للاستيلاء على المنصورة ، وسقط قائد حامية المدينة (فخر الدين) في المعركة ، إلا أن قادة المماليك تمكنوا من إعادة النظام والسيطرة على الموقف ، وكان الفضل في ذلك إلي (بيبرس) الذي تولي القيادة ، فبرهن أنه من أقود القيادة وأكثرهم كفاءة، وذلك عندما أعاد تنظيم القوات بسرعة ، ووزع المقاتلين على المواقع الحساسة داخل المدينة ، وعند تقاطع الشوارع ... واستمر الصراع المرير ثلاثة أيام (٨-١١ شباط – فبراير ١٢٥٠م) ولكن المنصورة صمدت في وجه العدوان ، وتمكنت من صد الغزاة وكان للجهود الرائعة التي بذلها بيبرس دور غير قليل في ما تم إحرازه من نصر .

كانت مصر في تلك الفترة تحت حكم السلطان الصالح أيوب (الأيوبي) ، ولما قام الفرنج بغزو مصر ، لم يحتمل الصالح أيوب الصدمة ، فمات في (٢٣) تشرين الثاني – نوفمبر – ١٢٤٩م ، وتولت زوجته (شجرة الدر) الحكم بدعم من المماليك، وذلك في انتظار قدوم (توارن شاه) بجيشه من الجزيرة الشامية [١]. وما أعقب ذلك من قتل توران شاه على يد المماليك البحرية وعلى رأسهم بيبرس وفي ذلك الوقت تعرض العالم الإسلامي في تلك الفترة لأخطر محنة جابهها منذ أن أقام العرب المسلمون دولتهم ، فقد هاجم المغول بغداد ودمروها ، ووصلت جحافلهم إلى جلب واجتاحتها، وتقدمت إلى دمشق فاحتلتها ، وسيطرت على بلاد الشام ، ولم يبق أمامها سوي عبور سيناء للقضاء على المغرب الإسلامي .

وتصدي المظفر قطر للموقف ، فقاد جيشه ، وغادر مصر في ٢٦ تموز – يوليو ١٢٦٠م . وتولي بيبرس قيادة المقدمة ، فسبق القوات إلى غزة حيث كانت تدافع عنها حامية مغولية – بقيادة بايدار – ولم تصمد الحامية المغولية أمام هجمات بيبرس المنظمة والقوية ... ووقعت معركة (عين جالوت) وفيها تولي بيبرس قيادة

---

(١)الظاهر بيبرس ونهاية الحروب الصليبية القديمة – ص١٨.

المقدمة حيث جابه ثقل هجمة المغول الذي كان يقودهم – كتبغا – ثم تظاهر بالتقهقر في اتجاه الكتلة الرئيسية ، والتي كانت تختفي في ثنايا التلال المحيطة بعين جالوت ، وانقض المسلمون بصورة مباغتة أحاطوا بالمغول ، وكان دور بيبرس كبيراً فيما تم إحرازه من نصر (ويمكننا القول أنه بانتصار المماليك في عين جالوت حصلوا على ما كان ينقصهم من مجد لابد منه لتثبيت أركان دولتهم ، فنسي الناس أصلهم غير الحر ، وتناسوا أنهم في حقيقة أمرهم مغتصبوا العرش من سادتهم الأيوبيين ولم يعد الناس يذكرون إلا شيئاً واحداً هو أن المماليك أنقذوهم من التتار ، وأن بقاء المماليك في الحكم إنما هو ضرورة لابد منها للمحافظة على كيان المسلمين في الشرق الأدنى وفي ضوء هذه الحقيقة يمكننا أن نقرر أن موقعة عين جالوت كانت بمثابة الحد الفاصل للصراع بين الأيوبيين والمماليك فجاءت هذه الموقعة إيذاناً بغروب شمس دولة بني أيوب وارتفاع قمم دولة المماليك والواقع أن السلطان المظفر قطر صار غداة موقعة عين جالوت سيد الموقف في بلاد الشام كلريا من الفرات إلى حدود مصر '' فلم يبقي أمامه من بقايا البيت الأيوبي سوى بعض الشخصيات العجاف التي كانت لا تستطيع الصمود في وجه قاهر التتار) (١) . وبعد المعركة ، وعندما اتخذ المظفر قطر طريق العودة إلى مصر، تقدم بيبرس إلى المظفر قطر وطلب تعيينه حاكماً لمدينة حلب. وارتاب المظفر قطر ، فلم يوافق على طلب بيبرس الذي أخذ في تنظيم مؤامرة على الفور وفي يوم ٢٣ تشرين الأول – أكتوبر – ١٢٦٠م . وصل الجيش إلى دلتا النيل ، ورأي المظفر قطر أن يمضي يوماً من الراحة والخروج إلى الصيد في جماعة من أمرائه من بينهم بيبرس وبعض أصدقائه ، ولم يكد المظفر قطر يبتعد عن معسكره كثيراً حتى تقدم إليه أحدهم متظاهراً بتقبيل يده والتماس طلب منه وأمسك بيده ، ومن تلك اللحظة انفض المتآمرون ، واندفع بيبرس فأتاه من الخلف ، وغرس سيفه في ظهر قائده المظفر قطر. ثم أسرع المتآمرون بخيولهم إلى المعسكر ، أعلنوا نبأ مصرع السلطان. وكان قائد الجيش اقطاي بالسؤال عمن تولي قتل السلطان. وأعلن بيبرس أنه هو الذي نفذ المؤامرة ، فطلب إليه (أقطاي) الجلوس في دست السلطنة ، وكان أول من قدم له

(١)العصر المماليكي في مصر والشام – ص٣٧.

فروض الولاء والطاعة ، وحذا حذوه جميع قادة الجيش. وعاد بيبرس إلي القاهرة ، وقد اصبح سلطاناً يناهز الخمسين من عمره ..... ما إن استولي بيبرس على السلطة حتى وجد أمامه مجموعة من الأعمال الكبيرة ، وكان عليه قبل كل شيء أن يوطد مركزه ، باعتباره حاكماً تقرر الاعتراف به سلطاناً في مصر بدون اية معارضة أو مقاومة(١) .

(وأما الناس والشعب في مصر والشام وغيرهما من البلاد الأخرى التي تقع تحت نفوذهم ، فكانوا مغلوبين على أمرهم ، لتوالي الإرهاق ، والكتب ، والظلم ، وكل العناصر التي سليبة إمكاناته ، وحيويته ، ومبادرته إلى العمل بفعالية في تسيير مجري الأحداث ، وخاصة فيما يتعلق بمصيره وتقرير أمر حكامه ، فما أكثر من توالي غلبه من الحكام الغرباء ، الذين حكموه رغماً واسترقوا طاقاته ، ومع ذلك فقد استلهم ظروفه ، وتلاءم مع قدره ، وتعاون مع أولئك الغرباء للحفاظ على نفسه وتراثه من الضياع تحت أقدام تلك القوي الغاشمة من الصليبين والتتار، لأن أولئك الغرباء حاجة الشعب إليهم للبقاء ، وتمسكهم بهم للذود عن النفس والدين ، فازدادوا جوراً وتعسفاً ، واسترقوا دمه للتمتع بالخيرات ، والنعم كلها دونه ، وتركوه يشقي لينصموا ، ويزرع ليحصدوا). وهكذا قامت دولة المماليك في مصر وعاشت طوال تلك القرون الثلاثة ترفع وتمرع. فقد تأسست الدولة الأولى المسماة بالمماليك البحرية باستيلاء شجرة الدر أم خليل على السلطنة سنة ٦٤٨هـ ١٢٥٠م . وانتهت بموت السلطات الملك الصالح زين الدين ماجي سنة ٧٨٤هـ ١٣٨٢م . قامت الدولة الثانية بتولي السلطان ظاهر برقوق وانتهت بأخر سلاطينهم (٢) . ولقد اتصف بعض السلاطين المماليك بالعطف على العامة خاصة

المحتاجين والضعفاء منهم ، المتالات للأيتام ، وتأسيس مودع جديد لمال الأيتام ، وإعادة الأملاك المصادرة إلى أصحابها المغلوبين على أمرهم وتأكيد حرمه الأوقاف والتشديد على عدم التعرض إليها أو اغتصابها خاصة العقارات الموقوفة لصالح الفقراء .. من هؤلاء السلاطين (كان لاجين معظماً للشرع وأهله منفذاً لأوامره ...

---

(١) الظاهر بيبرس ونهاية الحروب الصليبية القديمة – ص٢٠-٢٢.

(٢)الأدب في العصر المملوكي – ص٢٨.

وكان لاجين شجاعاً مقدماً على أقرانه في الفروسية وأعمالها ، كثير الوفاد لمعارفه وقدامه . ومنع من لبس الكلفناه الزركش والطرز الزركش وملابس الذهب ، وشدد في المنع من المحرمات كلها، وحد في الخمر بعض أولاد الأمراء، وكان يصوم رجب وشعبان ويقوم الليل ، ويكثر من الصوقات ، مع لين الجانب وحققت النجاح ... ونتيجة لهذا كله من الأعمال الطيبة والأفعال الخيرية تمتع لاجين بشعبية كبيرة بين رعاياه ، وكانوا يفرحون لمشاهدته فرحاً شديداً خصوصاً الحرافيين[١] . وعن وفاة بيبرس فقد (ذكرت المصادر روايات مختلفة عن سبب وفاته ، إذ ذكرت بعض المصادر أن بيبرس مات متأثراً بجراحه التي أصابته في معركته الأخيرة ، في حين ذكرت مصادر أخري انه مات مسموماً حيث كان قد اعد قميزاً مسموماً) .... لم يحفل بيبرس بتنظيف الكأس ، شرب منها فمات في أول تموز (يوليو) سنة١٢٧٧م[٢].

وخلاصة القول :

" فانّ العلاقة بين المماليك باعتبارهم حكاماً ، وبين الشعب أو الرعية لم تكن مستقرة تماماً ، لعدة أسباب ، لعل أهمها اعتقاد الناس بعدم شرعية هؤلاء المماليك وعدم أهليتهم للحكم وأن كان الفقهاء قد مهدوا لهم السبل ، وأقاموا لهم أسباب الشرعية بحكم قيامهم بعبء الجهاد والدفاع عن أرض الإسلام ، وأرواح المسلمين، وأجاز لهم هذا حق السلطة وان كانوا شرعاً نواباً عن الخلفاء الذين لهم حق الولاية على الناس. إلا أن هذه النيابة ، وذلك التفويض كان صورياً والسلطان التركي حاكم مستبد مطلق الحكم ، وله أن يتجاوز حكم الشرع وحكم القضاء الشرعيين فيقضي بأمره دون الرجوع إلى القضاء ، ويأمر بالقتل والمصادرة والسجن وما إلى ذلك من الأحكام دون محاكمة ولا رجوع إلى حكم الشرع. ومن هذا ظل السلاطين حكاماً مسلمين يعيش الفقهاء من ظلهم راضين أو مرغمين يحللون لهم أحياناً بعض ما يرتكبون من حماقات.

---

(١) أحوال العامة في حكم المماليك – ص٣٦-٣٧ .

(٢) الظاهر بيبرس ونهاية الحروب الصليبية القديمة – ص٥٧.

وكانت ثورات بعض أعراب الصعيد راجعة إلى سخطهم على الحكام لعدم اقتناعهم بشرعية ولايتهم ، ولم يكن عامة الناس فيما بينهم وبين أنفسهم راضين تمام الرضا إنما كان يسكتهم القهر أحياناً ، وأحياناً ما يغدق هؤلاء المماليك على الناس من الخير ، ولا ينكر أحد أن دولة المماليك على الرغم ما ارتكبته من المظالم والسيئات. فالحسنات والإصلاحات التي تمت في عهدها كثيرة والخيرات التي نعمت بها مصر والبلاد المنطوية تحت لواء السلطنة عامة والمظاهر والآثار الحضارية الفارهة والتي بقيت على الزمن شاهده على أمجادهم لا يمكن إغفالها .

ولا شك إن المماليك أثروا طوال حكمهم في زمن الدوليتين آثاراً بالغة في مصر والمصرين وفي الشام وأهله. ومن بين تلك الآثار الباقية والحية ارتباط شعوب الدول التي خضعت لهم ثقافة ودماً وعادات وتقاليد بقيت إلى اليوم تحدث بأنها كانت يوماً ما أمه واحدة في ظل دولة عظيمة" [1]. وشاهد ذلك علماء هذا العصر المملوكي بنتاجهم العلمي والأدبي والديني بأنهم سند الحضارة الإسلامية. **المطلب الثاني: حالة الأدب والأدباء في العصر المملوكي من خلال رؤية ابن عربشاه النقدية**

على الرغم دور المؤثرات السياسية في هذا الدولة المملوكية بعدم مساعدة الأدباء والشعراء والكتّاب وكان ابن عربشاه نموذجاً حياً شاهداً على هذا القول الذي سبق مصوراً لنا من خلال كتابيه موضوع البحث صورة الأدب والأدباء في هذا العصر ومدي الأثر السياسي والاجتماعي في عدم معرفة الناس لأدبهم حتى عصرنا هذا ، يقول ابن عربشاه معبرا عن أحوال الدولة المملوكية والأدباء وصراع السيف والقلم والسلطة والثقافة في دواعي تأليفه لكتابه عجائب المقدور في نوائب تيمور حين يقول :" فمن أراد التنزه في التواريخ فعليه بمداومة تكرارها ، ومن قصد التفكه في رياض الإنشاء فليتقطف بهي أزهارها ، ومن سلك طرائق الأدب فليجني من حدائقها جنى ثمارها ، ومن رام التسلق إلى ذروه العلوم فليتشبث بأذيال آثارها، ومن طلب الاعتبار بتقلبات الزمان فليتأمل حقائق أخبارها، ومن اعتني بسياسة الملك فليتدبر دقائق أسرارها. مع أني لم أوفها حقها في التهذيب ، ولم تنل استحقاقها في حسن

([1]) الأدب في العصر المملوكي – الجزء الأول – ص٥٦ – ٥٧.

الترتيب والتشذيب ، **لأن الكلام كالدَّر المنتظم والدَّر المنسجم ، لابد أن يتعانق لفظه ومعناه أولاً وأخرا ، وتتطابق عبارته وفحواه باطناً وظاهراً وإلا اختل نظمه واعتل فهمه وانحطت منزلته وسقطت من سلم الفصاحة درجته.** وهذا يحتاج إلى بحر ذهن صاف ، ومعدن علم ، وبكفالة ما يتم به عقود جواهره ، واف وذوق احلي من العسل ، وفكر امضي من الأسل ، ويحتاج كما قيل إلى حاضر من التوفيق ، ومعاون صالح النية ، فإن غروب الألسنة ربما جاوزت على القائلين الحجة ، ومن لي بذلك وأني يتيسر لي سلوك هذه المسالك .

وكنت طالما أفوق سهم النظر في بيداء التأمل ، نحو قفص معني دقيق، وأصوب غواص الفكر في دأماء التدبر إلي جوهره قصد رقيق ، حتى إذا قلت فاز القناص وحار القواص ، وإذا بقاطع الشواغل قطع بترس الحوادث ، على سهم خاطري الطريق ، وبتمساح الهموم التهم غواص فكري ، فإذا هو في بحر الغموم غريق ، فتشتد في وجه قصده المسالك ، واصبر من نهار إلى ليل حالك ، قلت:

فــــأني انتقـــــي للنظــــم دراً * ولم تظفر يدي منه بودعه

لكن لما كان الشروع ملزماً وإتمام ما شرعت فيه متحتماً ، لم بدا من الحام ما اسدتيه واصماء ما أنميته ، فصرت في وعوره أقع أقوم ، وفي بحوره اغطس أعوم ، أن راق راكد الخاطر أو حمي الفكر الفاتر ، وتذكرت من الكلام أوائله ، ألحقت منه ما شاكله ، **وإذا أزعجه من الزمان الجفا ، تكدر منه ما صفا وتبدلت الأفكار وتولدت الأخطار** وتساوي غب بصر البصيرة الليل والنهار قلت :

أكمــل كــل ســطر بعــد شــهر * وابنـــي كــل بيــت بعــد عــام

فلا أضع المحمول إلا وقد حمل الموضوع ، ولا أذكر الخير إلا وقد نسي المبدأ.

قلت مضمناً :

والفكــــــــر كــــــــالبحر بيــــــدي لــــــي جـــــواهره

مـــــــــع الصـــــــــــفا ويخفيهـــــا مـــــع الكـــــدر

فتتخرم القاعدة ويختلط رأس المال بالفائدة ، **فقل لي أني ينتظم لي ؟ قال: وقد انفرط الحال** ، هذا وان **الكلام له مقامات ولكل من الفصاحة والبلاغة درجات.**

قلت قديماً مترجماً :

ما أستوي في موقف إفصاح منطيق ولو **قد سحبا سحب** سحبان وأصمي الأصمعي

فأفتكر فيما تري في منزل أعيا الوري **هل ترى** تبت تحاذي قيل يا أرض **أبلعي**

وأين من يوفي المقامات حقها ، ويعطي كل مستحق منها مستحقها ؟ !" [1].

– إذن – سلكت في هذا الكتاب مسلك أبناء العصر وطريقه أولاد الدهر **فإن الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم** . ولو أخذت فيه اخذ العرب العرباء ، ألبسته في ألفاظه ومعانيه ثوب الاستعصاء والأباء فأبرزت ما قصدته من المعاني الجزلة العجيبة في قوالب فحلة غريبة لما التفت أحد إليه **ولا غول القصور الهمم ولا فهام عليه ولما كانت المجازات المشهورة خير من الحقائق المهجورة** والغلط المستعمل أولى من الصواب المهمل، **أبرزتها** في إشارات رشيقة ، وعبارات رقيقة وعملت في بعض المواضع بقوله :

عمـــــــــدا كســـــــــوت مرهبـــــــــاً مغثمـــــــــراً

ولـــــــــو شـــــــــاء حكتـــــــــه محبـــــــــراً

وقد قيل :

إذا أحسســت فــي لفظــي قصــوراً وخطــــي والبراعــــة والبيــــان

فـــــلا ترتـــب لفهمـــي إن رقصـــي علـــى مقـــدار إيقـــاع **الزمـــان**"[2].

فالقيمة الأسلوبية لإيقاع الزمان الذي يشير إليه ابن عربشاه تبرز صورة البلاط الملكي المملوكي بعدم اهتمامه بالأدباء والعلماء في البلاط ، الذي له دور

([1])عجائب المقدور في نوائب تيمور ، تحقيق الدكتور علي عامر ، ص ٣٦٣ – ٣٦٥.

([2]) المصدر السابق ، ص ٣٦٥.

كبير في نشر الأدب ، والتعريف بالعصر وأدباءه ، ولا سيما الشعراء البارعين فيهم. على الرغم من إن البلاط المملوكي دور كبير في إنشاء المدارس التعليمية و خانقا الصوفية ودعمهم لها .

وخلاصة القول من المعروف إن البلاط السلطاني الملكي ، هو بمثابة الاتصال الإعلامي في أي عصر ، بالتعريف بالأدب والأدباء حتى عصرنا الحاضر. في العصر العباسي لولا بلاط سيف الدولة وكافور لما كان اشتهر أبو الطيب المتنبي، إلى الآن بين الشعراء .

إنّما كان اهتمام قصور المماليك وبلاطهم بصورة اجتماعية تناسب تكيف حياتهم لقبول الأدب الشعبي والغنائي ، بمجالس غناء حلت مجالس الأدباء التي كانت في مجد سعدها في بلاط العصور السابقة ، وهكذا كانت المؤثرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية على حياة النتاج الفكري والشعري والأدبي ، وحظ أهله من النعيم من بلاط الدولة المملوكية، الذي يصوره لنا ابن عربشاه بقيمته الأسلوبية في دواعي تأليفه لكتابيه موضوع البحث ، هذه الصورة الاجتماعية لمجتمع المماليك انعكست على صورة الحالة الاجتماعية لعامة أهل مصر والشام لاسيما أثرها الإنساني والثقافي والفكري على الأدباء والعلماء والشعراء الذين أبعدهم اهتمام القصور وبعده الصورة الاجتماعية من الاتصال للمتلقي أن يسمع فيما يكتبون، ويقولون **وهذا الذي جعل ابن عربشاه عندما أراد أنْ يشرع في كتابه عجائب المقدور أنْ يقول:**

واشتبكت بين عزمين ارتبكت بين همين

بين أنْ أسكتْ فأضيع و **أنْ أقول فلا يسمع**

فقدمت رجلاً وأخرت أخرى، وأستنهضت جواد فكري كراً وفراً ، فَقَوَّاني صدق النية فيما هممت، وخلوص الطوية على ما عزمت ، وجمعت من بال متفرق ، والفت من فكر متمزق ، من قضايا :

تيمور العريضة نبدة وجبذت بكف الأفكار

من قوس حكاياته جبذة

نثلت في بيانها من بديع المعاني الجعبة ، وسللت وقد صرّفت مشرف الكلام عضبة وشحذت غربة" (١) ، وجاءت بحمد الله تعالي ظريفة المعاني كاملتها لطيف المباني فاضلتها :

بألفــاظ الحــاظ تشــير إلــى النهــي تعلــم فنــون الســحر كيــف تكــون ؟
– مادام –

كــأن النهــي قــد كــان عنــي ناعســاً فمـــر علـــي أذنيـــه مـــا أتلفـــظ
فــذاق لهــذا الشــهد صــدق حــلاوة ففـــتح عينيـــه وجـــاء يـــتلمظ

بيد ما – **بين هذا الكتاب** وبين ما صنفه قبله ذوو الآداب لبوناً مديداً وأمد بعيداً ، بوجوه **منها:** إن زمانهم كان بالرفاهية يساعد ، وأنا في عصر لا ساعد فيه ولا مساعد، **ومنها** : إنَّ وقتهم كان فيه يري الفضل وأهله ، ويحل كلاً منهم محله ، من الملوك والأكابر، وذوي الفصل والمآثر، وأرباب المناصب والمفاخر، **وأقل منهم كان يحب السماع ويميل إلى الفضل والأدب بالطباع، فكان الفضل فضيلة والأدب خصلة جميلة . وأما الآن فقد أنقلب بأهله الزمان ،** وصار حامل الفضل والأدب من رهطه، والمنتظم من العلم في سلكه ، وسمطه ، كأنّه سارق عملته من تحت إبطه(٢).

ومنها إنْ غالب ما صنف أخبار كاذبة ، وسهام أغراض غير صائبة، لأنهُ لا واقع يطابقه ، ولا خارج يوافقه، فعمد مصنفه، إلى ما عقدته مخيلته ، وتوهمته مفكرته فألف حسبما أراد، وأسس على مقتضى اختياره ما شداه وشاد – ما نقله لنا ابن عربشاه من أساليب العصر من بلاط وأدب وأدباء ملأ إحساسنا إنه بأدبه لم يكن مثلما صور به الأدباء فيبرز لنا في القيمة الأسلوبية في كتابيه موضوع البحث فيقول **في عجائب المقدور في نوائب تيمور– الذي** أخباره صادقة وكلماته بالصدق ناطقة إذ هي في الواقع للخارج مطابقة ، فأبداها منشئ الخاطر وأعاد ، على طبق ما أريد منه وفق ما أراد. وليتني في هذا وهو كفافاً ، من خيرها وشرها معافى ، ولئن

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ٤٠٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٩٣ .

ساعد الزمان بترفيه الحال ، **وخلا من سكان الهموم ربع البال**، لأتَتَبَّعَنّ آثاره ، ولأسترنَّ بقدر الإمكان عُواره ، ولابذلنّ الجهد في ترقيحه، وإصلاحه وتنقيحه وإلا فالصفح مأمول، **والعذر** عند خيار الناس مقبول ، **والمسئول من صدقات ذوي الأدب ، البالغين في البلاغة أعلى الرتب**، أن يسبلوا ذيل الإغضاء عليه ، وينظروا بعين **الإفادة والاستفادة** إليه ويقيلوا العثار ، ويقبلوا الأعذار، فيشد أسره ، ويجبروا كسره ، ويرقعوا خلله، ويحققوا أمله ، راجين من لطف الله ما أرجوه منهم ، **لعل الله سبحانه أن يعفو عني وعنهم ، مع أننا كلنا في الهوى سوا** " وإنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوي". الحمد لله حمداً يملأ أركان الأمكنة ، ويعطر خياشيهم الأزمنة ، وصلي الله على سيدنا محمد صلاة تبلغ قائلها مأمنه، وتحله بشفاعته في **جنة الفردوس الأعلى مسكنه**، وعلى آله وأصحابه الذين استمعوا القول فأتبعوا أحسنه. ونستغفر الله من حصائد الألسنة وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم" (١).

والحمد لله رب العالمين وصلي الله علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم(٢).

ويشير ابن عربشاه زمنا في تصوره للزمان المساعد الذي فكره فيه يساعد حين يقول عنه لازالت : إن الأفهام كانت مدركة وكانت لذلك قريحة الكلام متحركة فلقد صارت الأفهام جامدة ، والقرائح خامدة ونارها هامدة" (٣).

بهذا أبرز لنا ابن عربشاه نظريته في الفن المتجدد والتي يصور بها القيمة الأسلوبية في صراع القلم والسيف، والثقافة والسلطة، واستدعاء العدل الإنساني الفاروقي، الذي يراه مفقود في الدولة المملوكية في عصره ، لا سيما تجاه الأدب والأدباء، فجاء لنا بكتابه فاكهة الخلفاء بعد الملك الظاهر بيبرس الذي ألفه بين كتابيه موضوع البحث، حين يوضح لنا أسلوبه في هذا الكتاب:"الأوْفَقُ التمثيلُ والتنظير، والاستدلالُ بالقليلِ على الكثير ، فَليَتَفَكَّه السامعُ تارةٌ ويتفكّرُ أخري ،

(١) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٤٩٣ – ٤٩٤ .

(٢) ذكر المحقق – يعد هذا الكلام ورد في المخطوطة القديمة للطاهرية بدمشق – الحمد لله رب العالمين وصلي الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

(٣) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٤٩٣ .

ويتنّقلُ في ذلك من الأخفَي إلى الأجلَى ، ويتوصلُ بالتأمّل في معانيه من الأدنى إلي الأعلى .

ومن جملة ما صنف في ذلك، واشتهر فيما هنالك ، وفاق على نظائرِه بمخبرِه ومنظرِه وحاز فنونَ الفطنة ، **(كليلة ودمنة)** ، والمتّثلُ بحكمة الطباع كتاب **سلوان المطاع** ، والمفحِمُ بنظمِه العَجيب ، كلَّ شاعرٍ وأديب، معجزُ الضراغم **الصادح والباغم،** وفي غيرِ لسانِ العرب ، ممن يتعاطي فَنَّ الأدب ، جماعة رضعوا أفاويقَه، وسلكوا من هذا النمط طريقَه ، لكن تقادم عصرُهم وأشتْهر أمرُهم ، وتكرَّر ذكرهُم، وصارت مصنفاتهُم مطروقة وعتاقُ نجبائها في ميدان التأمل عتيقة ، .....

فَفَلَــذْتُ مــن دهــري فْــلَذَة وعَمِلْتُ بموجب: **لكل جديدٍ لذة،**

وسَيّرُتُ فارسَ الأفكار، في ميدانِ هذا المضّمار ، وقصدتُ **من الفائدةِ ما قصدوه، ومن العائدةِ في الداريّن ما رصدوه** ، وجمعتُ **ما بلغني عن نَقَلَةِ الأخبارِ وحَمَلَةِ الآثار ورُوَاةِ الأسفار، على لسانِ** شيخِ اللطائف، ومنبع المعارف، وإمام الطوائف، ومجمّعِ العوارف، ذي **الفضلِ** والإحسان **أبي** المحاسن **حسان ، .....**

ووضــعت هــذا الكتــاب، نزهــة لبني الآداب، وعمدةُ لأُولى الألباب، مــن الملــوكِ والنّــوابِ والأمــراءِ والحجّابِ ، وجعلتُه عشرةَ أبواب،

ومن اللهِ أستمدُّ الصواب، واستغفره من الخطأ في الجواب، إنه رحيمٌ توّاب، كريمٌ وهّاب ، وسميته : فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء.

فإنْ يَفِضء بحرث علمي تُهَدْ منه على درٍ ينيــر عيــون العقــلِ فــي السَّــدَفِ
ألبســتُه مــن خلاعــات النُّهــي خِلَعــاً وربمــا ازدان عِقْــدُ الــدُّرَ بــالخزفِ
والفضــلُ يحتــاجُ فــي تــرويجِ سلعتِــه إلــى الخرافــةِ والمعقــولِ للخــرفِ

فَـاْعبُرْ إلــى البحـرِ تَجْـنِ الـدُّرَ منــه ولا يلهيـك عـن دُّرِه أُضــحوكَةُ الصــدفِ"[1]

بإذنه يأتي تفصيل حديثه في العرض الفني في الفصل الثالث.

([1])فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء للعلامة الأديب والفهامة الأريب الشيخ أحمد بن محمد ابن عربشاه الحنفي تغمده الله تعالى برحمته ولطفه ، وبهامشه كتاب كليلة ودمنة تأليف بيديا الفيلسوف الهندي ترجمه عبد الله في المقفع الكاتب من اللغة الفهلوية ألي اللغة العربية ، طبع المطبعة الميمنية بمصر – مصطفي البابي الحلبي ، ١٣٢٥هـ.

الفصل الثاني

الفصل الثاني

الأسلوب والصورة في كتاب (عجائب المقدور في نوائب تيمور)

المبحث الأول : العرض العام والقيمة الأسلوبية

المطلب الأول: العرض العام لكتاب عجائب المقدور في نوائب تيمور

المطلب الثاني: القيمة الأسلوبية الأدبية لكتاب (عجائب المقدور في نوائب تيمور)

المبحث الثاني :

الصورة الفنية في عرض عجائب المقدور في نوائب تيمور من خلال خاتمته

المبحث الأول :

المطلب الأول: العرض العام لكتاب عجائب المقدور في نوائب تيمور

إنّ هذا في الحقيقة كتاب تاريخ لكن كتبه ابن عربشاه بأسلوب فني أرخ فيه مساؤي تيمورلنك عندما غزا شعوب العالم لاسيما الشعوب العربية والإسلامية ، بجانب ذكر له محاسن ، بخدمته للعلم والعلماء ، وأفعال تيمور هذه على الدول الإسلامية كانت عاصفة عاتية ، صرعت فيها رجالات الإسلام ، وسبيت نساؤهم وأولادهم ، وأحرقت منازلهم ومساجدهم ، واستخرجت أموالهم وطرائفهم ، وصارت مدارسهم وأسواقهم أطلالا بالية ، وامتلأت الأرض بجثث القتلى.

وقد ظلت الدول الإسلامية – من سمرقند إلى الشام تئن همذا تحت ضربات تيمور اسنوات طويلة ، سبلت خلالها فضلاءها وأرباب الصنائع والحرف فيها من النساجين والخياطين والحجارين والنجارين والبياطرة والخيمية والنقاشين والبازدارية.

وكان تيمور يأمر بترحيل الفنون وأهل الصنائع إلى عاصمة ملكه سمرقند. كما نقل كنوز البلاد المفتوحة وثرواتها إلى بلاده وعاصمته ، الأمر الذي جعل من كارثة الدول الإسلامية كارثة حضارية أكثر منها كارثة حربية ، مما كان له أكبر الأثر في انحطاط الفنون وتأخرها في هذه البلاد فترة طويلة.

وكتاب "عجائب المقدور في نوائب تيمور" الذي صنفه ابن عربشاه ، يعتبر من أنفس الوثائق التي دونت عن سيرة تيمور.

بدأ بذكر نسبه وذكر ولادته ، فذكر أنه ولد بالقرب من كش من أعمال ما وراء النهر ، ثم تتبع بعد ذلك ما قيل في منشئه ، ثم بين كيف غدا تيمور صاحب الكلمة في بلخ ، وكيف أنه جعل من سمرقند قاعدة لملكه عام (٧٧١هـ).

ولم يلبث أن ضم خوارزم ثم غزا بلاد فارس فبدأ بخراسان فدانت له وذلك في عام (٧٨٢هـ). ثم فتح جرجان ومازندران وسجستان الواحدة بعد الأخرى ، عام (٧٨٤هـ).

وأغار تيمور كذلك على القفجق عام (٧٩٧هـ). ثم سار إلى الهند عام (٨٠٠هـ)، فاستولي على دهلي ونهبها وخربها.

ويعني ابن عربشاه عناية خاصة بغزوات تيمور لبلاد الشام عام(٨٠٣هـ)، فيذكر في شيء من التفصيل ما ارتكب فيها تيمور من سفك الدماء، ونهب البيوت وإحراقها ، وسبي النساء ، كما يورد ما دار بين علمائها من الجدل الفقهي.

كذلك يفيض ابن عربشاه في تلك المعارك التي دارت بين تيمور وبين السلطان بايزيد العثماني عام (٨٠٤هـ) ، والتي انتهت بأسر السلطان العثماني ن وقد وضعه تيمور في قفص من حديد ، مبالغة في إذلاله وإهانته.

كما يعرض المؤلف إلى حالة إمبراطورية تيمورلنك بعد وفاته. كذلك يعرض إلى شخصية تيمور ، ممتدحاً صفاته العظيمة في فصل خاص قبيل أن يختتم كتابه. وإن كان قد صور لنا تيمور في مطلع هذا الكتاب طاغية فاجراً قاسياً.

ويختتم المؤلف كتابه بوصف قيم لمدينة سمرقند والحياة العلمية بها. على أن أهم ما يميز الكتاب تلك المراسلات التي تبودلت بين الفاتح التتري وبين السلطان برقوق أول سلاطين الدولة المملوكية الثانية وابنه السلطان فرج. وكذلك الرسائل التي تبادلها تيمور والسلطان العثماني بايزيد ، وغير ذلك من المراسلات.

وتعتبر هذه الوثائق على جانب كبير من الأهمية ن لأن المؤلف نقلها عن أصولها التركية والفارسية الوثيقة – بفضل إجادته للتركية والفارسية – وقد أصبحت هذه الوثائق لدي المستشرقين والباحثين من أهم العناص ر في تحقيق سيرة تيمور ، وتحليل شخصيته وصفاته" [1].

([1]) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، مصدر سابق ، ص ٥ – ٧.

المطلب الثاني: القيمة الأسلوبية الأدبية لكتاب "عجائب المقدور في نوائب تيمور"

إن كتاب عجائب المقدور في نوائب تيمور بين كتب ابن عربشاه له قيمة أسلوبية أدبية ، بما فيه أشعاره التي أكدها بنفسه إنها من تأليفه ، على الرغم أنها جاءت عبر مشاكلته نثره ، لاسيما في وصفه لأحداث تيمورلنك وأفعاله في الأمم الإسلامية وغيرها ، فيورد ابن عربشاه في هذا الكتاب كثير من أشعاره حتى ظهرت بها " والشاعرية عند ابن عربشاه تكون جزءاً هاما من شخصيته البارزة ، فهو شاعر سيال القريحة مواتي القلم ندي اللسان. ساجل ومدح ووصف وهجا وألغز ، وأبدع وتلاعب بالألفاظ ، ونظم المعجم والمهمل. واستخدم قدرته الشعرية في نظم العلوم والفنون ، وأخرج بعض مسائل النحو والبلاغة مخرج الغزل في شعره ، إلى غير ذلك" [1]. الذي جعل لهذا الكتاب قيمة أسلوبية أدبية بجانب قيمته التاريخية كما ذكرت سالفاً في العرض العام له ، هذه القيمة برزت على التوالي في موضوعات الشعر المختلفة التي عبر عنها ابن عربشاه الشاعر من بديع أفكاره فعبر عنها بتحربته البشرية في الحياة ودورانها ، بحيث هذه التجربة البشرية لابن عربشاه نقصد بها " مضمون العمل البشري بما فيه من أفكار وقضايا ومواقف، وبما يشتمل عليه من رؤية خاصة كانت أم عامة وبمعني عام فهي المحتوي البشري الذي يحمل الانفعالات الشعرية في صورتها الخيالية والموسيقية ويصعدها حتى تصل معها إلى نهاية الانفعال في لحظة اشباعه – بحيث – تمثل التجربة بهذا المعني الوجه الثالث للغة الشعر ، فلا يستطيع الباحث من ثم أن يتجاهل الحديث عن التجربة البشرية في العمل الشعري حينا يريد أن يتحدث عن التجربة الشعرية كتجربة لغة – ولأنها – تتضمن ثلاث مستويات تعبيرية المستوي العادي والمستوي الانفعالي أو النفسي ثم المستوي الواعي ، وهذا يعني أن بالتجربة البشرية جانباً فكرياً وما دام عبر عنها ابن عربشاه في خاتمة كتاب "عجائب المقدور في نوائب تيمور" حينما يقول :

" لما كانت الدنيا دار انقلاب ، محل تغير واضطراب قدمت على الأخرى الاكتساب * أما لجزيل وأما بوابيل العقاب ، وكان سيرها سريع الاجتثاث * وإذا

---

(1) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي وألدبي في النثر الفني محمود زرق سليم ، م ٥ ق ١ ، ج ٣ ، مكتبة الآداب ، ١٩٥٥م – ١٣٧٤هـ ، ص ٤٨٣.

مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث * أردت أنْ يخلد لي ذكر * ويجول لي في خواطر الآخرين فكر * لعل رحمة تتبعني * أو دعاء صالح ينفعني * فناداني لسان الحال * لا خيل عندك تهديها ولا مال * وأما الأولاد فليت صالحهم كفاني شره * ووازن في حياتي نفعه وضره * فلم يبقي إلاّ علم ينفع * وإفادة ترفع * وقد صنف العلماء في كل فن من العلوم ما بلغوا فيه من الغاية * وتدرجوا في تقريره وتحريره من البداية إلى النهاية * وعينوا معانيه متوناً وشروحاً * وبينوا فحاويه خفاءً ووضوحاً * مع أنْ دروس العلوم قد درست ، وحدائق رياضها ذبلت، ويبست * وصار الكلام فيها عيياً *والمستوي في تحقيقها وتدقيقها نياً * ولم يبقي لطالب العلم به انتفاع * إلا إنه إذا أحتاج إلى القوت عرض كتبه لتباع * غير إنّ بعض كبراء العصر ورؤساء الدهر * وبقايا الأكياس * متشوقون لتواريخ الناس * ومتطلعون لمعرفة من ساس * من ذنب ورأس * من هذه الأمة وانقضي من متغلبيها وبغاتها * ومتمرديها وطغاتها * مسلمها وكافرها * مقسطها وجائرها * عاتيها ومواتيها * مصادقها ومعاديها * صالحها وطالحها * سانحها وبارحها * غابرها ودارجها * عابرها وخارجها * مثل تيمور الأعرج * ولا أعبر منه في العتو ولا أخرج * سيرة كلها عبر * وكل عبرة منها فيها سير * أموره أظهر من أن تخفي * وما أضرمه من فتائل الفتن شرقاً وغرباً * أعظم من أن يطفأ * فقصدت ما ذكرته * وذكرت ما قصدته * وتوخيت الإفادة والاعتبار * لا التفاخر والاشتهار * فاعترضتني نوائب الخطوب * وكشرت دون مرامي أنياب الخطوب * وجبهتني يد الردع * وصدمتني قارعة المنع * بأن اكبر الكبائر * في هذا الدهر الدائر * أدب أديب * أو فضل أريب * او علم عالم لاسيما غريب * لقد كره الأديب والفقيه * كراهية التحريم لا التنزيه * وقد تقرر هذا في الأذهان ورسخ * ولهم الذنب إذا يداهم أوكتا * وفوهم نفح * ثم ذكرتني شأني * وخاطبتني بلساني *

انصرف غض العمر في طلب العلا * فتظمئ أكبادا وتسهر أعينا
نقاسي صروف الدهر فقراً وغربةً * وبعداً عن الأوطان للقلب موهنا
وعيلة أطفال ضعاف كأنهم * جوازل زغب أنهكتها يد الضنا
ففي مثل تلك الحال ما كنت ضائعا * وكنت بنفس فقرها واسع الغني

إلــى أن حبــاك الله فضـــلا ورفعــة * وحــزت فنونــا مــن علــوم لهــا ســنا
فصــرت عزيــزاً فــي البرايــا مكرمــاً * وطــار فــي الآفــاق مــن صـيتك الثنــا
وقـد سـل فـوق الـرأس سـيف مشـيبه * وهـل بعـد هـذا غيـر معتـرك الفنـا
أتخشــى ضــياعاً بعــد ذاك وعيلــة * فترهـب مـن فقـر وترغـب فـي الـدنا
فتبــذل وجهــا طالمــا صــنت مــاءه * لـــك الله لا تفعـــل وكـــن متكنـــا
وهـل فـي الـورى مـن يرتجـي لملـة * وإن قيـل مـن للمكرمـات يقـل أنـا
فصن عن جميع الخلق نفسك واتكل * على الله مولى لم يزل بك محسنا[1]

وهذا الجانب الفكري في تجربة ابن عربشاه البشرية يقول عنه:

والفكر كـالبحر يبـدي لـي جواهره وه * مــع الصــفاء ويخفيهــا مــع الكــدر

فتخزم القاعدة ، ويختلط رأس المال بالفائدة ، فقل لي اني ينتظم لي ، قال ؟ وقد انفرط الحال ، هذا وإن الكلام له مقامات ولكل من الفصاحة والبلاغة درجات قلت قديماً مترجماً :

ما استوي في موقف إفصاح منطق ولو قدر * سـحبا سـحب سـحبان وأصـمعي الصـمعي
فـافتكر فيمـا تـري فـي منـزل أعيـا الـورى * هل تري ثبت تحاذي قيل "يا أرض ابلعي"(٢).

فدرجات الفصاحة والبلاغة لابن عربشاه الشاعر ، والتي عبر بها الجانب الفكري في تجربته البشرية شعراً بموضوعاته والتي شاكل بها نثرية خطابه الفني في كتابه عجائب المقدور على التوالي :

١- الغزل :

يقول ابن عربشاه "واضحوا بعد جورهم يتجاورون وبمعني قلته يتحاورون :
"محا الظلم ما بين الورى سيف عدلنا * فلـــم يتشـــبث مغيـــث بمقتـــد
ســوى قلــب صــاده طــرف أحــور * وخصـــر نحيــل آده ردف اغيــد" [3]

٢- الوصف :

(١) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٣٦١.

(٢) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، مصدر سابق ، ص ٣٦٤.

(٣) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، تأليف احمد بن محمد بن عبد الله بن عربشاه "٧٩ – ٨٥٤هـ" تحقيق الدكتور محمد على عمر ، ص ١٩٧٩م ، ص ٢٣٨.

يقول ابن عربشاه واصفا :

" قلت :

"رق للعـــــالم قلـــــب النســـــيم * وأقبـــل الـــدهر بوجـــه بســـيم" [١]

يصف تيمور :

" قلت :

مــن كــل منتجــب للأمــر منتخــب * كالشـــمس وكالضـــرغام إقـــداما[٢]

يصف بحر جليد :

" قلت :

إذا احتاجـــــت جهـــــنم زمهريـــــراً * تنشـــق منـــه أنفـــاس الهجيـــر [٣]

يصف السيل :

" قلت :

الســيل يقلــع مــا يلقــاه مــن شــجر * بــين الجبــال ومنــه الصــخر ينفطــر

حتــى يــوافي عبــاب البحــر تنظــره * قــد اضــمحل فــلا يبقــي لــه أثــر [٤]

وصف الطبيعة في إطار كلي :

(١) وصف مصيف :

"منظر ظريف ، وترابه نظيف ، ماؤه خفيف ، وهواؤه لطيف ، كأن الخلد خلع على أكتاف رياضه ستدسه الأخضر ، والفردوس فجر في خلال أشجاره من نهره الكوثر ، على حدائقه من روضات الجنات شبه ، وفي ربوة جبهته للإبصار دهشات وللبصائر نزه ، قلت :

عليـــه شـــقيق قـــد زهـــا فكأنـــه * صــحون عقيــق أترعــت بالعنــابر [٥]

يصف قلعة ماردين التي تمنعت بحصونها على تيمورلنك وجنوده بقول :

([١]) المصدر السابق ، ص ٢٦٢.

([٢]) المصدر السابق ، ص ٢٦٣.

([٣]) المصدر السابق ، ص ٢٧١.

([٤]) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، المصدر السابق ، ص ٦١ - ٦٢.

([٥]) المصدر السابق ، ص ١١٨.

" قلت :

كـأن معـولهم فـي ثقـب تربتهـا * منقار طير على صلد من الحجر

أو عـزل ذي حسد صباً به صمم * أو غمز عين معني فاقد البصر [١]

يصف منتزه في مدينة سمرقند يسمي "كان كل" :

" قلت :

رعـي فيـه غـزال التـرك شـيحا * فصـار المسـك بعـض دم الغـزال

قلت :

بسـاط زمـرد نثـرت عليـه * مـن اليـاقوت ألـوان الفصـوص

قلت :

كـأن مـدور الأزهـار فيـه تخشـى * وورد فـي محاسـنه تتضـد

صـحاف مـن لجـين أو عقيـق * ومرجـان ويـاقوت وعسـجد

فهـذي حشـوها مسـك فتيـت * وهـذي ضـمها تبـر مبـرد

أراد الـروض يجلوهـا علينـا * فصـاغ لهـا أكفـا مـن زبرجـد

قلت :

كـأن ربـاه وقـت هبـة * خضـم بـأنواع الحلـي مرصـع

قلت :

شـقائقه خـدود ناضـرات * تحشـت مـن سـواد المقلتـين" [٢]

يصف بحر جليد :

" قلت قديما:

على البحر قد عانيت جسراً ممدداً * بناه إلـه العـرش صـرحاً ممـرداً

بكيـت فخلـت الـدمع فـي جنباتـه * رقيـق رحيـق فـي زجـاج تجمـدا[٣]

التوظيف الفني للطبيعة المتحركة والصامتة :

([١]) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، المصدر السابق ، ص ١٧٩.

([٢]) المصدر السابق ، ص ٢٣٣ – ٢٣٤.

([٣]) المصدر السابق ، ص ٢٤٨.

يصف استعداد العساكر المصرية والجنود الإسلامية لملاقاة تيمورلنك :

" ثم ارتحل مجريا ذلك البحر الزخار ، والسيل التيار ، والطوفان الثرثار ، حتى أشرف على دمشق من قبة سيار ، ووصلت العساكر المصرية والجنود الإسلامية، وقد ملئوا الفضاء ، وأشرق الكون منهم وأضاء ، فيالق سهامها لحب قلب من نوي الخلاف فالقة وصواعق سيوفها في عقاص كل عقص صاعقة ، وأسنة رماحها لرتق سماء الأرواح عن أرض الأشباح فاتقة.

وقد طلبوا الأطلاب وحزبوا الأحزاب وعبوا الميمنة والميسرة ، ورتبوا المقدمة والمؤخرة ، وسووا القلب والجناح ملئوا البطاح والبراح وساروا بالمقاتب المكتبة والكتائب المركبة ، والمراكب المكوكبة ، والمراتب المقربة ، والمقربات المرتبة ، والسلاهب المجنبة ، والنجائب التي هي على أكل اللجم مسلهبة ، وفي كل كتيبة من الأسود الضراغم ، ومن النسور القشاعم.

قلت :

وربَ ذي لجب كالطود ذي حنق * كأنه البحر في اثناء غابات
بحران في كل موج منهما أسد * يلاعب الموت في كفيه حيات
كل تري العين معناه وصورته * عند النزال وأن ينزل فشطفات
إن يسر تلق السما في الأرض دائرة * أو سار تعقد أرضاً منه غبرات

وقد تنكبوا حنايا المنايا ، وتقلدوا سيوف الحتوف ، واعتقلوا الذوابل النواهل، وثبتوا ، حيث نبتوا ن وكأنهم خلقوا من كواهل الصواهل.

قلت :

كأن الجو ثوب لازوردي * يزركش نسجه قضب الرماح
فإن عقد القتام عليه ليلا * أرتك صفاحه لمع الصباح
كأن نجومه النشاب ترمي * شياطين الكفاح لدي النطاح" [١]

٤- الفخر :

يقول فخراً

(١) المصدر السابق ، ص ١٤٨ - ١٤٩.

" ما قلته في مرآة الاداب :

يـــد الله قـــوتتي فغلـــت يـــداهم * وهـذي يـدي فـيهم بسيفين تضـرب[1]

" بمعني ما قلت :

"جعلنا ظهور القوم في الحرب أوجها * وقمنـا بهـا ثغـراً وعينـا وحاجبـا"[2]

٥- المدح :

يمدح العساكر الشامية :

اســــــود إذا لاقـــــــوا * ظبــــــــاء إذا أعطـــــــــوا

جبــــــــال إذا أرســــــوا * بحــــــــار إذا ســــــــروا

شـــــــموس إذا لاحـــــوا * بــــــــدور إذا انجلـــــــوا

ريـــــــــاح إذا هبــــــوا * غمـــــــام إذا همـــــــوا

صــــــــقور إذا انقضــــــوا * نمــــــــور إذا ســـــــموا

رعـــــــود إذا صـــــــاحوا * صـــــــواعق إذا رمـــــــوا[3]

يمدح تيمورلنك :

" قلت :

فكـــم قـــدحت أراوه زنـــد فتنـــة * حمتـه لـدي الباسـاء وأورت قبـائلا [4]

ويقول فيه مدحاً :

فــاق مــن قــاد للعــدا كــل جــيش * بكـــلام ثنـــي القريـــب بعيـــدا

مـــزج النقـــل فـــي القيـــاد بعقـــل * فهـــدي عاشـــقا وأهـــدي حبيبـــا[5]

يمدح ويصف الرسول صلي الله عليه وسلم " فهو دعوة إبراهيم الخليل ، ومتوسل موسى والعلماء من بني إسرائيل ، والمبشر بقدومه على لسان عيسي في الإنجيل ، وحامل لواء حمد ربه يوم لقائه ، آدم ومن دونه تحت لوائه ، وهو صاحب

---

(١) المصدر السابق ، ص

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٥.

(٣) المصدر السابق ، ص ١٥٠.

(٤) المصدر السابق ، ص ٣١٥.

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٢١.

الحوض المورود ، والمخاطب من ربه في موقف الشفاعة والمقام المحمود أ بمعني ما قلت مفوفاً مقتبساً :

قل يسمع اشفع تشفع سل تنله تجد * تفويض خلعة عز واقتبس نعمى(١)

٦- الهجاء :

يقول فيه:

ومن عجب الدنيا أشل مصفق * وأيكم قوال وأعرج راقص(٢)

" قلت :

تبدل من سفك وهتك جريمة * أحل بما حرمته الشرائع (٣)

قلت :

قرير العين لا يرجوا إلهاً * خلي البال لا يخشي معاداً (٤)

٧- القيم الروحية والإنسانية :

" قلت :

واصعب فتنة تشميت الأعداء * وأنكي منه تخذيل الموالي(٥)

" قلت بديهياً - " في المرأة" -

وما حز أعناق الرجال سوى النسا * واي بلاء ما لهن به أبلي

وكم نار شر أحرقت كبد الورى * ولم يك إلا مكرهن لها أصلا" (٦)

" قلت :

كريما مت وإلا مت لئيما * فما والله بعد الموت موت (٧)

" فمن ذلك ما ترجمته فقلت :

لئن كانت يدي في الحرب شلا * فرجلي في الهزيمة غير عرجا (١)

---

(١) المصدر السابق ، ص ١١١.

(٢) المصدر السابق ، ص

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٤١.

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٤٠.

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٧.

(٦) المصدر السابق ، ص ٤٢.

(٧) المصدر السابق ، ص ٦٣.

-

كريمـــاً مـــت وإلا مـــت لئيمـــاً * فمـــا والله بعـــد المـــوت مـــوت [٢]

-

ويمكـن وصـل الحبـل قبـل انقطاعـه * ولكــن تبقــي فيــه عقــد الــربط[٣]

-

فكـــت حـــديثاً حســـنا ذكـــره * فإنمـــــا النـــــاس أحاديـــــث[٤]

" هنا يتربص ويتصبر ويتفكر معني ما قلته وهو :

أرقـــب القصـــد وانتظـــر فرجـــا * وانتهـــز وقتهـــا إذا مـــا جـــا

وأمـــزج الصـــبر بالحجـــا فيـــه * ورق التـــوت صـــار ديباجـــا[٥]

" قلت :

قمـيص مـن القطـن مـن حلـة * وشـــربة مـــاء قـــراح وقـــوت

ينـــال بـــه المـــرء مـــا يرتجـــي * وهـذا كثيـر علـى مـن يمـوت [٦]

" قلت :

والشـر كالنـار يبـدو حـين يقدحـه * شـــرارة فـــإذا بادرتـــه خمـــدا

وإن توانيـت عـن إطفائـه كسـلا * لأوري قبائـل تشـوي القلـب والكبـدا

ولـو تجمـع أهـل الأرض كلهـم * لمـا أفـادوك فـي إطفائـه أبـداً[٧]

" قلت :

وتشـــتت الأعـــداء فـــي آرائهـــم * سـبب لجمـع خـواطر الأحبـاب[٨]

" قلت :

([١]) المصدر السابق ، ص ٦٢.

([٢]) المصدر السابق ، ص ٦٣.

([٣]) المصدر السابق ، ص

([٤]) المصدر السابق ، ص

([٥]) المصدر السابق ، ، ص ٩١.

([٦]) المصدر السابق ، ص ١٠٨.

([٧]) المصدر السابق ، ص ٩٦.

([٨]) الصمدر السابق ، ص ١٠١.

وما الدهر إلا ساعة وتنقضي * والمرء فيها حازم أو نادم[1]

" قلت :

فعش ما شئت في الدنيا وأدرك * بها ما رمت من صيت وصوت

فخيط العيش موصول بقطع * وحبل العمر معقود بموت [2]

" وقلت :

من يهمل الأعداء ويأمن كيدهم * مثل النئوم وراءه مستيقظ

وقلت :

واللص ليس له دليل سائر * نحو الذي يبقي كنوم الحارس[3]

" قلت :

ترقب جزا الحسني إذا كنت محسناً * ولاتخش من سوء إذا أنت لم تسيء[4]

– " قلت :

وإذا أراد الله نصر عبده * كانت له أعداؤه أنصارا

وإذا أراد له خلاصة من هلكة * أجري له نارها أنهارا

فتري العقول تقاصرت عن كنهه * وتري له في شوكه أنهارا" [5]

" وقلت :

وما الدهر إلا سلم فبقدر ما * يكون صعود المرء فيه هبوطه

وهيهات ما فيه نزول وإنّما * شروط الذي يرقي عليه سقوطه

فمن صار أعلى كان أوفي تهشما * وفاء بما قامت عليه شروطه" [6]

– "

إذا انعكس الزمان على لبيب * يحسن رأيه ما كان قبحا

([1]) المصدر السابق ، ص ١٢٠.

([2]) المصدر السابق ، ص ١٠٩.

([3]) المصدر السابق ، ص ١٢٥.

([4]) المصدر السابق ، ص ١٦٧١.

([5]) المصدر السابق ، ص ٢٢٧.

([6]) المصدر السابق ، ص ٢٤٢.

يعـــاني كـــل أمـــر لـــيس يغنـــي * ويفســـد مـــا رآه النـــاس صـــالحا[١]

" قلت :

سـاعد بجاهـك مـن يغشـاك مقتفـراً * فـالجود بالجـاه فـوق الجـود بالمـال[٢]

٨- الرثاء الحكمي :

في ذكر :

ذكر سبب انكسار ذلك الجبار ، وانتقاله إلى

دار البوار ن واستقراره في الدرك

الأسفل من النار

" **وجعل تيمور يواصل التسيار ، حتى وصل إلى كورة تدعي أترار ، ولما كان بظاهره من البرد آمنا ، أراد أن يصنع له ما يرد الأبردة عنه باطنا ، فأمر أن يستقطر له من عرق الخمر المعمول فيها الأدوية الحارة ، والأفاويه والبهارات النافعة غير الضارة ، وأبي الله أن تخرج تلك الروح النجسة ، إلا على صفات ما أخترعه من الظلم وأسسه ، فجعل يتناول من ذلك العرق ويتفوق افاويقه من غير فرق.**

لا يسأل أخبار عسكره وأنبائهم لا يعبأ بهم ولا يسمع دعاءهم ، حتى سقته يد المنية كأس (وَسُقُوا مَاء حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ) [٣]. فإنه لم يزل للقضاء معانداً ، وللزمان مجاهدا ، ولنعم الله تعالي جاحدا ، ولا شك أنه جاء ناقصاً ، وتحمل مظالم فراح زائداً ، فأثر ذلك العرق في أمعائه وكبده ، فتريخ بنيان جسمه ، ورتخ أركان جسده ، فطلب الأطباء ، وعرض عليهم هذا الداء فعالجوه في ذلك البرد ، بأن وضعوا على بطنه وجبينه الجمد ، فانقطع ثلاث ليال ، وعكم أحمال الانتقال ، إلى دار الخزي والنكال ، وتفتت كبده ، ولم ينفعه ماله وولده ، وصار يتقيأ دما، ويأكل يديه حسرة وندما.

وإذا المنيـــة أنشـــبت أظفارهـــا * ألفيـــت كـــل تميميـــة لا تنفـــع

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٣٥.

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٢٦.

(٣) سورة محمد ، الآية ١٥.

وجرعه ساقي المنية أمر كأس ، وآمن حينئذ بما كان جاحده ، فلم ينفعه غيمانه لما رأي البأس ، فاستغاث فلم يجد له مغيث ، نودي عليه أخرجي ايتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ، أخرجي ذميمة ، ظالمة أثيمة ، وأبشري بحميم وغساق ، ومجاورة الفساق ، فلو تراه وهو يغط غطيط البكر المخنوق ، يحمر لونه ويزيد شدقاه كالبعير المشنوق ، ولو تري ملائكة العذاب وقد أظهروا استبشارهم وأخنوا على الظالمين ليخربوا ديارهم ويطفئوا نارهم ، ويهدموا منارهم " ... وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ... "(١). ولو تري نساءه وحاشيته وهم حواليه يجأرون ، وأعوانه وجنده وقد ضل عنهم ما كانوا يفترون "... وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ" (٢).

ثم إنهم أحضروا من جهنم المسوح ، وسلوا سل السفود من الصوف المبلول تلك الروح ، فانتقل إلى لعنة الله وعقابه ، واستقر في أليم رجزه ، وعذابه ، زذلك في ليلة الأربعاء سابع عشر شعبان ذي الأنوار سنة سبع وثمانمائة بنواحي اترار ورفع الله تعالي برحمته عن العباد العذاب المهين " فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ "(٣).

قلت :

الدهر دولاب يدور ... فيه السرور من الشرور

بينا الفتي فوق السما ... وإذا به تحت الصخور

كم من شموس في سما ... فلك العلا لها يدور

لما استوت في عزها ... زالت وأكسفها الفتور

وملوك دنيا أضرمت ... من نار عدواها البحور

ملكوا البلاد وأهلها ... ماضي الأوامر والأمور

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ٥٠.

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٩٣.

(٣) سورة الأنعام ، الآية ٤٥.

أغـــراهم الـــدهر الخئـــون وغـــــرهم بـــــالله الغـــــرور
ضـــحك الزمـــان بثغـــره لهـــم وقـــد ملكـــوا الثغـــور
فغـــدوا ذئابـــا فـــي الأذي وغـــدوا أســـوداً فـــي الشـــرور
غنـــي لهـــم فتراقصـــوا مثـــل الشـــخوص بـــلا شـــعور
وحكـــوا علـــى بابـــاتهم طيـــف الخيـــال إذا يـــدور
وتوهمـــــوا إنّ الزمـــــان مطـــاوع غيـــر النفـــور
أو أن مـــا نـــالوه مـــن مـــن دنيـــا يفـــور ولا يغـــور
فتواثبـــوا وتضـــاربوا وتكـــالبوا شـــبه النمـــور
وتلاكـــزوا وتلاحـــزوا وتنـــاجزوا الضـــرب الهصـــور
وتنـــاحروا وتـــدابروا وتنـــاقروا نقـــر النســـور
هـــذا وإن يتصـــالحوا يتصـــافحوا مينـــاً وزور
فتهـــافتوا فـــي نارهـــا متصـــورين النـــار نـــور
بينـــا هـــم فـــي عـــزهم والـــدهر مكـــار غيـــور
إنقـــض فـــيهم صـــرفه كالصـــقر فـــي دقـــل الطيـــور
أمســـوا وكـــل مـــنهم كـــاللحم يلقـــي للصـــقور
لا ملـــك رد يـــد الـــردى عـــنهم ولا ملـــك ودور
كـــلا ولا جـــيش ولا ولـــد ولا مـــدد نصـــور
ثـــم انمحـــت آثـــارهم محـــو الحيـــا نقـــش الســـطور
لـــم يبـــق مـــنهم دهـــرهم شـــيئاً ســـوى ذكـــر يـــدور
ناهيـــك مـــنهم فتنـــة كـــالابخر الظلمـــا تمـــور
الأعـــرج الـــدجال مـــن قصـــم الجمـــاجم والظهـــور
داخ الـــبلاد ودارهـــا ونوائـــب الـــدنيا تـــدور
أملـــي لـــه الله الحلـــيم فـــزاد عـــدواً فـــي فجـــور
وأمـــده مســـتدرجاً إيـــاه فـــي شـــيء يبـــور

ليـــــراه فــــــي إمضــــــائه   حكمـــــــاً أيعـــــدل أم يجـــــور
فاجتـــاج كـــل الخلـــق مـــن   عـــرب ومـــــن عجـــم ولـــور
ومحـــا الهـــدي ، وغـــدا الـــردى   بجســـــامه البـــــاغي يمـــــور
أفنـــــي الملـــــوك وكـــــل ذي   شـــــرف وذي علـــــم وقـــــور
وســـعي علـــى إطفـــاء نـــور   الله والـــــــــدين الطهـــــــور
بفـــــروع جنكزخـــــان ذاك   الظـــــالم الـــــنحس الكفـــــور
فأبـــــاح إهـــــراق الـــــدما   مـــــن كـــــل صـــــبار شـــــكور
وأحـــــل ســـــبي المحصـــــنات   المؤمنـــــات مـــــن الخـــــدور
ورمـــــي علـــى النـــار الصـــغار   كـــــأنهم فيهـــــا بخـــــور
وأضـــــاف فـــــي هـــــذا إلـــــى   فعـــــل الزنـــــى شـــــرب الخمـــــور
طـــوراً يـــري نكـــث العهـــود   وتـــــارة نقـــــض النـــــذور
وعـــدا علـــى الســـادات مـــن   أهـــــل الصـــــيانة والوقـــــور
مـــن كـــل ذئـــب صـــائل   مـــــنهم ومـــــن كلـــــب عقـــــور
فتكـــوا وقـــد بتكـــوا القلـــوب   ويعـــــد مـــــا هتكـــــوا الســـــتور
وشـــــووا جباهـــــاً طالمـــــا   ســـــجدت لـــــدي الـــــرب الغفـــــور
وكـــــورا جنوبيـــــاً قـــــد جفـــــت   طيـــــب المضـــــاجع والظهـــــور
وأستخلصـــــوا الأمـــــوال مـــــن   ايـــــدي البرايـــــا بـــــالفجور
وســـــقوهم كـــــأس الســـــموم   وجرعـــــوا كـــــأس الحـــــرور
واستأســـــروا آل النبـــــي   المصـــــطفى الطهـــــر الطهـــــور
بـــــاعوهم مـــــن مشـــــركي   الأتـــــراك فـــــي أقصـــــي الكفـــــور
وكـــــذاك واحـــــد أمـــــه   مـــــن كـــــل مقـــــلات نـــــذور
وجـــروا علـــى هـــذي الجـــرائم   واســـــتمر لهـــــم مـــــرور
مـــا بـــين إيـــران وتـــوران   الـــــبلاد لهـــــم عبـــــور
وامتـــــد ذاك مـــــن الخطـــــا   أخـــــذاً إلـــــى أقصـــــي القطـــــور

لمـــــا انتهـــــي افســـــاده وتكاملـــــــت تلـــــك الشـــــرور
هجـــم القضـــاء لأخـــذه ولكـــــل تكميـــــل قصـــــور
حذفتـــه أيـــدي المـــوت مـــن تلـــك القصـــور إلـــى القبـــور
وتبـــدلت منـــه الكرامـــة بالمذلـــــــة والعثـــــــور
ومضـــي إلـــى دار النكـــال بمـــا تحمـــل مـــن وقـــور
وتفرقـــت تلـــك الجمـــوع وهـــد مـــا شـــاد الـــدثور
أبقـــت عليـــه فعالـــه لعنـــاً علـــى مـــر العصـــور
وتخلـــدت آثـــار مـــا آذي علـــى كـــر الـــدهور
فـــأنظر أخـــي ثـــم افتكـــر فـــي ذا المســـاء وذا البكـــور
لا فـــرق عنـــد المـــوت بـــين شـــكور فضـــل أو كفـــور
أن الـــذين وجـــوههم كانـــت تـــلألأ كـــالزبور
أهـــل الســـعادة والحجـــا وذوو الســـيادة والوقـــور
المطفئـــو بـــدر الســـما والمخجلـــو فـــيض البحـــور
كـــانوا عظامـــا فـــي الصـــدور وهـــم صـــدور فـــي البـــدور
طحـــن الـــردى تلـــك العظـــام وفـــت هاتيـــك الصـــدور
وســـفتهم ريـــح الفنـــا ســـفي الرمـــال يـــد الـــدبور
أيـــن البنـــون ومـــن غـــدا للقلـــب أفراحـــا ونـــور
كـــانوا إذا رفـــع الحجـــاب وزحزحـــت عـــنهم ســـتور
تلقـــي الـــدنا قـــد أشـــرقت كالشـــموس مـــن ســـجف الخـــدور
مـــن كـــل ظبـــي أحـــور أو ظبيـــة تـــزري بحـــور
نشـــر الجمـــال علـــيهم ثـــوب الـــدلال علـــى حبـــور
وفـــدتهم مهـــج الـــورى مـــن شـــر أحـــداث الـــدهور
كـــانوا إذا ســـكنوا مكانـــا حركـــوه مـــن الســـرور
كـــانوا علـــى وجـــه الـــدنا حـــدقاً وللأحـــداق نـــور

وحدائقا لرياضها   وعلى حدائقها زهور
بيناهم في سكرهم   قد مازج الدل الغرور
والعمر غض والزمان   مسلم لهم الأمور
وإذا بساقي الموت فاجأهم   بكاسات الثبور
فسقي رياض حياتهم   قدحاً أعاد الكل بور
تركوا فسيح قصورهم   رغماً إلى ضيق القبور
وسقوا كئوس فراقهم   صبرا لكل شج غيور
من شق حزنا جيبه   ولفقدهم دق الصدور
لو كان ينفعه الرشا   أو كان يجديه النذور
لفداهم ووقاهم   ورعاهم رعي الجذور
سكنوا الثري فتغيرت   تلك المحاسن والشعور
ورعاهم دود البلي   وفراهم فري الجذور
أمسوا رميماً في الثري   وثووا إلى يوم النشور
يسعي المحب مخاطبا   أجداثهم يوماً يزور
ينعي ويندب نائحاً   قبراً تناوشه الدثور
ويمرغ الخدين في   ترب يراها كالذرور
يدعو فليس يجيبه   إلا صدى صم الصخور
بينا تراه زائرا   وإذا به أمسي مزور
هذا بتقدير الإله   وحكم فعال صبور
دنياك جسر فاعتبر   واحرص على زاد العبور
واطمح إلى اللب الهني   فجميع ما فيها قشور
لو لم تك الدنيا وما   وفيها هباءً خيتعور
ما كان يزوي برها   عن كل صبارشكور
كلا ولا انقادت لمن   قد صار مختالا فخور

هـــذا وغالـــب مـــن عتـــا ... فـــي أرضـــها عـــرج وعـــور
خلقـــوا لحـــق فـــانثنوا ... عنـــه إلـــى مـــين وزور
يـــا رب ثبتنـــا علـــى ... مـــا ترتضـــيه مـــن الأمـــور
وأغفـــر لنـــا مـــا قـــد علمـــت ... مـــن الخطايـــا يـــا غفـــور
واخـــتم لنـــا بســـعادة ... نكفـــي بهـــا شـــر الغـــرور
وامـــنن لنـــا بتجـــارة ... مـــن بـــاب فضـــلك لـــن تبـــور
وأدم ســـحائب رحمـــة ... تهمـــي علـــى بـــدر البـــدور
خيـــر الأنـــام محمـــد ... الشـــافع الزاكـــي الطهـــور
والآل والصـــحب الكـــرام ... وتـــابعيهم يـــا شـــكور" [1]

([1]) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٢٥٢ – ٢٥٩.

المبحث الثاني

الصورة الفنية في (عرض عجائب المقدور في نوائب تيمور) من خلال خاتمته

القيمة الأسلوبية لعرض كتاب عجائب المقدور من خلال خاتمته:

بدأ ابن عربشاه بالحمد والتسليم لله ، وهدي النبي عليه الصلاة والسلام ، أي افتتاحية هذه الخاتمة بالحمد الله الذي أدب عبده أحمد فأحسن تأديبه ، تحمل دلالتان الأولي الكل المقصود بالتحميد (فعبده أحمد) دلالة على اسم الرسول صلي الله عليه وسلم ، والثانية الانتقال من الكل إلى الجزء ، معبراً بها أحمد ابن عربشاه، عن معالم روح نفسه التي تتمثل بمنهج التوحيد ، على معتقده السني ، ومذهبه الحنفي ، ذاك الهدي السني بشهادته من خلال قوله في مقدمة خاتمته ، الذي طابع خبرها واقع الاعتقاد ، فالإسلام بدنها ، والإيمان روحها ، والإحسان صدقها ، وحمدها وشكرها وصلة أمانتها ، بهدي الرسول صلي الله عليه وسلم ، في توحيد الواحد القهار ، الذي له الفضل في إبداع منهج كل فن وأسلوبه في كتابه عجائب المقدور.

فالأسلوب هنا يعني (هو الشخص نفسه – مادام– الأعمال المتقنة كتابياً هي وحدها التي تخلد ، وليس الخبرات والاكتشافات ، لأن الأخيرة لا تقع في دائرة سلطة الإنسان والأسلوب هو الإنسان نفسه[1] ؛ هذا ما يؤكده لبن عربشاه في خاتمة كتابه هذا حيث يقول "ولقد سلكت في هذا الكتاب مسلك أبناء العصر وطريقة أولاد الدهر فاني الناس بزمانهم اشبه منهم بآبائهم ، ولو أخذت فيه آخذ العرب العرباء وألبسته في ألفاظه ومعانيه ثوب الاستعصاء والإباء ، فأبرزت ما قصدته من المعاني الجزلة العجيبة ، في قوالب فحلة غريبة لما التفت أحد إليه ، ولا عول لقصور الهمم الأفهام عليه ، ولما كانت المجازات المشهورة خير من الحقائق المهجورة ، والغلط المستعمل أولي من الصواب المهمل ، وأبرزتها في إشارات رشيقة ، وعبارات رقيقة ، وعملت في بعض المواضع بقوله :

عمـــداً كســـوت مرهبـــاً مغثمـــرا   ولـــــو أشــــاء حكتــــه مجـــــدا

وقد قيل :

---

(1) نحو نظرية أسلوبية لسانية ، فيلي سانديريس ، ترجمة الدكتور خالد محمود جمعة ، ج١ ، ٢٠٠٣م ، ص ٢٩.

إذا أحسست في لفظي قصورا وخطي والبراعة والبيان
فلا ترتب لفهمي إن رقصي على مقدار إيقاع الزمان[١]

فالقيمة الأسلوبية لابن عربشاه في منهج كل فن وأسلوبه ، أنْ يخلد بهذا الكتاب وأنْ تبرز شخصيته علماً نافعاً ، بمقام الإفادة والاعتبار مادام إنّ " الأسلوبية تدرس الأفعال والممارسات التعبيرية في اللغة المنظمة إلى حد رؤية أثرها المضموني وذلك من حيث التعبير عن الأعمال الوجدانية باللغة ، ورؤية أثر الأفعال اللغوية في الوجدان الحسي" [٢] حيث يقول ابن عربشاه: " قواني صدق النية، فيما هممت ، وخلوص الطوية على ما عزمت ، وجمعت من بال متفرق، وألفت من فكر متمزق ، من قضايا تيمور الطويلة العريضة نبذه ، وجبذت بكف الأفكار من قوس حكايته جبذة، تمثلت في بيانها بديع المعاني الجعبة ، وسللت وقد صرفت نحو مشرق النطق سنان الكلام عضبه ، وشحذت غربه ، فجاءت بحمد لله تعالي طريفة المعاني كاملَتَها ، لطيفة المباني فاضلتُها....

قلت في مرآة الآداب :

بألفاظ ألحاظ تشير إلى النهي تعلم فن السحر كيف يكون ؟

حوت رقة الجزل ودقته ، ورياقة الغزل ورقته ، ولطافة الأدباء ، وظرافة الشعراء ، فصاحة البلغاء ، وبلاغة الفصحاء ، وحقائق الحكماء ، ودقائق العلماء، مع الأمثال الفائقة ، والاستشهادات اللائقة ن والاستطرادات الرائقة ، والتشبيهات الغريبة والاستعارات العجيبة ن ونوافث السحرة من علماء البيان ونوادر المهرة من أرباب الديوان. ومزجت جليل التحمس فيها برقيق التغزل ونسجت جديد الجد بممعتق التهزل ، وطرزت خلع ذلك بأعلام الأيات الشريفة ونقوش الأحاديث الكريمة المنيفة أحبت بكل ذلك مجز التعبد ، وطبقت بحسامه مفصل الضرب.

قلت في مرآة الأدب :

كأنَّ النهي قد كان عني ناعسا فمر على أذنيه ما أتلفظ

---

(١) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، مصدر سابق ، ص ٣٦٤ – ٣٦٥.

(٢) نظرية لسانية أسلوبية ، فيلي ، ص ٣٣.

فذاق لهذا الشهد صدق حلاوة ففتح عينيه وجاء يتلمظ[1]

أي جاء يتلمظ بهذه الألفاظ وما حوته من دلالة معاني بلاغية حققت مراده في دواعي تأليفه كتابه بهذه القيمة الأسلوبية التعبيرية والتي عبر بها عن جانبه الفكري في تجربته الفكرية في منهج كل فن وأسلوبه بحيث كل أسلوب له "بنموذج خاص من الانتقاءا المتواترة تحت الأجزاء[2]" وقبل عرض هذه الأجزاء لابد من شكل موجز عن المفهوم النظري عن الصورة الفنية من غبداع فنون سحر ابن عربشاه الذي يردي لها أن تكون.

للصورة الفنية مفهومان: قديم يقف في حدود الصورة البلاغية في التشبيه والمجاز وهو الذي نفرض بها هنا دلالة المعاني البلاغية لما حوته تلك الألفظ وحيث يضم الصرة الذهنية والصورة باعتبارها رمزاً"[3] ، والتي يأتي عرضه بأذن الله في القيمة الأسلوبية التعبيرية والأدبية في العرض الفني لكتابه " فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء " ، فدلالة المعاني البلاغية التي حوت **ألفاظ** هذه الالحاظ من:

١- "رقة الجزل و دقته":

حينما يصف شاه شجاع لبعض أفعال تيمور ، في خطابه للسلطان العثماني والملك الظاهر مصور لهم إنَّ تيمور وجيشه ، هو الوحش الكاسر ، والخراب المدمر فكم (خطب أحل ، وعقل أزل ، وفهم أضل ، وخيل هزم ، وأس هدم ، وسؤل قطع ، وقصد منع ، وطود قلع ، وطفل فجع ، ورأس شدخ ، وظهر فضخ، وعقد فسخ ، ونار أشب ، وريح أهب ، وماء أغار ، ورهج أثار ، وقلب شوي ، وكبد كوي ، وجيد قصم ، وطرف أعمي وسمع أصم . فإني لي ملاطمة سيل العرم ، ومصادمة الفيل المغتلم ، فان نجدتماني وجدتماني ، وإنّ خذلتماني بذلتماني ، ويكفيكما هيبة وشهرة ، وناهيكما أبهة ونصرة ، إنّ من خدمكما قدّامكما ، من كفاكما ما دهاكما. وإنّ أصابني والعياذ بالله من ضرر أو تطاير إلى مملكتي من جمرات شره شرر ،

([1]) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٣٦١ - ٣٦٢ .

([2]) نظرية لسانية أسلوبية فيلي ، ص ١٣٥.

([3]) د. علي البطل ، الصورة في الشعر العربي ، دار الأندلس للطباعة والشر والتوزيع ، ط ٢ ، ١٩٨٢م ، ص ١٥.

ربما تعدي ذلك الفعل بواسطة الحوادث ، إلى مفعول به ثان وثالث. فشعر ابن عربشاه معبراً عن هذا الموقف بهذه الحكمة الروحية حين يقول:

والشّر كالنار يبدو حين تقدحه   شرارة فإذا بادرته خمدا
وإنّ توانيت عن إطفائه كسلاً   أوري قبائل تشوي القلب والكبدا
فلو تجمع أهل الأرض كلهم   لما أفادوك في إطفائه أبدا[١]

٢- "رياقة الغزل ورقته" :

إن الغزل دعائم عاطفة الشعر وقلب القصيدة العربية القديمة الذي هو (عملية خلق لا عملية صنعه والخيال هو القوة الفاعلة القادرة تحويل مواد كثيرة في قلب الشاعر). والشعر بذلك قدرة فائقة يتحول بها عالم- ابن عربشاه الخارجي منعكسا في ذاته – إلى فن يصير تعبيراً عميقاً عما تعج به خوالج نفسه من مخزون الشوق والحنين ومن أحاسيس ومشاعر منظمة تنظيماً فنياً [٢] ؛ بلغ بها ابن عربشاه الصورة الجمالية للإيقاع البلاغي ودلالة المعاني في (منهج كل فن وأسلوبه).

فقد أخذت دراسة الإيقاع اتجاهات مختلفة[٣] ؛ وكلمة Rhythm تعني الإيقاع ، وهي مصطلح إنجليزي أشتق أصلاً من اليونانية ، بمعني الجريان والتدفق[٤] الذي يحقق الانسجام في النظم ، والذي يعرفه عبد الله الطيب بأنه (العنصر الذي يجمع بين الوحدة والتباين حتى يصيرا الشكل واحداً [٥] ، ثم لا تغفل حاسة بعد عن التنبه في نفس الوقت إلى أجزائه المتباينة ، ومهما توافرت في أمر من الأمور وحدة الشكل، وتباين التفاصيل واتحاد هذه التفاصيل المتباينة مع الشكل ، كان الجمال الذي حقيقته سواء كان مسموعاً او مرئياً تدور كلها على أمرين الكل والتفصيل ،

---

(١) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ١٥٤.

(٢) الأصول التراثية في نقد الشعر العربي المعاصر ، دراسة نقدية في أصالة الشعر ، الدكتور عدنان قاسم ، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان ،ص ٤٠.

(٣) الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي ، الدكتور ابتسام احمد حمدان ، دار القلم الغربي بحلب ، الطبعة الأولي ، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م ، سوريا ، ص ٢١.

(٤) معجم مصطلحات الأدب ، مكتبة لبنان بيروت ، ١٩٧٤م ، مادة Rhythm .

(٥) المرشد إلي فهم أشعار العرب وصناعته ، الجزء الثاني ، الجرس اللفظي ، عبد الله الطيب ، الدار السودانية ، ط١ ، ١٩٥٥م ، ط ٢، ١٩٧٠م ، ص ٤٨٩.

فالكل في المرئي يتجلى في الشكل والهيئة العامة، والتفصيل يتجلى في الألوان ومظاهر الضوء والظلام ، التي بها تبرز حقيقة المرئي بروزاً كاملاً ، والكل في المسموع هو عبارة عن نوع رنته وطبيعة جرسها.

والتفصيل عبارة عن تموجاتها ودخائلها ، فكل الصوت هو الذي يميز صوت البلبل من صوت الحمار وتفصيل الصوت هو الذي يميز بين صوت بلبل وآخر ، وهذا تمثيل كما يقول سيبويه ، والحقيقة الصبغة إنّ التمييز الحق بين صوت وآخر يحصل بالكل والتفصيل معاً)[1].

لذا كان (الكل) عند ابن عربشاه قوله قيمة أسلوبيه تعبيرية (ظريفة المعاني كامُلتها ، وكان التفضيل عنده براعة أسلوب أدبي قوي الفكرة ، قوي العاطفة ، مسبوك التعبير ، في قوله (لطيفة المباني فاضُلتها).

وإنّ التمييز يكون متناسقاً ؛ بحسه الفني على ضوء قوله (إنّ الكلام له مقامات ، ولكلٍّ من البلاغةِ والفصاحةِ درجات)[2] .

لذا جاءت به رياقة الغزل ورقته الذي مزج فيه بين فكرته التي كان يعبر عنها في صورة الحرب و المنازلة ، و عبر بها أيضا بحرب الجفون والمغازلة، في تصوير مشهد من مشاهد الجمعية لذاك الزواج لحفيد تيمور مصوراً بقلمه (**لما استتبت** الأمور على مراد تسويل قرينته وأخذت الأرض زخرفها ، وزينت من جنده وأهل مدينته ، توجه إلى ذلك المرج الأحوي ، وسلبها لكل ناظر وعام ، فسبح في تيارها كل خاص وعام ، فدارت في سماء تلك الأرض للسرور أفلاك ، وهبطت في أفقها بوحي الذات من أفلاك الملاحة أملاك ، فأصبحت تلك الأسود **الخوادر وهي ظباء جوادر** وتنزلوا من جحيم المنازلة إلى **نعيم المغازلة** ، وتبدلت تلك الغلاظة والكثافة باللطافة والظرافة ، وأضحوا بعد جورهم يتجاورون وبمعني ما قلته يتحاورون :

محا الظلم ما بين الورى سيف عدلنا

فلم يتشبث مستغيث بمعتد

([1]) المرجع السابق ، ص ٤٨٨.

([2]) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٤٩٢.

سوي قلب صده طرف أحور

وخصر نحيل آده ردف أغيد

فما صار يصول إلا صارم لحظٌ وهو مع ذلك **مكسور**

ولا ذابل إلاّ أنْ كان رمح قد وهو مع ذلك بالعناق مهصور

وصرت تري إلا عود يحْرك **أو** يحرّق **أو** قدحا يرّوب **أو** يرّوق **أو** شادياً يغّرد أو شاربا يعربد **أو** جاريةً تسقي **أو** ساقيةً تجري **أو** خد **ورد** ينشق **أو ورد** خد يعشق **أو** كاس ثغر يرشف **أو** غصن خصر للعناق يقصف **أو** فرص عيش تغتنم **أو** لسان حال ينشد **ويترنم** :

فـــي ربيـــع الوصـــل لمـــا * **أنْ وفـــي الظبـــي الشـــرود**

وســــرت بشـــري الصــــبا * للـــــروض تبنـــــي بـــــالورود

خَــــرت **الأنـهـــــار** والأغصـــان * مالــــــــــــت للســــــــــجود

واجتمعنـــــا فــــي ريــــاض * حســـــنها يســــبي الوجــــود

فالســـحاب الصـــب فيهـــا * **بالحشـــا أمســـي يجـــود**

نثـــــر الــــدُّر علينـــــا * منـــــه بلّـــــور الغمـــــام

وثغـــــور مــــن عقيـــــق * زانهـــــا حســــن ابتســـــام

وعيــــون مـــــن لجــــين * نــــــاظرات لا تنــــــام

وغصـــــون الـــــدوح * **حفتنـــا بـــأنواع النقـــود**

طيرهــــا فيـــــه غنـــــي إذ * قـــد عــــلا عـــوداً وطــــار

وشــــــذاها ضـــــاع فيـــــه * المســـك لمــــا منــــه غـــار

والصـــــبا أمســــي علـــــيلا * فــــي ربــــاه حــــين ســـار

جنــــة الفـــردوس فيهـــا * **وجـــه بـــدري حــين نـــار**

أصـــبحت جنـــات عـــدن * **تشـــتهي فيهـــا الخلـــود**

لـــــيس فيهـــا غيـــر لثــــيم * وارتشـــــــاف وأعتنــــــــــي

وكئـــــــوس دائــــــــرات * وغنــــــــاء وغنــــــــي
لــــــو رآهــــــا زاهــــــد * مــــن ريحهــــا كــــان اثنــــي
لــــم يســــعه عنــــدها مــــن * زهـــــــده إلا الجُحـــــــود
قـــم نـــديمي عـــاطني فالـــدهر * لا يســــــوي الحــــــزن
كــــأس عــــيش ينمحـــــي * فــــي مزجهــــا صــــرف الـــزمن
الطـــــــلا والمـــــــاء * والخضــــرة والوجــــه الحســــن
لا تطـــــــع ذا غـــــدولا * أنُـــــه حـــــب كمـــــن
فـــــي جنتــــاه غليـــــان * لا تقـــــل خـــــل ودود[1]

القيمة الأسلوبية لرياقة الغزل ورقته، بثها لنا ابن عربشاه ملء إحساسنا، صورة ليست كل الصور، إنّما صورة جمالي (وتغذى الذوق الإنساني، وتستشير في نفسه الإحساس بقيم الحياة) [2] بكل ما فيها من صدق فني يصور جمال المثال الذي الذي يسمع ويري كما يريد ابن عربشاه لنفسه وللسامعين.

٣- "لطافة الأدباء" :

أول ما يحتاج إليه ابن عربشاه الأديب اللطيف لينقل لنا لطافة أدبه هو المقدمة المنطقية في قول أبي الطيب المتنبي حين يقول :

وضع الندي في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع الندي[3]

ومثل هذه الفكرة للمقدمة المنطقية لبيت المتنبي السابق كأنُه كان باعثاً لابن عربشاه –الأديب– فيما صوُّره لنا عن نكتة في تيمور ، في كتابه عجائب المقدور، كما بث فيها الحكاية ، فيما ذكره ذكر بعض حوادث متقدمة لمتعلقات ذاك العابث.

وكان تيمور قد رأي في الهند جامعاً ، للبصير مرتعاً وللبصر رائعاً ، عرشه في حسن بنائه ونقشه ، من الرخام الأبيض كبساط فرشه ، فاعجب شكله ، وأراد أنْ يبني في سمرقند مثله ، ففرز لذلك مكاناً في فرز ، ورسم أنْ يبني له جامع على

---

(1) عجائب المقدور في نوائب تيمور، ص ٣٧٧-٣٧٩.

(2) الكتابة والإبداع ، الدكتور عبد الفتاح احمد أبو زايدة ، شركة اليجا فاليتا ، مالطا ٢٠٠٠م ، ص

(3) شرح ديوان المتنبي ، شرح الواحدي ، ص

الطرز ، وأن يقطع له أحجار من المرمر الصلد ، وفوض أمره إلى رجل يقال محمد جلد ، أحد أعوانه ومباشري ديوانه ، فأجتهد في بنيانه ، وتشييد أركانه ، واستقصي جهده في تحسينه ، من تأسيسه وتركيبه وترتيبه وتزيينه ، وأعلي له أربع مآذن ، وباهي فيه أئمة البناءين والأستاذين ، وظنّ لو كان في ذلك أحد غيره ، لما قدر أنْ يصنع صنعه ، ويسير سيره ، وأن تيمور سيشكر له صنيعه ، وينزله عنده بذلك منزلة رفيعة ، فلما آب من سفرته ، وتفقد ما حدث في غيبته ، توجه إلى الجامع لينظر إليه فبمجرد ما وقع نظره عليه ، أمر بمحمد جلد فألقوه علي وجهه ، وربطوا رجليه ، ولا زالوا يجرونه ، وعلى وجهه يسحبونه حتى يضعوه على تلك الحال ، وأستولي على ماله من أهل وولد ومال . وأسباب ذلك متعددة ، ومعظمها إنّ الملكة الكبرى ، امرأة تيمور العظمي ، أمرت ببناء مدرسة ، وأتفق المعمارية ، وأهل الهندسة أن تكون في مواضع ، مقابلة لبناء هذا الجامع ، فشيدوا أركانها وسددوا بنيانها ، وعلوا علي الجامع طباقها وحيطانها ، فكانت أرسخ منه تمكيناً ، وأشمخ منه عرنيناً. وتيمور كان نمري الطبع ، أسدي الوضع ، ما تكبر عليه رأس إلا شدخه ، ولا تجبر عليه ظهر إلا فضحه ، وكذلك كل ما أضيف إليه ، أو عول في النسبة عليه.

فلما رأي قامة تلك المدرسة طالت وعلى قد جامعة الجتر ترفعت واستطالت، نغل صدره غيظاً واشتعل ، وفعل مع مباشر ذلك ما فعل فلم يصادفه فيما أمله سعد ، وهذه الحكاية مقدمة لما اذكره بعد .

نكتة : كان هذا الجامع كصاحبه ، أحاطت أوزار الأحجار بجوانبه ، وتثاقلت على غواربه ومناكبه ، ودقت عنق طاقته ورقت ، وتلا لسان سقفه (إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ) [1] وما أمكن تيمور الاشتغال بهدمه ثم إحكامه ، ونقض بنائه وأستتب إبرامه، فطوي ثوب عمارته على غرة ، واستبقي خشب اخشبه على وهنه وكسره ، لكنه أمر خاصته وذويه أن يجتمعوا ويجمعوا فيه ، واستمر ذلك في حياته وبعد وفاته ، فكان إذا أجتمع الناس للصلاة فيه يرتقبون من تلك الحجارة ما يهبط من خشية الله ، وصار ملك الجبال في تلك المحلة ، يتلو (وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ

---

(1) سورة الانشقاق ، الآية : ١.

ظُلَّةٌ) [1] ، ففي بعض الأحيان ، وقد غص بالناس ذلك المكان ، وأخذ كل منهم حذره ، سقط من حجارته من أعلاه شذرة ، ففر كل من كان جاثماً ، انفضوا إلى الأبواب وتركوا الإمام قائماً ، وكان من جملتهم الله دادا أحد الأكفاء والأنداد ، فلما أطلعوا على حقيقة الخبر ، تراجعوا وزال عنهم الخور.

فلما قضوا الفرض ، وانتشروا في الأرض ، قال لي الله داد : وكان من الدهاة ذوي الكياد ، والأذكياء النقاد ، له حوالي كعبة المخازي ، مائة شوط وألف طوف – ينبغي أن يلقّب هذا الجامع بمسجد الحرام ، والصلاة فيه صلاة الخوف ، وقال لي أيضا : الله داد ، وقد فهم معني هذا الإنشاد ، وينبغي أن ينشد ، في شأن هذا المعبد ، ويكون رقم طرازه ، ونقش صدره ومجازه ، قول الشاعر :

سمعتكَ تبني مسجداً من جناية * وأنت بحمد الله غير موفق

كمطعمةِ الأيتام من كدِّ فرجها * لك الويل لا تزني ولا تتصدقي[2]

بهذه الصورة الذهنية التي هي ملء إحساسنا بقيمتها الأسلوبية والتعبيرية والأدبية بانت لنا لطافة ابن عربشاه الأديب اللطيف .

٤- "دقائق العلماء" :

أبرز ابن عربشاه أنه ملء إحساسنا عالماً ، دقيق الحكمة في نقد الغلو، لاسيما في أبيات شعر ابن الرومي التي صارت حجة الاتحاد الحلولي للحلاج عند أخوان الصفا حين يقول: كلما قبلت فاها لأروي عطشي منها ، ازدادت رغبتي فيها ، وتعلقي بها ، بحيث أنْ تقبيل شفتاها ، لا يروي عطشه ، فلا يشفيه إلاّ الوصال الكامل ، واتحاد الروحين . والتي صارت قاعدة الاتحاد الحلولي.

أعانقها والنفس بعد مشوقة * إليها بعد العناق تداني
فألثم فاهاً كي تموت حراراتي * واشتد ما ألقي من الهيمان
وما كان مقدار الذي من الحوي * يشفيه ما ترشف الشفتان
كأن فؤادي ليس يشفي غليله سوي * أن يري الروحين يمتزجان[1]

([1]) سورة الأعراف ، الآية : ١٧١.

([2]) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٣٨٢- ٣٨٣.

هذه الأبيات تماثل فكرة الاتحاد الحلولي في بيت الحلاج ، حين يقول :

أنـا مـن أهـوى ومـن أهـوى أنـا　　　نحـن روحـان حللنـا بـدنا

براعة ابن عربشاه الحكيم وقوة دقته ، أنّ يستخدم الدلالة البلاغية للالتفات لنقد الشاعرين ، فيما جاز تعبيرهم حدود المعقول ، المسموع المقبول.

والالتفات : فسره قدامه بأنْ قال: " أنْ يكون المتكلم آخذ في معنى فيعترضه إما شك فيه أو ظن أنّ راداً يرده عليه ، أو سائلاً يسأله عن سببه فيلتفت إليه بعد فراغه منه فإما أنْ يجلي الشك فيه أو يؤكده أو يذكر سببه" [٢] وهذا استخدمه ابن عربشاه الحكيم حيث أبرز دقته في معالجة الغلو والإغراق لدي ابن الرومي غير المباشر والمباشر ، وعند الحلاج عن طريق سرده لحكاية لحفيد تيمور وما فعلته فيه زوجته بشاد ، والذي ظن وصلا معا ، من العشق والحب ، والزواج الاتحاد، وامتزاج الروحين ، بالصفا والوداد بحيث ، صار أمر خليل سلطان مع بشاد زوجه كإغراق ابن الرومي وغلو الحلاج. يقول ابن أبي الإصبع المصري (وقد رأيت من لا يعرف بين الغلو والإغراق ، ويجعل التسميتين لباب واحد وعنده إنّ معنى البابين مختلفين كاختلاف أسميهما ، إلا أنّ الإغراق أصله في النزع ، وأصل الغلو بعد الرمية ، وذلك إنّ الرامي ينصب غرضاً ، بقصد إصابته ، فيجعل بينه وبين مدي يمكن معه تحقيق ذلك الغرض ، فإذا لم يقصد غرضاً معيناً، ورمي السهم إلي غاية ما ينتهي إليه ، بحيث لا يجد مانعاً يمنعه ، من استيفاء السهم قوته ، في البعد سميت هذه الرمية غلوة ، فالغلو مشتق منها ، ولما كان الخروج عن الحق إلي الباطل يشبه خروج هذه الرمية عن حد الغرض المعتاد إلى غير حد سمي غلواً[٣] وهذا المعنى للفرق بين الإغراق والغلو استخدمه ابن عربشاه الحكيم في دقته في حكاية خليل سلطان وزوجه بشاد لنقد بيت ابن الرومي والحلاج حين يقول : وكان خليل سلطان

---

(١) ديوان ابن الرومي : علي بن العباس بن جريج ، شاعر الطبيعة ، تعليق وضبط الدكتور عمر فاروق الصباغ ، المجلد الثالث ، دار الأرقم أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ، ط١ ، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م ، ٥٢٩.

(٢) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الإصبع المصري ، ٥٨٥-٦٥٤هـ ، تقييم وتحقيق الدكتور حنفي محمد شرف ، ص ١٢٣.

(٣) تحرير التحبير ، ابن أبي الإصبع المصري ، ص ٣٢٣.

، تزوج بشاد ، ملك زوج سيف الدين الأمير ، وملكه سلطان هواها فكان فيه كالأسير ، فمال بكل جوانحه إليها بحيث انه قصر نظره عليها وصارت محبته كل يوم تزداد وانست قصته قضية قيس وليلي وشيرين وفرهاد مكان كما قيل [1]:

أعانقها والنفس بعد مشوقة   إليها وهل بعد العناق تدان
وألثم فاهاً كي تزول صبابتي   فيشتد ما ألقي من الهيمان
كأن فؤادي ليس بهذا الذي به   إلي يري الروحين يمتزجان

وأستمد ذلك إلى أنْ ران هواها علي قلبه ، وأخذ بمجامع لبه ، وربط جوارحه وحل جوانحه ، وفصل قميصاً واسعاً ، فكانا يلبسانه واتحدا فصار ينطق بلسانها وتنطق بلسانه وصارا ينشدان وإلى حالهما يرشدان :

أنا من أهوي ومن أهوي أنا   نحن روحان حللنا بدنا

قلت : بل كانت القضية بالعكس

إنما كانت بروح واحدة

نفحت مذ براها ربها في بدنين

فكان لا يصدر أمرا إلا عن رأيها ولا يستضئ في سياسة الملك إلا بآرائها مسلما قياده ، واتبع مرادها مراده وهذا من غاية البله والعته ، وكيف يفلح من ملك قيادته امرأته[2].

وقول ابن عربشاه الحليم بدقته هو ما يسميه ابن أبي الإصبع **المراجعة** (هو أن يحكي المتكلم مراجعة القول ومجاورة الحديث حدث بينه وبين غيره أو بين الاثنين باوجز عبارة وارشف سبك واسهل ألفاظ أما في بيت واحد - **كما فعل ابن عربشاه حين قال :**

قلت : إنّما كانت روح واحدة

نفخت مذ براها ربها في بدنين -)

---

(1) ديوان ابن الرومي ، علي بن العباس بن جريج ، ضبط د. عمر فاروق ، م٣ ، دار الأرقم بن الأرقم ، ٢٠٠٠م ، ص ٥٢٩.

(2) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص٤٤١.

أو أبيات أو جملة واحدة [1] كقول عمر بن أبي ربيعة :

بينما ينعتنني أبصرنني

مثل قيد الرمح يعدو في الأغر

قالت الكبرى : تري من ذا الفتي

قالت الوسطي لها : هذا عمر

قالت الصغرى : وقد تيمتها

قد عرفناه وهل يخفي القمر ؟

وفي الأبيات خبئان، يدلان على قوة عارضه الشاعر، وحذقه بمعرفة وضع الكلام مواضعه، أحدهما وهو الذي يدل على قوة العارضة، إنّ قوافي الأبيات لو أطلقت فكانت كلها مرفوعة[2] كما قيل في أرجوزة رؤية التي أولها رجز :

قد جبر الدين الإله فجبر[3]

فإنهم قالوا إّنها تريد على التسعين شطراً ، ولو أطلقت قوافيها لكانت كلها مفتوحة.

والخبأ الآخر كونه جعل التي عرفته وعرفت به ، وشبهته تشبيها يدل على شغفها به هي الصغرى ، ليدل بدليل الالتزام علي أنه فتي السن ، إذ الفتية من النساء لا تميل إلا للفتي من الرجال غالبا ، وختم قوله بما أخرجه من مخرج المثل السائد موزوناً ولا يقال إنما قالت الصغرى له دون أختها لضعف عقلها وعدم تجربتها ، فإني أقول : قد تخلص من هذا الدخل بكونه أخبر إنّ الكبرى التي أعقلهن ما كانت رأته من قبل ، وإنّما كانت تهواه ، على السماع به ، فلما رأته وعلمت إنُه ذلك الموصوف لها ، أظهرت من وجدها به علي مقدار عقلها ، ما أظهرت من سؤالها عنه فحسب ، ولم تتجاوز ذلك ، أو سألت عنه ، وقد علمته لتلتد بسماع اسمه من تجاهل العارف ، الذي توجبه شدة الوله والعقل يمنعها من التصريح ، والوسطي

(1) شرح ديوان عمر ابن ربيعة ، لد د. يوسف فرحات ، دار الجيل ، بيروت ... جاءت الأبيات برواية أخرى في الديوان.

(2) تحرير التحبير ابن أبي الإصبع المصري ، ص ٥٩٠.

(3) لم نجدها في ديوان روبة : إنما أشار د. حنفي المحقق إن البيت لابنه عبد الله بن روبة وليس لروبة ، ينظر ديوانه المخطوط، دار الكتب العلمية ، رقم ٣٥ أدب ش.

سارعت إلي التعريف باسمه للعلم ، فكانت دون الكبرى في الثبات الذي توجيه سنها وتوسطها ، والصغرى لكون منزلتها في الثبات دون الأختين أظهرت من معرفته وصفته **ما دلت به علي شدة شغفها به** ، وكل ذلك وأنْ لم يكن كذلك فألفاظ الشعر تدل عليه(١).

– وكذلك معاني وألفاظ بيت ابن عربشاه دلالته لموضع قول الحلاج هي– إثبات الشيء للشيء بنفيه من غير ذلك شئ أي تقويمه ورده إلى الصواب .

٥– "ظرافة الشعراء" :

على الرغم أنْ قوة الأديب وقوته تمكنه أن يحسن حسن التخلص وبراعة التصرف لا سيما في الشعر (وهو أن يأتي الشاعر إلى معني فيبرزه في عدة صور تارة بلفظ الاستعارة وطورا بلفظ الايجاز وأوانه بلفظ الأرداف ، وحينا بلفظ الحقيقة ، كقول امرئ القيس يصف الليل (طويل) :

وليل كموج البحر أرخى سدوله   علـــى بـــأنواع الهمـــوم ليبتلـــي

فقلـت لـه لمـا تمطـي بصـلبه   وأردف إعجـــازا ونـــاء بكلكـــل(٢)

فأنه ابرز هذا المعني في لفظ الاستعارة ، ثم تصرف فيه فأتي به بلفظ الايجاز فقال (طويل) :

فيالــك مــن ليــل كــأن نجومــه   بكــل فعــار القتــل شــده بيــذبل(٣)

فإن التقدير : فيالك من ليل طويل ، فحذف الصفة لدلالة التشبيه عليها ثم تصرف فيه فأخرجه بلفظ الأرداف فقال (طويل) .

كـــأن الثريـــا علقـــت فـــي مضـــامها   بـامراس كتـاف إلـى ضـم جنـدل(٤)

ثم تصرف فيه فعبر عنه بلفظ الحقيقة فقال (طويل) .

ألا أيهـا الليـل الطويـل ألا انجلـى   بصـبح ومـا الإصـباح منـك بأمثـل(٥)

---

(١) تحرير التحبير ، ابن أبي الإصبع ، ص ٥٩١ .

(٢) شرح القصائد الطوال الجاهليات ، لابن الأنباري تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف ، ص ٧٤ – ٧٥.

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٦.

(٤) المصدر السابق ، نفس الصفحة.

(٥) المصدر السابق نفسه ، ص ٧٧.

ولا شبهه في إن هذا إنما يأتي من قوة الشاعر وقدرته وبيان ظرافته ، كما ظرافة الشاعر ابن عربشاه قوة أسلوبه وقدرته الشاعرية أن يحسن التصرف في التعبير شعراً عن فكرة السيل والصخر التي سبقه قبله امرئ القيس والمتنبي .

فظرافة امرئ القيس إن برزت دلالة وصفه فرسه في الكر والفر واندفاعه صور باعتبارها رمزاً لادبار بنت عمه وإقبالها في غدير دار جلجل حين يقول:

مكـــر مفـــر مقبـــل مـــدبر معـــا كجلمود صخر حطه السيل من عل[1]

ثم جاء بالمعني الصخرة فيه المتنبي بعد أن كانت مشبه به في قول امرئ القيس بحيث جاءت ظرافة المتنبي حين جعل بيت الشعر الذي عبر فيه عن الصخر والسيل من غزله في قصيدته إلى أن تعمق فيها إلي حد الإغراق والتي يمدح فيها أبا على هرون بن عبد العزيز الاواجي الكاتب وكان يذهب إلى التصوف حين يقول[2] :

يقول[2] :

أمن ازديارك في الدجي الرقباء	إذ حيث كنت من الظلام ضياء
قلق المليحة وهي مسك هتكها	ومسيرها في الليل وهي ذكاء
أسفي على أسفي الذي دلهتني	عن علمه فيه على خفاء
وشكيتني فقد السقام لأنه	قد كان لما كان لي أعضاء
مثلت عينك في حشاي جراحه	فتشابها كلتاهما نجلاء
نفذت على السابري وربما	تندق فيه الصعدة السمراء
أنا صخرة الوادي إذا ما زوحمت	وإذا نطقت فإني الجوزاء

حين بلغت ظرافة الشاعر ابن عربشاه في تصوير للسيل في التعبير عن فكرة الصخرة والسيل من خلال وصفه حال سلطان العراق وأهوال تيمور حين يقول :

(لما بلغ السلطان احمد اويس ما فعله بضم رعايا جيرانه اللور وهمذان ذلك الاويس وعلم انه لا بد له من قصد مملكته ودياره ، لأنه هو باداه بالشر ، وطرح عليه شراره طائر شراره ، وان عسكره . وان كان **كالسيل الهامر – كجلمود**

---

(1) المصدر السابق ، ص ٨٣.

(2) ديوان المتنبي ، شرح الواحدي ، ص ١٩١ – ١٩٣.

صخر حطه السيل من عل – فأنه لا مقاومة له ببحر وتياره (وانه إذا جاء نهر الله بطل نهر عيسي ولا مقابلة لسحرة فرعون مع عصا موسى) **قلت :**

وجاءت ظرافة ابن عربشاه الشاعر الأديب عندما وظف بأسلوبية تعبيرية بديعة فكرة الصخرة والسيل التي كانت عند من سبقه بالمعني معبراً عنها ولكنه احسن التعبير أبدع ، عندما جاء به فائدة للخبر ودلالة لما يهدف بمعناه من تلك الصورة التي صور بها حال سلطان العراق من هول جيش تيمور ، حين يقول :

السيل يقلع ما يلقاه من شجر بين الجبال ومنه الصخر ينفطر

حتى يوافي عباب البحر تنظره قد اضمحل فلا يبقي له اثر[1]

٦- "بلاغة الفصحاء" :

إن الكلام الحسن هو الذي من لفظه وجوهر فكرته وكفاءة اتصاله من المتكلم موضع مقام مقال للسامع المتلقي لمقال يوافق مقامه أي يطابق مقتضى حاله مادام كقول ابن عربشاه .

(إن الكلام كالدر المنتظم ، والدر المنسجم لابد أن يتعانق لفظه ومعناه أولا وأخرا وتتطابق عبارته وفحواه باطنا وظاهرا وألا اختل نظمه ، واعتل فهمه ، وانحطت منزلته ، وسقطت من سلم الفصاحة درجته ؛ وهذا يحتاج إلى بحر ذهن صاف ، ومعدن علم بكفالة ما يتم من عقود جواهره واف ، وذوق احلي من العسل، وفكر امضي من الاسل ، ويحتاج كما قيل إلي حاضر من التوفيق ومعاون صالح النية فان غروب الألسنة ، جاوزت على ما يثبت على القائلين الحجة[2] لان بلاغة الفصيح تحقيق القول الحق وزهق الباطل لان **المكابرة عن الحق خروج من المنهج والبلاغة في غير مقامها عين لجلج** [3] .

فإن ألفاظ الأديب – **البليغ الفصيح** – التي يستخدمها في فنه هي تلك الألفاظ نفسها التي يستخدمها جميع الناس في كلامهم ، ويتحدثون بها ويكتبون ،

---

(١)عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ١١٥.

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٩١.

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٠٠.

ولكنه يستطيع بهذه الأداة المألوفة حين يحسن التوفيق بين حروفها وتركيب ألفاظها، واختيار الأصلح منها أن ينطلق بالسحر الحلال الذي تقبله النفس وينشرح له الصدر ، ويمكنه بهذا أن يخرج فنا يفوق جميع الفنون ويسمو عليها [١] ؛ لتصوير ابن عربشاه الأديب البليغ الفصيح. رسائل قاضي سيواس برهان الدين:

قال القاضي : (اعلموا إني جاركما ودياري دياركما ، وأنا ذرة من غباركما وقطرة من بحاركما ، وما فعلت هذا مع ضعف حالي وقلة مالي ورجالي وضيق دائرتي وبلادي ، ورقة حاشية طريفي وتلادي ، إلا اعتماداً علي مظاهرتكما ، واتكالا على مناصرتكما وإقامة لأعلام صرحة دولتكما ، ونشر الرايات هيبة صولتكما ، فإني جنة ثغركما ، ووقاية نحركما وجاويش جنودكما ، وجاليش بنودكما وربئية طلائعكما وطليعة وقائعكما ، وإلا ممن أين لي مقاومته وإني يتيسر لي مصادمته ؟) [٢] ؛ ثم الأديب البليغ الفصيح ابن عربشاه انتقل للإجابة علي هذا السؤال من خلال تصويره إلى صورة (من التلقي الذي يشعر فيه بالشكل على الأقل مع إمكان الشعور بأشياء أخرى غير الشكل بحيث[٣] إن فكرة التلقي هنا ليست مجرد فكرة نفسية يتميز بها هذا الشكل او ذاك ، ولكنها عنصر داخل في تكوين الذي لا يوجد خارج نطاق التلقي[٤] لان التعبير (هو في ذلك كالموسيقي الذي يؤلف بين الأصوات فيخرج نغماً يشجي ويفتن وكذلك المصور يلتمس ألوانا خاصة ويعدها إعدادا خاصا فيخلق صور وتماثيل تعجب وتطرب[٥] كالموسيقي في هذا ألفاظ ابن عربشاه في تصويره إجابة السؤال على لسان القاضي في الخطاب : (بألفاظ الحاظ تشير إلي النهي) [٦] ما إلا هي قوة الإيقاع ، أي قوة الحركة التي يسيطر عليها الانسجام ، وفي الإيقاع الكامل يصبح الشكل الفني مثل النجوم التي لا تكون ساكنة أبدا مع ما يبدو من سكونها ،

---

(١) المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم ، الدكتور عبد الفتاح لاشين ، دار الفكر العربي ، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م ، ص ٤٣.

(٢) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ١٥٣ : رسالة إلي الملك الظاهر برقوق والثانية لابن عثمان.

(٣) نظرية التلقي والأسلوبية ، منهاج المقابل الصوتي والدلالي ، عالم الفكر ، العدد ٣٣ ، يوليو – سبتمبر ٢٠٠٤م.

(٤)نظرية البنائية في النقد ، د.صلاح فضل ، ص ٨٥.

(٥) المعاني في ضوء أساليب القران ، د . عبد الفتاح لاشين ، ص ٤٣.

(٦) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٤٩٠.

فالصورة العظيمة تتكلم دائماً[1] ؛ كالدر المنتظم والدر المنسجم . (**وقد سمعتم أحواله وعرفتم مشاهده وأفعاله ، فكم من جيش كسر ، وقيل اسر ، وملك ملك ، وملك أهلك ، وستر هتك ، ونفس سفك ، وحصن فتح ، وفتح منح، ومال نهب ، وعز سلب ، وصعب أذل ، وخطب احل ، وعقل أزل ، وفهم أضل ، وخيل هزم ، واس هدم ، وسؤل قطع ، وقصد منع ، وطود قلع ، وطفل فجع ، ورأس شرخ ، وظهر فضح ، وعقد فسخ ، ونار أشب ، وريح أهب ، وما أغار ورهج أثار ، وقلب شوي ، وكبد كوي ، وجيد قصم، وطرف أعمي وسمع أصم**) [2] وهذه الصورة التي تكلمت لنا عن بطش تيمور بينت إن أسلوب ابن عربشاه البليغ الفصيح ظاهرة تلازم تحقيق العملية اللغوية، المحلية منها او المكتوبة وأنها تتجه بحذرها في التعبير الإنساني تتكشف بدء من مستوي الجملة وتراكيبها المختلفة كما هو في أحوال الاستفهام والتعجب والتهكم في النص السابق والتي تركت – طابعها علي القول[3] – فالقيمة الأسلوبية لابن عربشاه الفصيح البليغ دارت في مجاله (الحقيقي هو النص والذي يتسع لمقاصد البث اللغوي؟ كما يتسع للتفنن في الكتابة، فيكشف عن فراده صاحبتها الأمر الذي رجح عند المنظرين كون الأسلوب طريقة خاصة للباث للخطاب اللغوي وخاصة الكاتب والأديب في نفسه)[4] مثل تبين ابن عربشاه انه أسلوبه هو الذي بثه ببلاغته الذي أكدها بظاهرة التلازم أسلوبه لحاجات التلقي الفني والتي وضع أساسها ابن عربشاه في حديثه في اللفظ والمعني في الكلام الحسن حين يقول (إن الكلام له مقامات ولكل من الفصاحة والبلاغة درجات) فسمي الكلام بليغاً لان بلغ الأوصاف اللفظية والمعنوية ، والبلاغة شاملة فالألفاظ والمعاني وهي أخص من الفصاحة كالإنسان من الحيوان ، فكل إنسان حيوان وليس كل حيوان إنسانا وكذلك يقال: كل

---

(1) بين الفلسفة والنقد ، شكري محمد عياد ، منشورات أصدقاء الكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٠م .

(2) عجائب تيمور في نوائب تيمور ، ص ١٥٣ – ١٥٤.

(3) النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق ، عدنان بن ذريل ،منشورات اتحاد الكتاب العربي ، ٢٠٠٠م ، ص ٤٣.

(4) المرجع السابق ، ص ٤٣.

كلام بليغ فصيح ، وليس كل فصيح بليغاً ، ويفرق بينهما من وجه آخر غير العام والخاص ، وهو انهما لا تكون إلا في اللفظ والمعني بشرط التركيب فان اللفظة الواحدة لا يطلق عليها اسم البلاغة ويطلق عليها اسم الفصاحة إذ يوجد فيها الوصف المختص بالفصاحة وهو الحسن ، وأما وصف البلاغة فلا يوجد فيها ، لخلوها من المعني المفيد الذي ينتظم كلاماً[١] ، لذا يؤكد لماذا لزم أسلوبه بلاغة فصاحته في قوله: " أرتكبت في عزمين ، واشتبكت بين همين ، بين أنْ اسكت فأضيع أو أن أقول فلا يسمع"[٢].

(١) المثل السائر في أدب الكتاب والشاعر للشيخ الإمام والعلامة الهمام ضياء الدين أبي الفتح نصر بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي الشافعي وبهامشه أدب الكاتب تأليف أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، الطبعة الأولي ، بمصر ١٣١٢هـ ، ص ٢٨.

(٢) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٣٦١.

الفصل الثالث

خصائص أسلوب ابن عربشاه في العرض الفني في كتاب "فاكهة الحلفاء ومفاكهة الظرفاء"

المبحث الأول : الحجاج الأسلوبي على مستوي الصورة الفنية

المبحث الثاني : الحجاج الأسلوبي على مستوي التركيب

المبحث الثالث :الحجاج الأسلوبي على مستوي المعجم

الفصل الثالث

عرض فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء

برزت خصائص أسلوب ابن عربشاه في العرض الفني لكتابه عن طريق الحجاج الأسلوبي في الجدل والقص في بقية أبواب الكاب في " الاستخدام المهيمن في النص الذي تنشأ عنه في نظرنا خصائص ذلك النص الأسلوبية في مستويات ثلاثة على الأقل مستوي المعجم ، حيث يمثل التعويل على وحدات معجمية بعينها تعود وتكرر في النص خصيصة أسلوبية فيه ، ومستوي التركيب حيث يمثل اعتماد ضرب من النظم والتأليف معين يطرد في النص خصيصة أسلوبية ، ومستوي الصورة حيث المجازات وحتى التشبيهات إذا تواترت في النص في إطراد استعمالها خصيصة اسلوبية كذلك لاسيما في سردية الخطاب الفني لابن عربشاه في كتابه هذا"(١).

المطلب الأول : عرض فاكهة الخلفاء

فالقيمة الأسلوبية التعبيرية الأدبية جاءت بأسلوب ابن عربشاه المفكر الناقد الداعية ، الشاهد على الحقيقة ، في قصة التاجر المراقب والغلام في الباب الثاني " والتي تحتوي على حقيقة ضخمة هائلة ، حيث أضخم الحقائق الكونية التي لا تستقيم حياة البشر في الأرض بدون إدراكاتها واستيقانها ، سواء كانت حياة فرد أم جماعة أم حياة الإنسانية كلها في جميع أدوارها وإعصارها ، وأنْه ليفتح جوانب وزوايا

---

(١) الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائص أسلوبية ، عبد الله صولة ، ط ١ ، ٢٠٠٠م ، الناشرون دار الفارابي ، لبنان ، ص ٤٩.

متعددة من المعاني والمرامي تتدرج كلها تحت هذه الحقيقة الضخمة ، التي تعد حجر الأساس التي تقوم عليه الحياة " [١].

فيما عرضه ابن عربشاه في كتابه ، وراء حيل الحيوان ، والجان والطير، من "التفكر والاعتبار والتفكه في آن واحد" وكان الحجاج الأسلوبي بمستوياته الثلاثة على هذه المباحث الثلاثة التالية :

المبحث الأول : الحجاج الأسلوبي على مستوي الصورة الفنية :

إن العرض الفني لكتاب "فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء" وتبين فيه الاتجاه الأسلوبي لسرد ابن عربشاه له على لسان الحيوان والجان والطير بأدب الخرافة التي " هي حكاية ذات طابع خلقي وتعليمي ، في قالبها الأدبي الخاص بها ، وهي تنحو معني الرمز في معناه اللغوي [الذي عرض فيه ابن عربشاه] شخصيات وحوادث أخرى عن طريق المقابلة والمناظرة" [٢] ، جاء بها على لسان الحيوان والطير والجن والشياطين ، لكنه أراد بها في سردية خطابه الفني بيان للقارئ القيمة القصدية لكتابه من خلال القصص المحورية الكثيرة التي تخللت ابواب كتابه العشرة وهي :

الباب الأول : في ذِكر ملك العرب ، الذي كان لوضع هذا الكتاب السبب.

الباب الثاني : في وصايا ملك العجم ، المتميز عن أقرانه بالفضل والحكم.

الباب الثالث : في حكم ملك الأتراك ، مع ختنه الزاهد شيخ النساك.

الباب الرابع : في مباحث عالم الإنسان ، مع عفريت جان الجان.

الباب الخامس : في نوادر ملك السباع ، ونديمه أمير الثعالب وكبير الضباع.

الباب السادس : في ذكر القتال بين أبي الأبطال الرئبال ، وأبي "دغفل" سلطان الأفيال.

الباب الثامن : في حكم الأسد الزاهد ، وأمثال الجمل الشارد.

الباب التاسع : في ذكر ملك الطير العُقاب ، والحجلتين الناجيتين من العقاب.

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٨٠-٣٨١ .

(٢) د. محمد غنيمي هلال ، الأدب المقارن ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٨م ، ص ١٧٩.

الباب العاشر : في معاملة الأعداء والأصحاب وسياسة الرعايا والأحباب ، نكت وأخبار وتواريخ أخيار وأشرار " [١].

والتي تشابه كتابه الذي ترجمته من اللغة التركية إلى اللغة العربية قبل كتابه فاكهة الخلفاء في كثير من أبوابه وقصصه وهو كتاب "مزربان نامه"[٢] ويعني بالعربية كتاب مزربان وهو حسب سياق الكتاب " واحد من أربعة أنجال لأحد ملوك طبرستان من سلالة آل باوند ، وكان يدعي اسبهند مزربان بن رستم بن شهريار ، قرر أخوته الثلاثة العصيان والتمرد على والدهم فآثر هو أن يبتعد عن المجتمع وينصرف إلى التأليف بناء لطلب المقربين إليه". على الرغم من أوجه الشبه بين الكتابين فإن ابن عربشاه لم يكتف بإضافة بعض الأبواب إلى كتابه مثل قصة جنكيز خان التاريخية (والتي جاء بها صورة باعتبارها رمزاً ، دلالتها تمثل صورة الملك الفاسد ، المدمر للإنسانية في الأرض[٣] ؛ بجانب قصة التاجر المراقب والغلام والتي فسرها رمزياً والتي عرضها في الباب الثاني في الكتاب والتي تمثل على مستوي الموضوع النظري للصورة الفنية صورة رمزية بمعناه المعنوي). لذا كان الاتجاه الأسلوبي في سردية الخطاب الفني لابن عربشاه فيكتابه هذا أن يعرض التفكر والتفكه في آن واحد ، هو الدور الكبير لحكايات المرأة في تصوير ابن عربشاه للقصص المحورية في الكتاب لاسيما في إبراز الحجاج الأسلوبي عنده ، داعما به العرض الفني في خطابه ، والذي عرض به القصص التي تقود قارئ الكتاب إلى التفكر والاعتبار فيما استلهمه من الكتاب الذي يبرز في القيمةالأسلوبية للحكمة التي أوردها في الباب الأول من الكتاب حيث يقول " إن الاغترار بالكلام محال ، والإضغاء إلى الحكايات والقول البطال ، من غير تنقل من ألفاظها إلى معانيها ، وتأمل في مآل مقاصدها وفحاويها ن والاعتاد على قضايا المزخرفة ، والركون إلى فلسفةالأمور المسفسفة ، ولا يفيد سوى الندم ، وزلة القدم ، والأصل في الولايات

---

(١) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، ص ٤٢ – ٤٤.

(٢) مزربان نامه "نسخة طبق الأصل عن طبعة حجرية في مطبعة أحمد أفندي الأرمرلي في القاهرة سنة ١٢٨٧ هجرية الموافق ١٨٥٨ ميلادية كان قد نقلها المترجم شهاب الدين أحمد بن محمد بن عربشاه عن النسخة المترجمة بدورها عن الأصل الفارسي" ؛ الطبعة الأولي مؤسسة دار الانتشار العربي ، ص ٧.

(٣) فاكهة الخلفاء "قصة جنكيز خان وحروبه الوحشية" ، ص ٥٣٦ – نهاية الكتاب.

والمناصب ، التفكر في الخواتيم والتأمل في العواقب ، وإلاّ فليس في ذلك ، سوى إضاعة العمر والمصير إلى المهالك ، وقلت شعرا :

وأسعد من يكسي الولاية من إذا   نضا ثوبها يُكسي الثناء المطرّزا[1]

مثال التفكر في الخواتيم ، والتأمل في العواقب ، جاء به ابن عربشاه في الباب الثاني في الكتاب " قصة الصديق ونصف الصديق"[2] فالقيمة الأسلوبية الأدبية لهذه القصة تبرز في وصية الأب لابنه في كيفية اختيار الصديق الكامل والذي يقصد به أهل الصفا حيث يقول لابنه :

" وأقل الأقسام ، يا ذا الأصل السأم ، أن تجرب أصحابك ، وتختبر من يلازم بابك ، ويقبل بشفاه المودة أعتابك ، في شيء نابك ، أعجز عن حله نابك ، من حوادث القضاء ، أو في حالة من أحوال الغضب والرضاء ، أو السعة والضيق ، أو التكذيب والتصديق ، فمن وجدته ناصحاً صادقاً ، أو مطاوعاً مصادقا ، وفي كل الأحوال موافقا ، وفي الرخاء والشدة مرافقا ، يوثق به في الغيبة والحضور ، وحالتي السرور والشرور ، يؤدي الأمانة ، ويجتنب الخيانة ، ويغار على دينك وعرضك ، ويساعدك على أداء سنُتك وفرضك ، فأركن إليه ، واعتمد في أمورك عليه ، ومن وجدته منافقا ، وفي إخلاصه مماذقا ، ينسج شقة الوداد بوجهين ، ويتكلم كخئض المداد بلسانين ن فلا تقربه ولا تصحبه ن فإن بعده غنيمة ، والخلاص منه نعمة جسيمة ، وأنظر بعين الثبات ن ما في هذه البيات ، من حسن الصفات ، فمن كان بهامتصفا ، فتمسك بأذياله فإنه من أهل الصفا ، وهي هذه :

وقد قيل قول المرء يكشف عقله   ويُبدي سجاياه وما كان يكتم

فهذا كلامي مُظهر ما أكنه   وأكثر هذا الخلقِ عن عيبهم عموا

فمن شيمتي أني مطيع لصاحبي   وأصلح عن خصمي وإن كنتُ أخصم

وأرضى لنفسي دون ما هو حقها   وألزمها للخِل ما ليس يلزم

إذا قال أصغي للمقال وإنني   لأعلم منه بالمقال وأفهم

([1]) فاكهة الخلفاء ، ص ٧٩ – ٨٠.

([2]) ينظر المصدر السابق ، ص ١٢٠ – ١٣٢.

ولـم أشـك مـن خـل لـئلا يملنـي ومـن لـي بخـل لا يمـل ولا يسـأم

وأقطع في بحثي وإن كنت غالبا وأسـكت حتـى قيـل ذا لـيس يعلـم

لأبقـي وداد النـاس لـي لا أضيعه ومـن لا يـداري النـاس يرمـي ويـرغم

وفـي كـل ذا تقـوي الإلـه شـعائري ولابـــد مـــن لا يتقـــي الله ينـــدم

ولا نقص فـي عقلـي وأسباب نعمتـي وأنـــــي وافـــــي بالكمـــــال مكـــــرم

ولـي همـة يسـمو إلـى الأوج قـدرها ولكـن خمـول المـرء للـدين أسـلم

ووجـه اعتقـادي مثـل عرضـي أبيض ودينـــي متـــين واعتمـــادي مقـــوم

وحسـبي مـن دنيـاي قـوت وخرقـة يبلغنـــي آثـــار مـــن قـــد تقـــدموا

فهــذي غرزيــات لــدي وأننـــي لأدعـو إلـى هـذي الخصـال وأعـزم

فأثر هذا الكلام فيه ، وتأمل ما تضمنته فحاويه ، ثم أراد أن يجرب ملازميه ، ومن بروحه وجسده يفديه. فقال يوماً من الأيام ، وقد اجتمعوا على منادمة المدام : اتفق امر عجيب ، وشأن غريب ، وهو أنه كان عندنا هاون ، في زاوية مخزون ، رنته ربع قنطار ، أتي البارحة عليه الفار ، قرضه وأكله ، وعمه بالأكل وشمله ، فلم يترك من ذلك النحاس في مكانه ، إلا ما فضلمن برادة أضراسه واسنانه. فترشفت ثغور آذانهم منطقة ،واستحلي مؤوسها كل منهم وصدقه" [1].

وتبرز القيمة الأسلوبية الأدبية في التفكر والاعتبار الذي يمثل صورة فنية من صور الاتجاه الأسلوبي في سردية ابن عربشاه لقصة التاجر المراقب والغلام في الباب الثاني والتي تحتوي على " حقيقة في الأرض ضخمة هائلة ، حيث أضخم الحقائق الكونية التي لا تستقيم حياة البشر في الأرض بدون غدراكاتها واستيقانها ، سواء كانت حياة فرد أو جماعة أم حياة الإنسانية كلها في جميع أدوارها وإعصارها ، وإنه ليفتح جوانب وزوايا متعددة من المعاني والمرامي تتدرج كلها تحت هذه الحقيقة الضخمة ، التي تعد حجر الأساس التي تقوم عليه الحياة" [2] ، وهي تعتبر في

([1]) المصدر السابق ، ص ١٢٤ – ١٢٥.

([2]) طريق الدعوة في ظلال القرآن ، جمع أحمد فائز ، ج ١ ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨١م ، ص ٣٨٠ – ٣٨١.

الاتجاه الأسلوبي لابن عربشاه على المفهوم النظري للصورة الفنية ، صورة باعتبارها رمزاً ، جاء به على لسان وصية ملك الأتراك لابنائه حين: " قال الملك : ذكر الحكُماء وذوو الفضل من العُلماء ، أنه كان في بعض الأمصار تاجرٌ من أعيانِ التجّار ، ذو مالٍ جزيل ، وجاهٍ عريضٍ طويلٍ ونعمةٍ وافرةٍ ، وحشمٍ وخدمٍ متكاثرة ، من جملِتهم غلامٌ مخايل السعادةِ ، من جبينه لائِحة، وروائحُ النجابةِ من أذيالِ شمائِله فائِحه ، قد أفني عُمْرَه في خدمةِ مولاه ، ولم يُقصّر لحظةً في طلبِ رضاه ، فقال له سّيُده في بعضِ الأيام : لك عليَّ حقٌّ يا غلام ، وأنا أريدُ مكافأتَك وأطلبُ موافاتك ، فَتَوَجَهْ هذه المرة في هذه السّفْرة ، فمهما ربحتَ فهو لك بعد أنْ أعتِقُك منْ قَيْدِ رقٍّ أَشْغَلَك ، ثم أوْسَقَ مركباً ، وفسحَ له في السيرِ شرقاً ومغرباً ، ووَصّاه بأشياءَ امتثل مرسومَها ، والتزمَ منطوقَها ومفهومَها ، فقالَ له مولاه : سأرفعُك على إضرابِك وأغنيكَ عن أمثالِك وأصحابِك، منطوقَها ومفهومَها ، وأجعُلك كأكبر مَنْ في الدنيا ، ولجميع رفقتك بمنزلةِ المؤلي. ثم أخذ في تعبئة البضائع ، وأوسَقَ مركبه المتاجرَ والمنافع ، وسلّمه إلى الهواءِ والماءِ ، بعد أن توكَّلَ على رب السماء. فسار بعضَ أيام ، وهو في أهنَي مرام ، وأطيبِ عيشٍ ومقامٍ ، الماءُ رائق، والهواءُ موافق ، والنكدُ مفارق، والسرورُ مرافق ، حتى كأنه نوّح وخِضْرُه الملاّح ، وموسى وفتاه ، حافظاً الألواح ، وبينما السفينة من نسف العواصف أمينة ، تجاري السَّهْمَ والطيْر ، وتبارِي الدُّهْمَ في السيْر ، فإذا بالرياحِ هاجتْ ، والأمواج ماجتِ ، وأشباحِ البحرِ تصادمْت ، وأطوادِ الأمواجِ على العرفاءِ تلاطمتْ ، فعجز ذلك الملاحُ والحافِظ ، ونشرَ مذهبَ ابنِه أبو الجاحظ ، وترك سيمة الوقارِ والسكينةِ ، ورقَمَ نقشَ الحروفِ في ألواح السفينة، فشاهدوا من ذلك الهواءِ الأهوال ، وغدا قاعُ البحرِ كالجبال وصار ذلك الغراب بمن فيه من الأصْحاب ، كأحوالِ الدنيا بين صعودٍ وهبوطٍ ، وقيامٍ وسقوطٍ، طوراً يستأمنون الأفلاك ، ويناجون الأمْلاك ، وينهون أخبارَ ظُلُماتِ صاحب الحوتِ إلى السِّماك ، وطوراً يهبِطون الغَوْر ، وينظرُون قَرْنَ الثَوْر ، وربما مَرَقوا منه من تحتِ الزّور ، فلم يزالون عاجزينَ حيارى ، سكارى ، وما هم بسكارى ، يتناشدون :

وفُلْــــكِ ركبنـــــاهُ والبحــــرُ ذو هـــواءِ فثـــار وحـــار ومـــارا
فطـــوراً علْونَـــا الســماءَ وطـــوراً رَمَتْنَـــا أراضـــيهِ منـــه انحـــدارا

وأخر الأمرِ نَسَفَتْ السفينةَ الرياح ، والقي كاتبُ الحاصبِ إلى كل حرفٍ من حروفِ الجبالِ لوحاً من الألواحِ ، وأوْعزَ اللهُ سهلَها وخرقَها ، فأغَرقها وأهلَها، وذهبَ البحرُ بأموالِها وأرْواحِها ، وتعلّق الغلام بلوْح من ألواَحِها ، واستمرّت تقذفه الأمواج وتصطدُمُ به أثباجَ البحرِ الهَّياج ، إلى أن وصَلَ إلى ساحل ، فخرجَ وهو كئيبٌ ناحلٌ ، وصعد إلى جزيرة ، فواكِهُها غزيرة ، ووَصْفُها عجيب ، ليس بها داعٍ ولا مُجيب ، فجعل يمشي في جنباتها ، إلى أنْ أداة التوفيق إلى فم طريق، فسار في تلك الجادة ، وهدايةُ اللهِ له مادّة ، فانتهَي به المسير إلى أنْ تراءي له سوادٌ كبيرٌ ، وبلغَ مملكةً عظيمةً وولايةً جسيمةً ، ورأي على بُعدٍ مدينةً مُسَورةً حصينةً ، فعمد إلى ذلك البَلَد ، وتوجه نحوَها وقصد ، فاستقبلَه طائفةٌ من الرعالِ ، ونساء ورجال يتبعهم جنودٌ مجندةٌ ، وطوائفُ محشدة مع طبولٍ تضرب ، وفوارس تلعب وزمور تزعق ، والسنةٍ بالثناءِ تنطق ، حتى إذا وصلوا إليه ، تراموا عليه ، وأكبُّوا بَيْنَ يديَّه ، يقبلون يَدْيْهِ ورِجْلَيْه ، مستبشرينَ برؤيتِه ، مُتبَركّين بطلعتِه ، ثم ألبسُوه الخِلَعَ السنية ، وقدمَّوا له فرساً علّية ، بكنبوشِ ذهب، وسرجٍ مغرق ، ووضعوا له التاجَ على المفرق ، ومشْوا في الخدمةِ بين يديه ، والجنائبُ في الموكبِ تجرُّ لَدَيْه ، ينادون حاشاك وإليك ، سلطانُ الناسِ قادمٌ عليك، حتى وصلوا إلى المدينة ، ودخلوا قلعَتها الحصينة ، ففرشوا شقَقَ الحرير ، ونثروا النثارَ الكبير ، أجلسوه علي السرير ، أطلقوا مجامِرَ الّندِّ والعبير ، ووقف في خِدمتِه الصغيرُ والكبير ، والمأمورُ والأمير ، والدستورُ والوزير ، وانشدوه :

قَدِمتَ قدومَ البدرِ بيتَ سعودِه وأمـــرُك فينـــا صـــاعدٌ كصـــعودِه

وقالوا : أعلمْ يا مولانا ، أنك صرتَ لنا سلطاناً ، ونحن كُّلنا عبيدُك ، وتابِعُوا مرادَك ومريَدك ، فأفعلْ ما تختار ، وتحكّمْ في الكبارِ مِنا والصغار ، وأمرْ مَا لكَ مِن مَرسُوم ، فامتثالُه علينا محتوم ، (وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ) [1] ، فجعلَ يتفكّرُ في أمرِه ومَبدأه ، ويتأمّلُ ما صار إليه ويتدبر في مُنتهاه ، فقال : إنَّ هذا الأمرَ لابدَّ له مِن سَبب ، ولابدَ له من آخر ومُنقلَب ، فإنّه لم يصدُرْ في عالمِ الكوْن سدي ، وإن لهذا اليومِ من غيرِ شكٍّ غدا ، **وان الصانعَ القديم ، القادرَ الحكيم، السميعَ**

(١)سورة الصافات ، الآية : ١٦٤.

العليم ، البصيرَ الحيَّ ، المريدَ الكريم ، لم يُقَدُرْ هذه الأفعال علـي سبيل الإهْمال ولم يُحدثْ حَدَثا ، لِعباً ولا عبثاً ، وجعل يـلازمُ هذه الأفكـار، أَنـاءَ الليلِ وأطرافَ النـهـارِ ، وهو مـع ذلـك قائمٌ بِشكرُ النعْمـة ، ملازمٌ باب مولاه بالطاعةِ والخدمة ، واضـعٌ الأشياءَ في محلُها ، والمناصبَ في يَدِ أهلِها من مُلْتفت إلـى أحـوالْ الرعَّيـة ، عامـلٌ بينـهم بالعـدلْ والسويَّة، مُتعهْد أمـورَ الكبـارِ والصـغارِ ، بـأنواعِ الإحسانِ وأصنافِ المسار ،مؤسسُ قواعدَ المملكـةِ والسلطنة ، **علـي أركـانِ العقلِ والعدلِ مهمـا أمْكنَـه**، متفحصُ عن مصـالحِ المملكة والسلطنة ، سالكٌ مع كلِّ أربابِ الوظائفِ ما يقتضـي مَسْلكه.

ثم وقـع اختيـارُه من بين أولئكَ الجماعـة ، علـي شابٍّ جليلِ البراعة ، لـه في سوقِ الفضـلِ والوفـاءِ أوْفَرُ بضـاعة ، مُتْصِـفْ بـأنواعِ الكمـال ، متحلٍّ بزينـةِ الأدبِ والجمال ، **فاتخَذه وزيراً ، وفي أمورِه ناصحاً ومشيراً** ، فجعل يلاطفُه ويرضيه، ويكرمُه ويدينـه ، ويفيضُ عليـه من ملابِس الإنعـام ، وخِلَـع الأَفضـال والإكرام، حتـى مَلَكَ بـه حبُّه قلبَه ، واستصفي خـالصُ ودِّه لبَّه ، وسكَن في سويدائِه، وتمكَنَ بـه من ضـميرِ أحشائِه ، إلـى أنْ اختلـي بـه ، وتلطّفَ فـي خطابـه ، واستنصحَه في جوابِـه ، وسأله عن أمْرْ إمْرتـه ، ومُوجِبِ رفعتِه وسَلَ ْطَنَ َتِه ،من غيرِ معرفة الرفاق ، ولا أهْليَّةٍ ولا استحقاق ، ولا هو من بَيْتِ المُلْك ، ولا في بحرِ السلطنةِ لـه فُلُك ، ولا معه مـال ، ولا خيْل يُهديها ولا رجـال ، ولا معرفـةٌ يُدلي بهـا، ولا شـجاعةٌ وفضيلةٌ يَهتدي بتهذيبها ، فقال ذلك الشاب ، في الجواب : أعلمْ أيها الملكُ الأعظم ، أن هذه البْلَدة ، وعساكرَ إقليمها وجندَه ، قد اخترعوا أمرا ، واصطلحوا علـى عـادةٍ أخرى ، سـألوا الرحمن ، أن يُقيَّضَ لهم في كلِّ أوان ، شخصـاً من جنس الإنسان ، يكون عليهم ذا سُلطان ، فأجابَهم إلـى ذلك ، فسلكوا فـي أمره هذه المَسالك ، وذلك أنـهم فـي اليومِ الذي قَدِمْتَ عليهم ، يرسلُ الله تعالي رجـلاً من عـالمِ الغيبِ إليهم ، فيستقبلونه كمـا استقبلوك ، ويسلكون معـه طريقـةَ الملوك ، من غيـر نقصٍ ولا زيـادة ، وقد صـارتْ هذه لهم عـادة ، فيستمرُّ عليهم سنةً فـي هذه المرتبـةِ الحسنة. فـإذا انقضـي الأجـلُ المعدود، وجـاء ذلك اليومُ الموعود ، عمدوا إلـى ذلـك السلطان وقد صـار فيهم ذا

إمكانٍ ومكان ، وعلقةِ ونشب ، وإخاءٍ ونسب ، وثَبَتت له أوتاد ، وصار له أهلٌ وأولاد ، وجرُوه برجله من التَّخْت ، وسلبوه ثوبَ العزَّة والرّخْت ، وألبسُوه ثوبَ الذُّلِّ والنّكَال، وأوثقوه بالسلاسلِ والأغْلالِ ، وحملَه الأهلْ والأقارب ، وأتوْا به إلى بحرٍ قريبٍ فوضعوه في قارب ، وسلَموه إلى مُوكّلين ليوصلوه إلى ذلك الجانب ، فيوصلونه إلى ذلك البرَ ، وهو قَفْر أغبر، ليس به أنيسٌ ولا رفيق ، ولا جليسٌ ولا صديق ، ولا زادٌ ولا ماء ، ولا نشوءٌ ولا إنماء ، ولا مغيثٌ ولا معين ، ولا قريبٌ ولا قرين ، ولا قدرةٌ ، ولا إمْكَان ، على الوصول إلى العمران ، ولا ظِلٌ ولا ظليل ، ولا إلى الخلاصِ سبيل ، ولا إلى طريق النجاة دليل ، فيستمرُّ هناك عُريَاناً وحيداً ، فريداً طريداً ، إلى أنْ يهلكَ عطشاً وجوعاً ، لا يملكُ إقامةٌ ولا يستطيعُ رجُوعاً.

ثم يستأنفُ أهلُ هذه البلاد ، مالَهم مِنْ فعلٍ معتاد ، فيخرجون بالأهَبة الكاملة ، إلى تلك الطريقِ السابلة ، فيقِّيضُ الله تعالي لهَم رجلاً ، فيفعلون معه مثلَ ما فعلوا مع غيرهِ قولاً وعملاً ، وهذا دَأَبُهم ودَيْدَنُهم ، وقد ظهر لكَ ظاهُرهم وباطنُهم . فقال ذلك الغلامُ الأَمْلح ، لذلك الوزيرِ المصْلحِ : فهل اطلّع أحدٌ مِمّنْ تقدّم ، على عاقبةِ هذا المأتم ؟ قال قد عرف ذلك ، وتحقَّقَ أنُّه عن قريبٍ هالكٍ ، ولكن **غرور السلطنةِ يُلْهيه ، وسرورَ التحكّم والتسّلِط يُطغيه ، وحُضورَ اللذّةِ الحاصلةِ لسوءِ العاقبة يُنْسيه ، ولا يفيقُ مِنْ غَفْلته ، ويستيقظُ من رَقْدتِه ، وإلاّ وعَامُه قد مضي ، والأجَلُ المضروبُ قد انقضي ، وقد أحاطتْ به نوازِلُ البلاء ، وهجمَ عليه بوازِلُ القضاء ، فيستغيثُ ولا مغيث ، وينادي بالخلاصِ وَلاَتَ حينَ مَنَاص** . فلمّا سمعَ الغلام ، هذا الكلام، أطرقَ مُفكْراً ، وبقي مُتَحيراً ، وعلم أنّه لابُدّ للأيامِ أنْ تمضي ، وهذا الأجَل المضْروب ينقضي ، وأنّه لم يتداركْ أمرَه ، ويتلافَ خَيْرَه وشرَّه ، ويتّدبْر حالَه ، ومِصيرَه وَمَآلَه هلكَ هلاكَ الأبد ، ولم يشعرْ به أحد. فأخذَ يُفكْر في هذا الخلاص والتَقصِّي من شرك الاقتناص.

ثم قال للوزير الناصح الخبير : أيها الرفيقُ الشفيق ، والنصوحُ الصديق ، جزاك اْلله خيْراً ، وكَفاكَ ضَيْماً وضيْراً ، إني قد فَكّرَتُ في شئٍ ينفعُ نفسي ويُحييها ،

ويدفعُ شرَّ هذه البليةِ التي وقعتُ فيها ، وأُريدُ مُعاونَتَك ، وأطلبُ مساعدتَك فإني رأيتُك في الفضلِ مُتميِّزاً بين أقرانِك ، فائقاً في محاسنِ الشيَمِ على أصحابِك وإخوانِك ، فقال أفعلُ يا ذا الزعامة ، وحبّاً لك وكرامة ، قال: أعلم أيّها الصاحبُ الأعظم ، إن الرجوع إلى هذا المكان الذي كنتُ فيه خارجٌ عن الإمِكان ، والإقامة في هذا المُلْكِ المعهود ، إنما هي إلى أجلٍ معدود ، ووقتٍ محدود ، وانقضاؤه على البتات ، وكلُّ ما هو آتٍ آت ، وكيفِّية الخروجِ قد عرفتُ ، وطَريقَها قد تَقَدّرْتُ ووصفتُ ، ولهذا قيل يا ذا الفضلِ الجزيل ، دخلْنا مُضَّطرِّين ، وأقمْنَا مُتَحِّيرين ، وخرجْنا مُكْرهين ، ولم يتجه مخلص ، من هذا المقنص ، إلا طريقٌ واحدٌ ، وسبيلٌ غيرُ متعاهد ، وهي أنْ تأخذ طائفة من البنائين ، وجماعةً من المهندسين والنجارين ، وتذهبَ بهم أيها الوزير ، إلى مكانٍ إليه نصير ، فتأمرهم أنْ يبنوا لنا هناك مدينة ، ويشيدوا لنا فيها أماكنَ مكينة ، ومخازنَ وحواصل ، وتملؤها من الزاد المتواصل من المآكِل الطيبة ، والأطعمةِ والأشربة اللذيذةِ المستعذبةِ . ولا تغفلْ عن الإرسال ، ولا تختْر الإمهالَ والإهمال ، في الظهيرةِ والأسحارِ والغدوِّ والآصالِ ، إذْ أوقاتْنا محدودة ، وأنفاسُنا معدودة ، وساعة تمضي منها غَيرَ مردودة ، وإذا فاتَ شئٌ من ذلك الوقت ، فلا تعوِّضُ عنه إلاّ الخيبةَ والمقتَ ، فتنقل هناك ما يكفينا على حسبِ طاقتنا ، ومقدار قدرتنا واستطاعتِنا ، فإذا تزوّدْنا منها ، لم نرحلْ عنها ، بحيث إذا نُقلنا من هذه الديار، وطُرِحَنا في تلك المَهامِةِ والقفار ، وجَفانا الأصحاب ، وتخلي الإخلاّءُ عنا والأحباب ، وأنكرَنا المعارفُ والاودَّاء ، واستوحْشتَنا في تلك البيداء فنونَ الداء ، نجدُ ما نستعينُ به علي إقامة الأوّدَ ، مُدّةَ إقامتِنا في ذلك البلد.

فأجاب بالسمعِ والطاعة ، واختارَ من المعمارية جماعة ، وأحضَر المراكب، وقطع البحرَ إلى ذلك الجانب ، وجعل الملكُ يمدِّهم بالآلاتِ والأدواتِ ، على عدد الأنفاسِ ومدي الساعات ، إلى أنْ انهي المعماريةُ العمارة ، واكملوا حواصلَ الملكِ ودارَه ، واجروا فيها الأنهار وغرسوا فيها الأشجار ، فصارت تأوي إليها الطيورُ بالليل والنهار ، ويترنم فيها البلبلُ والهزار ، بأنواعِ التسبيحِ والأذكار ، وغدتْ من أحسنِ الأمصار ، وبَنَوْا حواليها الضياعَ والقُرى ، وزرعوا منها الوِهادَ والثري ، ثم أرسل إليها ما كان عنده من الخزائن ، ونفائس الجواهرِ والمعادن ، وأرسل من ظريفِ التحفِ

إليها ، ومن حاجاتِه المعوَّل عليها ، بحيث لو أقام بها سنينَ قامتْ بكفايتِه ، وفضَّلت خزائنُها عن حاجته ، واكثر من إرسال ما يلزمُ من الأدوات ، والأشربةِ والمطعومات ، وجهَّز الخدمَ والحشمَ ، وصنوفَ الاستعداداتِ من النِّعَم .

فما انقضتْ مُدَّة مُلْكِه ، ودنت أوقات هلكه ، إلا ونفسُه إلى مدينتِه تاقتْ ، وروحُه إلى مشاهدتِها اشتاقت ، وهو مستوفزٌ للرحيل ، ورابِضٌ للنهوضِ والتحويل. فلما تكامل له في المُلْكِ العام ، لم يشعْر إلاّ وقد أحاطَ به الخاصُّ والعام، مِمَّن كان يفديه بروحِه ، من خادمِه ونصوحِه ، ومَنْ كان سامعاً لكلمته ، مِن أعيانِ خَدَمِه وحشمتِه ، وقد تجردّوا لجذْبِه من السريرِ ونَزْعِ ما عليه من لباسِ الحرير ، ومشوا على عادتِهم القديمة ، وسلبوه الحشمة الجسيمة ، ومملكتَه العظيمة ، وزلتْ الحشّمة ، والكلمُة والحرُمة ، وشدَّوا وثاقَه ، وذهبوا به إلى الحرَاقة ووضعوه وقد ربطوه ، في المركب الذي هيّأوه ، أوصلوه إلى ذلك البرَ من البحر. فما وصل إليه إلاّ وقد أقبلتْ خَدَمُه عليه ، وتمثلتْ طوائفُ الحشمِ والناسِ لديه ، ودقَّتْ البشائرُ لمْقدمِه ، وحل في سرورِه المقيمِ ونعَمِه ، واستمّر في أتمِّ سرور ، واستقرّ في أوْفَر حُبورِ.

ثم قال الملكُ للأولاِد وفلِذة الأكباد : وإنما أوردتُ هذا المقال ، علي سبيل المثال ، فأصغوا إلى حُسْن التنظير ، حتى أبيَّنَ لكم النّظير ، وعُوا ما أقول ، بآذانِ القبول ، وتأمَّلوا رموزَ المعاني ، من هذه الألفاظِ التي أخجلتْ المثاني ، ثم تفكّروا وتبصَّروا ، وبعد التذكّرِ والتبصّر تدبروا ، **أما ذلك الغُلامُ المعهود ، فإنُه الولدُ في أوّلِ الوجود ، وأما المركبُ الذي أودعه ، فهو بطنُ أمِّه الذي استْودَعه ، وانكسارُ السفينة ، هو انشقاقُ المشيمة ، والجزيرةُ التي خرج إليها ، فهي الدنيا التي دخَل عليها. والناسُ الذين استقبلوه ، فأقارِبُه وذووه وأهلُوه ، يربُّونه بالملاطفَة والدَّلال ، ويعاملونه بالإكرامِ والأفضال. وذلك الشاب الذي وزيُره ، فهو عقُله ومن إيمانِه نورُه ، والسَّنَةُ المضروبةُ اجلُه المحتوم ، وعمرُه المعدودُ المعلوم. ونزولُه عن سريِره ، عبارة عن أخرتِه ومصيرِه ، وخروجُه من الدنيا بالإكْراه ، وشروعُه في دخولِه إلى أخْراه ، والبحرُ الثاني الذي طُرِح فيه ، هو أحْوَالُ ما يُعانِيُه ،**

عندَ الموت ويُعانيه ، والبُّر القَفُرُ ، اللْحد والقبر. فالسعيدُ يتفكّر في كيفية أمورِه وأحوالِه ، ومبدءِ أمرِه ومآلِه ، ثم يتدبر في قُلِّ هذا وجلِّه ، ويستعِّد لما خُلِقَ من أجْلِه ، ويتحقَّقُ أنّ الإقَامَة في الدنيا يَسِيرة ، وهي بالنسبةِ إلى الإمامة بدار البقاء قصيرة ، وأنّه إذا جاء وقُته المحّتم ، لا يتأخرُ عنه ساعةً ولا يتقدمّ ، فيأخذ في الازدياد ، ويتهيأُ ما أمكنَ لِيومِ المعاد ، ويعدُّ نفسَه كالمسافر ، الذي أتي بعض الحاضر ، فلا يقيُم أكثر من يوم ، وقد رحل عن القوم، كما قيل :

ألا إنّما الدُّنيا كَمَنْزِلِ راكبِ أناخَ عَشِيًّا وهوَ بالصُّبْحِ راحِل

إلى سفرٍ طويل ، زادُه قليل ، قفارُه يابسة ، ورقة دامسة ، لا أنيس فيه ولا رفيق ، ولا مصاحَب ولا صديق ، ولا دليلَ ولا خليل ، ولا مغيثَ ولا مقيل ، ولا ماء ولا معين ، ولا صاحَب ولا مُعين ، فَيُهيَّئُ لهذا السّفر ، بقدرِ الإمكانِ ما قَدر، من الزادِ والماءِ ، والمركب والكلأ ، ونورِ الطريق ، والمسافرِ والرفيق ، والخادم والأنيس ، والمنادمِ والجليس ، ويمهد المضجع للمبيتِ والمقيل ، ويُهيِّئُ الموضَع في النزولِ والرحيلِ ، وبالجملة لا يترك من أفعالِ الخير شيئاً إلاّ فَعَلَه ولا مُجْملاً إلاّ فصله ، ولا متأخِراً إلاّ قدمّه ، ولا معاملاً في مبايعةِ إلاّ أسلفَه وأسلمَه ، وَلْيَعْلَم أنّ كلَّ ذلك محتاجٌ إليه ومصروفٌ لديه ، إذا نُقل إلى دارِ البقاءِ وأقبلَ عليه ، فإذا جاء وقتُ الرحيل ، ونادي مُنادي الانتقالِ والتحويل ، وجدَ ما كان عَمَله حاضراً ، وكلَّ ما قدمه إلى رياضِ الخيرِ نَزِهاً ناضراً ، كما قال ذو الجلال ، وأخَبرَ به الصادقُ في الوعدِ والمقالِ : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ)[1] ، معني ألاّ تَخَافُوا لا خوف عليكم ، فيما هو إمامَكم ، ولا تحزنوا علي ما خَلَفْتُم وراءَكم ،فإذا دخل في قبرِه وجدَه روْضةً من رياضِ الجنّة ، يُبَشِّرهْم ربهم برحمةٍ منه ورضوان ، وجنَات لهم فيها نعيمٌ مقيمٌ ، وأما الشقيُّ ، الغافلُ الغبيّ ، الذي أُمِهلَ أَمْرُه ، ونَسِيَ الله وذكَرَه ، أَهْمل ما خُلِقَ لأجِلْه ، وتاه في بَيْدَاءِ الضّلالِ وسُبُلِه ، فقد اغترّ بهذه اللذةِ اليسيرة ، في تلك المّدة القصيرة ، واستمرّ سكران ، في ميدانِ العصْيان ، من خمرةِ الطغيان ، وتردَّي لباسَ

---

(1)سورة فصلت ، الآية : ٣٠.

الـرَّدى: "أولئـكَ الـذينَ اشْـتَرَوْا الضـلاَلَة بالهَـدي" فانهـدمتْ عمـارتُهم ، ولا ربحـتْ تجـارتُهم، حتـى إذا جـاءه الوقتُ المعلـوم ، ونـزل بـه الأجَلُ المحتـوم ، ونظـر أمـام ، وتراءت له الأعلام، (وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ *فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ *وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ) [1] ، نزل من دارِ الغرور ، إلى دارِ الشّرور ، فَنَدِمَ ولا ينفعُه النَّدم ، وقد زلّت به القَدمَ ، فخابَ مآبا، وقال (يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً) [2].

فانظروا يا أولادي ، وعُدّتي وعَتادي ، حَالَ الفريقيْن ، وتأملُوا ما للطائفْين، فقد بذلتُ في النصيحة جُهدي ، وأستخلفُ الله عليكْم مِن بعدي ، فقال أكبْر ولِده وهو لِسْلك محاسِنهِم واسطةُ عِقْدِهم : جزي اللهُ مولانا عن شفقتهِ خيراً ، أولاه على حُسْنِ النصيحةِ أجراً وذخراً ، فَلَقَدْ أحْيَيْت قلوباً بِزَواهر حكمِك ، وشنّفتَ أَسْماعاً بجواهرِ كَلِمِك ، ولكن أخوتي وإنْ كانوا من أُولى العلْم ، وأربابِ النباهةِ والحلْمِ ، والعقلِ الغزيرِ ، والفضلِ الجمِّ الكثير ، والرأي المصيبِ المنير ، غير أن حِدَّةَ الشبابِ عليهم غالِبة ، ودواعي النفسِ بشهواتِها مطالبة ، لاسّيما إنْ حَصلوا على ملكٍ عريض وكَرَعوا من ألبانِه المْحض والمخيض ، فإنْ اتّفَقَ مع ذلك ، موافقٌ منافق ، أو صاحبٌ ممارقٌ ، أو صديقٌ خدوعٌ ، أو مباطنٌ مكارٌ هلوعٌ ، أضلّهم عن سَواء السبيل، وصار إلى طريق المخالفة أوضحَ دليل ، فتتحوّل صداقتُنا عدواة ، وتتبدّلُ فيها بالمرارةِ الحلاوة ، فينتزعُ الرخاء ، ويتمزّغُ الإخاء، ويبغي بعضُنا على بعض ، وتعودُ الأُخوَّةُ على موضِعِها بالنقض ويتوّلدُ من ذلك الفتن ، ويظهرُ من العداوةِ ما يَظُن ، فالرأيُ عندي أنه ما دامَ زمامُ التصّرفِ في الإمكان، يتصّرفُ مولانا السلطان على مقدار جُهدِه ، في مصلحةِ عبدِه ، بحيث لا أكونَ مُضْغَةً للسامع ، ومَشْغَلَةً لكلِّ فارغ ، ولا يُسلّمني لأسبابِ الحوادث، ومخاليبِ الدهرِ الكوارث" [3] .

هذه الصورة دلالتها التفكر والاعتبار في هذه الحياة الإنسانية منفعة للنفس البشرية لعبادة الله سبحانه وتعالي دعم ابن عربشاه مستوي الصورة الفنية عن طريق

([1])سورة الواقعة ، الآية : ٩٢-٩٤.

([2])سورة النبأ ، الآية : ٤٠.

([3])فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، ص ٨٨ – ٩٨.

المجازات في الباب الثالث الذي جاء بعنوان: في حكم ملك الأتراك مع ختنه الزاهد شيخ النساك[١] :

وفي هذا الباب يروي الشيخ أبو المحاسن حسان أن الحكيم حسيب وهو الذي قام بتأليف هذه القصص أنه قام بتقبيل أخاه الملك وقام بسرد الكثير من الأمثال والحكم على لسان ملك الأتراك في قديم الزمان وكان يسمس خاقان دانت له البلاد واستكانت وكانت له ابنة واحدة كثر حولها الخاطبون والمهجبون وكان خاقان والدها ذو فطنة وذكاء فقام بإرشادها إلى حسن الاختيار وأفاض في ذكر محاسن من ينبغي ان يكون زوجاً لها وشرع هذا الملك في طلب هذا الموضوع بهذه الصفات فأورد العديد للبحث في البلاد عن هذا الزاهد الذي ينبغي أن يكون مفواً لابنته حتى يوافق شن طبقة وفي خاتمة البحث وجدوا هذا الختن الزاهد العابد كأنه محمد بن الحسن أو إبراهيم بن الأدهم فصاهره الملك وأصبح زوجا لابنته وغادر بها البلاد وبعد فترة قرر الملك زيارة ابنته فوجدها في أحسن حال لكنها شكت له قلة الديار وضيق المكان بحيث لا يتسع للعبادة والثاث فطلب الملك من الزوج أن يخصص له مكانا للعبادة فرفض الزوج هذا الانقسام واختار ذات المكان بضرورة عدم الاشتغال بما هو إلى زوال فكان رد الملك بأن له المال الكثير وعليه أن يتفرغ للعبادة فرفض الزوج هذا القرا فيكون ذلك الحريص على الدنيا وملذاتها فأورد له:

(١) قصة اخبار اللصوص الثلاثة[٢]

وفيها نصح الزوج الملك بأن لا يقتر بهذه الدنيا وعندئذ أمر الملك بأن تنشر هذه على الملأ ليكون حال زوج ابنته حال كم يطلب السعادة الأبدية الكرامة السرمدية.

هذا الباب يبين فيه الدور الإيجابي للمرأة في سردية خطابه ، والتي أوردها من خلال المجازات والتشبيهات التي دلالتها إبراز الصورة الذهنية ، للزهد الصالح عن طريق التمثيل " فما فرعه قدامة من ائتلاف اللفظ مع المعني ، وقال : هو أن يرد المتكلم معني فلا يدل عليه بلفظه الموضوع له ، ولا بلفظ قريب من لفظه ، وإنما

(١)فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، ص ١٣٥ – ١٤٧.

(٢)فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، ص ١٤٢.

يأتي بلفظ هو أبعد من لفظ الإرداف قليلا ، يصلح أن يكون مثالا للفظ المعني المراد" [1] مثل الذي يريده ابن عربشاه بأن يصور الزهد الصالح الذي استدعي له شخصية محمد بن الحسن وإبراهيم بن الأدهم فقصد ما يريده عن طريق الحكاية بين الملك وابنته في كيفية أن يختار لها الزوج الصالح ، كأنّ يريد أن يستدعي شخصية محمد بن الحسن تلميذ أبي حنيفة النعمان أو إبراهيم بن أدهم إلا أنه عدل عن اللفظ في تلك القصة على مستوي الأفعال :

" قالت : بنت الملك ، وذلك لان الكفاءة في الزواج معتبرة ، وقد قرر الفقهاء البررة ، وإنّ لم يكن الزوج للمرأة كفئا ، فزوجها به يقع سخرية وهزوا ، ولا يفيد سوى الغرامة ، والفضيحة والندامة . فقال الملك لا أزوجك إلاّ بكفء كريم يكون لك أدنى خديم ، وفي الناس أعلى مقام عظيم .

قالت: يا مولانا الملك ، وقاكَ الله شرَّ المنهمك ، لا تحملْ اعتراضي على الإساءة ، وإنما أسْال عن كيفية الكفاءة ، فإنْ كانتْ بالمُلْكِ والمال ، فإنّ ذلك في معرض الزوال ، وإنْ كانت بأنشاب الأنسابِ ، فإنّ ذلك خطأُ لا صواب. قال مُنَزِّلُ الكتاب ، العزيزُ الوهاب: (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ)[2] ، وقال مَنْ لا يجوز عليه كذب (من أبطأَ به عملُه لم يسرعْ به نسبُهْ) وإنّما الفقهاءُ حكموا بالظاهر ، والله يتولّى السَّرائر ، ونحن في قيدِ الانقياد ، ولا يسعنُا إلاّ ما أمرَ به الشرعُ وأراد ، وأما أنا فَكُفئْيِ الكريم ، إنما هو الكاملُ الحليم ، الفاضلُ الرحيمُ.

قال الملك : بارك الله في رأيكِ وعقلكِ ، أنا لا أُزوجك إلا بملكِ مثلكِ ، أو ابنِ ملكِ مثل أبيك ، يرعاكِ ويكرمُ خدمَكِ وذويك ، يعِدلُ بالسّوية ، ويحكمُ على سائر الرعية ، قالت: أيها الملكُ الكبير ، صاحبَ التاج والسرير ، أنا ما أُعرِّفُ الملكَ إلاَ مَنْ يُعْرَفَّ بُملْكِ الحُكْمِ على نفسِه في سيْره ، ويكوْن مُتحكْماً مُتمكناّ من الحْكُمِ على غيره ، فيحقُّ أنّ يقال ، في مُلْكِه ذي الجلال ، خلْد الله سلطانَه ، وشيَّدَ أركانَ مُلْكِهِ وبُنْيانه. قال الملك : ومَنْ هو ذاك ، باركَ الله فيك وهداك ؟ قالت: أمّا **الحاكمُ على**

([1])تحرير التحبير لابن الأصبع المصر تحقيق الدكتور حفني محمد شرف ، ١٩٩٥ن ، ١٤١٣هـ ، ص ٢١٤.

([2]) سورة المؤمنون، الآية ١٠١.

نفسِه ، فهو المالكُ لزمامِ جوارحه وحسِه ، قد جعَل خزائنَ القلب والسمع ، معدناً لجواهرِ العقلِ والشرعِ ، فمهما اقتضاه العقل أمْضاه ، وعمَلَ بمقتضاه ، وما ارتضاه الشرعُ وقضاه ، كان فيه انقيادُه ورضاه ، قد تحلّى بعقودِ مكارمِ الأخلاقِ ، ولو كان في أسمال أخلاق وشغل نفسَه بتهذيبها ، واجتهد في خلاصها من شرَك عيوبها ، واهتَّم بعيوبِه ، عن بعيدِه وقريبه ، وبغيضِه وحبيبِه ، فذلك الحاكمُ على نفسه ، المميّزُ على أبناء جنسه ، وأمّا حُكْمُه على غيره ، فهو أن يكون في سلوكِه وسيرِه ، منعزلاً عن الناسِ ، في زوايا البأس ، لا يسْألُ عن أحوالِهم وعيوبهم ، ولا ينظرْ إلى ما تَحتَ أيديهم وجيوبهم ، مالكاً لزمامِ العزلةِ ، مُتنُعماً بهذه النعمةِ الجَزْلة ، قد اتخذ التّقْوى والقناعة ، أحسنَ حرفةِ وأربحَ بضاعة ، قد سَلِمَ الناسُ من يدِه ولسانِه ، لا يدري بشأنه ولا يدرون بشأنه ، فذلك الحاكمُ على غيره ، الفائزُ من ملك الداريْن بخيره ، فهو الذي خُلْد مُلْكُه وسلطانُه ، واتضَح للعالمين بُرهانَه ، **فإنْ وُجدَ بهذه الصفاتِ موافي ، فإنه لي كُفءٌ مكافي ،** وأنه كالبدرِ جَليّ ، نقيِّ الصدرِ لله وَليّ ، فإذا أنعمَ الزمانُ بمثلِ هذا منالاً ، فَنِعْمَ نِعْمَ وإلاّ فَلاَ لا.

فجعل ملكُ الخِتن ، يتطلب مثل هذا الختن ، وأرسل القُصّاد ، إلى أطرافِ البلاد ، يسألونَ سُكّانَ الأكناف ، وقُطّان الأطراف ، عن موصوفٍ بهذه الأوصاف، استمروا على ذلك مُدْة ، كلٌّ باذلٌ جُهْدَه حتى أرشدوا بعدَ زمان ، **أن المكانَ الفلانّي فيه فلان ، رجلٌ أعْرض عن العَرَض ، فلم يكنْ له في الدنيا غَرَض وهو بحسنِ الصفاتِ موصوف ، وفي كوخِ العبادةِ والاجتهادِ معروف ، جامعٌ لهذه الصفات ، ليس له إلى الدنيا وأهلِها التفات ، مشغولٌ باكتسابِ الآخرة، وطلبِ نعْمَتِها الفاخرة ، وهو من نَسْل الملوك ، وقد تركَ ورائهم السلوك ، وسلكَ في العلم والعمل السبيلَ الأقوم ، حتى كأنه محمدُ ابنُ الحسن أو إبراهيم ابنُ أدهم ، ولشدُة ما هو لنفسِه مجاهد ، سماه الناس الملكَ الزاهد ، فأجمع الخاقانُ على مصاهرته ، وجعل**

التقرَّبَ إليه قُربةٌ لأخرته ، فأخبر ابنَته به ، وكان جلَّ مطلوِبها ومطلوبه ، وعُقِدَ بينهم النكاح ، وحَصَلَ الفلاحُ والصلاحُ ، (فوافق شن طبقه) [1] **، وصار لعينِ مِرامها كالحدقَةَ ، ومضى على ذلك برهة ، وهما في طيبٍ عيشٍ ونزهةٍ)**[2].

فمحمد بن الحسن[3] ت(١٨٩هـ) تلميذ الإمام أبي حنيفة النعمان إمام إبراهيم بن أدهم ، من زهاد القرن الثالث الهجري والذي يقول عنه " إبراهيم بن بشار :

(وسمعت إبراهيم ابن أدهم يقول هذا كثيراً وكان مدمناً:

لما تؤذن الدنيا به من شرورها	يكون بكاء الطفل ساعة يوضع
وإلاّ فما يبكيه منها وإنها	لأفسح مما كان فيه وأوسع
إذا ابصر الدنيا استهل كأنه	يرى ما سيلقى من أذاها ويسمع" [4]

– ويقول فيه :

مر إبراهيم بن أدهم في أسواق البصرة فاجتمع الناس إليه فقالوا : يا أبا إسحاق إنّ الله تعالى يقول في كتابه (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) ، وعندما ندعوه دهراً لا يستجيب لنا ، **فقال ابراهيم** : يا أهل البصرة ماتت قلوبكم في عشرة أشياء:

أولها : عرفتم الله ولم تؤدوا حقه.

والثاني : قرأتم كتاب الله ولم تعملوا به .

والثالث : ادعيتم حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركتم سنته .

والرابع : ادعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه .

والخامس : قلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها .

والسادس : قلتم نخاف النار ورهنتم أنفسكم بها .

---

(١) مجمع الأمثال للميداني ، أبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري ، منشورات دار الحياة ، بيروت ، ج٢ ، ١٩٦٢م ، ص ٤١٥ – ٤١٦.

(٢) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، ص ١٣٧–١٣٩.

(٣)ينظر حاشية رد المختار لخاتمة المحققين ، محمد أمين الشهير بابن عابدين على الدر المختار شرح تنوير افبصار في فقه مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان ، ج ٣ ، ١٩٨٤م ، ، ص ٤٨ .

(٤) ديوان ابن الرومي ، شرح وتحقيق عبد الأمير مهنا ، ج٤ ، ص ١٩٢.

والسابع : قلتم إن الموت حق ولم تستعدوا له .
والثامن : اشتغلتم بعيوب إخوانكم ونبذتم عيونكم .
والتاسع ، أكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها.
والعاشر : دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم " [١].

وهو الذي عنه قال مؤلف كتاب "حلية الأولياء" هو إبراهيم بن أدهم:

"**الحازم الأحزم ، والغارم الألزم ، أيد بالمعارف فوجد ، وأمد بالملاطفة فعبد ، كان عن المقطوع والمرزول وبالمرفوع الموصول متشاغلا ، مشرع نهجه الرسول صلي الله عليه وسلم ، ألف الميمون الموصول ، وخالف المضون المخذول ، وقيل أن التصوف التكرم ، والتظرف والتقسم والتنظف**" [٢].

المبحث الثاني: الحجاج الأسلوبي على مستوي التركيب

جاء به في كتابه في الباب الثامن على مستوي الأقوال والأفعال والسرد وعلى الرغم إنه أكثر فيه من حكايات كيد النساء إلا انه اراد أن يبين بها مقصد ما يحمله من دلالة من وراء هذه القصص المحورية التي ذكرها ، بالدور الكبير لقصص كيد النساء ، في سردية خطابه الفني ، ليبين لنا هدف قوله من هذا الكتاب بأنه يريد به "التفكر والتفكه في آن واحد" لاسيما في الباب الثامن الذي جاء بعنوان:

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، الإمام الحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الصفهاني الشافعي ، ت ٤٣٠هـ ، دراسة وتحقيق مصطفي عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، م ٨ ، ص ٤٢٦.
(٢) المصدر السابق ، ص ١٦.

في حكم الأسد الزاهد وأمثال الجمل الشارد(١):

قال الشيخ أبو المحاسن : بعد أن انتهي الحكيم حسيب من حكاية الأسد الرئبال والفيل ابا دغفل وبعد أن علم الملك ما جري أمر في البلاد الانصياع لوامر ما تريد القصة قوله من عاقبة الظلم وغساءة الجار لجاره والعمل على تدميره.

ثم أراد الحكيم الزيادة في إبانة عاقبة الظلم والخيانة فأورد حكاية الأسد الزاهد وأمثال الجمل الشارد فقال : إنه بلغني أنه في بعض الأزمان كان هنالك أسد اقسم على أن لا يقرب اللحوم ويكون زاهداً فيها ويأمر بالعدل والإحسان ، إلى كل الحيوانات ، وكانت بجانبه حديقة ، يأوي إليها طلبا للاستجمام ، وبينما هو هنالك ، أقبل عليه دب ، طلب منه أنْ يكون من خدامه ، فوافق الأسد على ذلك ، بينما هم في تجوالهم ، التقي بهم جمل ضل الطريق ، فبادر جماعة الأسد إلى إفتراسه ، ولكن نهاهم الأسد عن ذلك ، فربما يكون خير صديق ، فذكر لهم قصة :

(١) قصة كسري مع الأعور(٢) :

والذي صادفه ذات صباح – أي كسرى – رجلاً أعور تعوذ منه كسرى ، ولم يتفاءل بأنه قد تصبح به ، فأمر بضربه ، وسار في طريقه ، فكان يومه حافلاً بالخيرات وفي طريق العودة ، التقي به الرجل الأعور ، وسأله كيف كان يومك ، فشرح له بأنه في أحسن حال ، فعاتبه الرجل الأعور على إهانته له ، لأنه قد تصبح به ولم يكن في يومه ما يسوء فكيف به وقد تصبح به.

فأورد الأسد هذه الحكاية خوفاً من أنْ يكون يوم الجمل، غير جميل لأنه تصبح به ، فأمر بإكرام الجمل ، وصارت بينه وبين الأسد صداقة ، ولكن الدب في نفسه الحسد فأراد التفريق بينهما ، فأوغر إلى الجمل بأن الأسد لم يصادقه إلا طمعا في لحمه ، وأكله ولكن الجمل كان صادقاً في عدم شكه بالأسد ، ولكن اعتراه القلق ، فلاحظ الأسد تبدل أحواله ، فأوعز للدب ، معرفة حال الجمل ، وانتهز الدب هذه الفرصة للوقيعة بينهما ، فأوعز للأسد ، بأن الجمل يخاف افتراسه من جهته. فيتبدل لذلك حال الأسد تجاه الجمل ويطلب المشورة ليكشف له الأصدقاء بأن هذه دسيسة

(١) ينظر فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، الباب الثامن ، ص ٤٠٥ – ٤٤١.

(٢) ينظر فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، الباب الثامن ، ص ٤٠٥ – ٤٠٩.

وخيانة وحسد من الدب لكي يفرقه عن الجمل الصادق. وعندئذ يأمر الأسد بوقوع العقوبة على الدب ، بأن يتم تقطيع جسده ، وإحراقه وسكب رماد جسده في الهواء.

ولقد احتوي هذا البيان حتى انكشفت حقيقة الدب الخائن ، وصدق الجمل الصادق عدداً من القصص وهي كالآتي :

(١) قصة كسرى مع الأعور [١].

(٢) قصة الحائك مع الحية [٢].

(٣) قصة الصياد والثعبان [٣].

(٤) قصة الفلاح والذئب [٤].

(٥) قصة إمرأة النجار [٥].

(٦) قصة كسرى مع ولده وأمه [٦].

وجاءت خصائص اسلوب ابن عربشاه في حجاجه الأسلوبي على مستوي التركيب في القصة ...

الأسلوبية التعبيرية لابن عربشاه في تصوير قيمة المكر والحقد للدب :

قد أرتبك الحمل وقد أثْر فيه مَكَرهُ ودخل من الحاسد الدب لعدم اللب وكم "عَزَمَ بمكره على إلقائِه في الجُبّ ، واشتد بذلك البرم إلى أكل الجمل القرم . فأخذ يضرب أخماساً لأسداس . عندما . احتوشته في قضيته ، لسوء طويته القلقُ والوسَواس ، فلم ير أوفق من إفساد صورتِهِ ، وإظهارِ سوءِ سريرته ، فيهلكُه ويكيُده ويبيدُه ،

---

(١) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، الباب الثامن ، ص ٤٠٧ – ٤٠٩.

(٢) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، الباب الثامن ، ص ٤١٢– ٤١٧.

(٣) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، الباب الثامن ، ص ٤١٨ – ٤١٩.

(٤) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، الباب الثامن ، ص ٤٢٠ – ٤٢١.

(٥) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، الباب الثامن ، ص ٤٢٩ – ٤٣١.

(٦) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، الباب الثان ، ص ٤٣٣ – ٤٣٦.

فيصلُ منه إلى ما يريده ، ويثمرُ بمكرِهِ الحسد ، ويصلح من شرهه ما فَسدَ ، ويروجُ منه ما كَسدَ ، فأديّ فكرُه إلى أنْ يُغْرِي به الأسد" [١].

الدب على مستوي الأقوال :

بانت أسلوبية النص على لسان الدب ، بدلالة الغرض الأصلي من إلقاء الخبر – بحيث – يلقي الخبر في الأساس لواحد من غرضين :

الأول : إنّ المتكلم يريد إفادة المخاطب بالحكم الذي يضعه لأنه يجهله ، وهذا الحكم يسمي فائدة الخبر مثل قولنا (كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفرق بين الحق والباطل فسمي الفاروق). **والغرض الثاني** : إنّ المتكلم لا يريد إفادة المخاطب أحكاماً أو معلومات يتضمنها الكلام لأن ذلك معلوم لديه قبل علم المتكلم به لكن المتكلم يريد أن يبين للسامع علمه بما يتضمنه الكلام فالسامع يستفيد فقط من الكلام ، وبأن المتكلم يعلم بالحكم ويسمي ذلك لازم الفائدة[٢] القيمة الأسلوبية لابن عربشاه تبرز في سردية خطابه الفني على **لسان الدب** عندما قال: (تعلمْ أيّها الصديقُ المبين ، إن مَلِكَنا في غايةِ العفّةِ والدين، وأعلي درجاتِ العبادِ والزاهدين ، قد فَطَمَ نفسه عن الطعوم، خصوصاً عن الدماء واللحوم ، ولكنه في ذلك كلّه غيرُ معصوم ، فإنُه قد تربّي بِلَحْمِ الحيوان ، وتغذّى بافتراس الأقران ، وتعوَّد رضع الدماء ، وقُطعتْ سُرتَّه على هذا الغذاء ، وَتَزَهُّدُه إنّما هو تَكُلّف ، وتعسُّفْ وتصلُّف وتعُّفُفُه مُكابرة ، وَتورُّعُهُ مُصابرة ، ولأُبدّ للنفس أنّ تفعل خاصيَّتَها ، وتجذَب شهواتُها إليها ناصِيتَها ، وتطمح إلى مآزرِها ، وتجمَح إلى مركزها[٣] ، وقال الله تعالي (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)[٤].

القيمة الأسلوبية التعبيرية من الدب للجمل على مستوى الأفعال :

---

(١)فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء – ص ٤٠٩.

(٢)فصول من البلاغة والنقد الأدبي – تأليف الدكتور إسماعيل الصيفي – د.حسن محسن – د.صلاح الدين حسن – د.عز الدين الجزولي – د.عبد الرحمن سالم – مكتبة الفلاح – الكويت ط١ – ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م – اختلاف أساليب الكلام باختلاف أغراضه – د. عز الدين الجزولي – الفصل السادس – ص ١٣٦.

(٣)فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء – ص

(٤)سورة الروم ، الآية ٣٠.

إن الخبر قد يخرج في أغراضه ، لاعتبارات في الكلام تتطلبه مخالفة ما يقتضيه ظاهره ، قد يلقى مؤكداً بخلاف ما يقتضيه الظاهر، من عدم التوكيد : أما لأنّ الخبر يأتي في الكلام مسبوقا بما يشير إليه حكمته ، فيصبح المخاطب خالي الذهن بمنزلة السائل المتردد ، وإما لأنّ في الكلام ما يفيد بأن المخاطب غير المنكر أصبح كالمنكر(١). كما جاءت به الأسلوبية التعبيرية لابن عربشاه على لسان الدب للجمل حين يقول: (فإنّك في صحبةِ الأسدِ على خطرٍ عظيمٍ . وخطب جسيم **فلا تغفل عَمّا قلتُ لك وَلاَ تَظُنَّن انه لن يقتلَك.** يا أخي فأيُّ ضرورةٍ دعتْ الأسدَ الغشوم، حتى تعفف عن أكل اللحوم ؟ قال : أنا لا أشُكُّ في دينه ، ولا أرتابُ في حُسْنِ يقينه، ولكنْ ربما تعودُ المياهُ إلى مجاريها ، وتُعطي القوسَ باريها، وتتحرّكُ النفسُ الأبية ، والشهوةُ التى لطالما ألقتْ صاحبها في بلية ، لأنّ الإنسان، بل سائر الحيوان ، على ما يقتضيه الكونُ والمكان ، دائر مع اختلاف أخلاق الزمان ، فإنّ الزمان كالوعاء ، والشخص فيه كالماء ، فيعطيه من أخلاقه ما يقتضيه ، من كدره وصفائه ، ولهذا قيل: (لونُ الماءِ لونُ إنائه) وقد قيل (الناسُ بزمانهم ، أشبهُ منه بآبائِهم) وناهيك يا ذا الكرامات ، ما قيل في المقامات.

ولما تَعَامى الدّهْرُ وهَوَ أبوَ الوَرَى * عن الرُّشدِ في أنْحائِه ومقاصِده
تَعَامْيَتُ حتى قيلَ إنّي أخْو عَمَي * ولا غَرُوَ أنْ يحذو الفتى حَّذْوْ وَالِده

والأسدُ في هذا الأوان ،

ماشٍ على ما يقتضيه الزمان ،

وإنَّ الزمانَ يتحوّل ،

وسيرجعُ الأسدُ خُلُقه الأوّل (٢).

القيمة الأسلوبية الأدبية للدب للجمل على مستويات السرد:

---

(١)فصول من البلاغة والنقد الأدبي ، مرجع سابق ، ص ١٣٩- ١٤٠.

(٢)فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، ص ٤١١ – ٤١٢.

التي تبين الأمثال بان تصور مجري الحدث بين الدب والجمل . دفع بالدلالة السريعة إلى ابلغ مراد لها التعبيرية وذلك – القيمة الأسلوبية لابن عربشاه الوصاف جاءت بمستوي– تعبيراً موحياً بالدلالة ، إيحاء أبتعد بها عن أي رغبة في الحسم أو التصريح (١). وجاء حبك النص في القصة المحورية ، هي في الوقت نفسه قصة اطارية للباب الذي وردت فيه وتكون بمثابة مثال على مستوي السرد الحكائي.

قال الدب للجمل : أما بلغك يا ذا الفطنة الحية ، قصة الحائل مع الحية ، قال لا ورب البرية ، فاخبرني عن كيفية تلك القضية.

قصة الحائك مع الحية :

قال الدبُّ الأفّاك ، ذُكر أنّ حائكاً من الحيّاك ، كانت لهُ زوجةٌ تخجلُ شمسَ الأفلاك ، صورتُها مليحة ، وسيرتُها قبيحة ، فشمَّ زوجُها روائح ، ما هي عليه من القبائحِ ، وخاف أن يوديّ إلى الفضيحة ، فطلب تحقيق ذلك ، ليوصلَها إلى المهالك. فقال لها : أريدُ ضيعة ، لأجلِ بيعة ، فأغيبُ أياماً يسيرة ، لفائدةٍ كثيرة ، فأرْصُدِي بابَك ، أسْدُلي حجابَك ، واحفظي من الشرِّ جنابَك. فقالت : بيتٌ أنتَ رئيسُه ومثلي قعيدتُه وعروسُه ، أَنى يحومُ حولَه فساد ؟ فأدرِكْ سوقَك قبلَ الكساد، وجهزتُه أسرعَ جهاز ، كالمتوجُه إلى الحجاز ، فسافرَ مِنْ غير مريَّة . ثم رجع إلى البيتِ في خفية ، واختبأ تَحتَ السرير ، لينظرَ مالا يجري من الأمور . فبادرتْ إلى النارِ ونفخت ، وأسرعت إلي الطعام وطبخت ، وخرجت تدعو مرامَها ، وقد هيأت طعامها ، فخرج زوجُها من المخبأ ، وأتى علي الطعام المُهّيأ، ورجع إلى مكانِه ونام ، بعد أكلِه الطعام ، فجاءت المرأةُ بحريفها وقصدت الطعامَ لمضيفها ، فصادفت يدُها الحصير ، فعرفت أن البلاءَ تحت السرير ، وأخذت تطلبُ المخْلَص ، من ذلك المقنص .

وأتفق أنَّ الملكَ رأي مناماً هاله ، ولكنْ نَسِيَ هيئتَه وحاله ، فقصدً مَنْ يخُبره برؤياه ويعبرها له ، فنادي في الورى يطلبُ لمنامه مخبراً ومعبراً.

---

(١)تحليل النصوص الأدبية – قراءات نقدية في النثر والشعر – عبد الله إبراهيم – صالح هديوي – دار الكتاب الجديد المتحدة – الطبعة الأولى – ١٩٩٨م – ص ٧٥.

فبينما تلك الفاجرة على حيلة الخلاص دائرة ، وفي بحر الأفكارِ حائرة ، سمعت المنادي في كل نادي .. مَنْ يَدُلُّ الملَكَ الهمامَ على معبر المنام ، فله مزيُد الإكرام ، والإنعامُ العام ، فسارعْت المرأة إلى بابِ الأمير ، وقالت : وقد سقطت عن الخبير ، أن لي زوجاً حكيماً ، بتعبير المنامِات عليماً ، لكنه يتعزّر ، وعن تعبيرها يتحرّز ، ولا يفوه بالتعبير ، إلاّ بعد ضربٍ كثير ، إنُّه ليس له في ذلك نظيرَ.

فأرسل وراءَه ، وأكرم لقاءَه ، ثم قال له : بعد إكرام أوصله ، ووعده بإنعامٍ وَصِلَة : رأيتُ مناماً راعَني ، وفي الحَّيرةِ والفكرِ أضاعني فَدَعْ عنك الاحتشام ، وأخبرْني عن ذاك المنام ، ثمّ عَبّرْه لي ، فقد أُخْبِرْتُ إنّك حبيبٌ للهِ ولي. فقال : يا مولانا الملك ، أنا في الجهلِ منهمك ، حائكٌ فقيرٌ ، ليس لي من العلمِ نقير ، ولقد كَذَبَ عليّ ، مَنْ نَسَبَ العِلْمَ إليّ ، والعينُ تعرف العين ، أنا مِن أين وتعبير الرؤيا من أين؟! فما صدّقه ، ولا في كلام استوثقه ، وصدّقَ قولَ المرأةِ فيه وأمرَ بإيصاله ما يثنيه ، ثمّ طلبَ المقارعِ ، وشدُّو منُه الاكارعِ ، وضربوه ضرباً أعسفه، إلى أنْ كاد يتلفّه ، فنادي : الأمانَ ، أمهلني ثلاثَة أيام من الزمان ، فتركوه وأمهلوه ، وقَيَدوه أطلقوه. فصار يدورُ في الخرائب ، ويتضرّعُ تضرّعَ التائب. ففي ثالثِ الأيام ، وقد أيقنَ بحلولِ الحِمام ، دخل إلى مكانٍ خرابٍ ، وأخذ في البكاءِ والانتحاب ، فنادته حيّةٌ من الشقوق : مالَكَ تنتحبُ يا ذا العقوق ؟ فأخبرها بحاله ، وما جري عليه من نكاله . فقالت : ماذا تجعل لي من الأنعام ، إذا أخبرتك بما رآه الملك في المنام ، ثم فضضتُ عن تعبيره مسكَ الختام ؟ قال : أكونُ لكِ عبداً وصيفا ، وأعطيك مما أُعْطَى نصيفا. قالت : إنّ الملكَ رأي في منامِه ، إن الجوَّ يمطرُ من غَمامة ، أسُوُداً ونموراً وفُهوداً وببور ، وان السماءَ في ذلك تمور، وتعبيرُ هذا المنام ، والله العلاّم ، انه يظهرُ في هذا العام ، للملكِ أعداءّ كواسر ، وحسَّادٌ جواسِر ، يقصدون هلكَه ، ويريدون ملكَه ، وسيطفئُ نارَ كيدهم بمياهِ سيوفه ، ويسقيهم من رحيقِ فتوحه ، كاساتِ حتوفه. فكشفتْ غُمَّته ، ثم أصلحَ لباسَه وعِمَّته ، وقصدَ بابَ المَلك ونادي غيرَ مرتبك ، وذكر المنامَ وعبرَه ، وعدَ السلطانَ بالنصرِ وبَشرَّه. فتذكْرَ المنامَ وحققَّه ، واعتمد عليه وصدقَّه. وأمر له بألفِ دينار ، وصار له عند الملكِ بذلك اعتبار. فأخذ الذهبَ مجبوراً ، وانقلب إلى أهلهِ مسروراً ، ثم افتكر ما اشترطه مع الحيّة ،

فأبتْ عن الوفاءِ نفسُه الشقية ، وخاف أنْ تطالبهَ بحصتّها ، أو تفضحَه بقصتّها ، فلم يرَ أوفق من قتلِها ، وسدّ ذريعة سبلِها ، فأخذ عصا ، ورام بذلك مخلصا ، وقصد مأواها ، ووقف فناداها، فخرجتْ مسرعةٌ إليه ، وأقبلت بالودادِ عليه فرأت العصا بيمينه ، فعلمتْ أنّه ناكثٌ بيمينه ، فولَّت هاربة فضربَها ضربةٍّ خائبة ، لكنه جرحَها ، وعمد إلى نفسِه ففضحَها، وتركَها وذهب ، فائزاً بالذهب.

فاتفق أنّ في العام الثَّاني ، رأي السلطان ، مناماَ أقلقه وعن نومِه أَرقَّه ، ومن شِدةُ أهواله ، محاه الوهم عن لْوحِ خياله ، فدعا المعبّرَ المعهودَ إليه ، وقصَّ حالَه عليه ، وطلب منه صورةَ المنام ، وما يترتْبُ عليه من كلام ، فاستمهله الأيامَ المعدودات ، وقصدَ رئيسَةَ الحيّات ، وناداها عجِلا ، ووقف في مقامِ الاعتذار خَجِلاً. فقالت : أيُّ عذرٍ وأيُّ غدر ، وكيف استحليَّت ما مضي من فعلك وَمَرّ ؟ بأي وجهٍ تقابلني وتخاطب ، وقد قصدتَ عطبي بعد ما خلصتُك من المعاطب ؟ وقابلتُ إحساني بالسوء ، ولكنّ غدرَك بك يُبوء ؟ فقال : عَفَا الله عما سلف ، والصداقةُ بيننا اليومِ تُؤتنَفَ ثم أنشأ أيمْاناً ، إنهُ يبدَّلُ الإساءةَ إحساناً وأنَّهُ لا يخونُ ولا يمين ، فيما يقعُ عليه العهدِ واليمين ، بل يعودُ إلى العهود ، ومهما وقع عليه الاتفاق ، لا يمازُجه خُلْفُ ولا نفاق . فقالت : أريدُ جميعَ الجائزة ، لأكونَ بها فائزة ، ولها حائزة ، فأجابها إلى ما سألت ، وعاهدها علي ذلك فقبلت . وقالت : رأي الإمامُ في هذا المنام، أنّ السماءَ تُمطرُ قِردةً وفيراناً ، وثعالبَ وجرذاناً ، وتعبيرُ هذه الرؤيا ، وكلمةُ الله هي العليا ، أنَّه في هذا العام ، والشهورِ والأيام ، يكثرُ اللصوصُ والعيارون والمكرةُ والطرَّارون ، ويظهرُ في العساكر ، كلُّ حسودٍ ماكرٍ ، وشيطانٌ داعر ، ولكنَّ صولةَ الملِكِ تمحقُهم ، وصواعقَ سيوفِه تصعقُهم. فأسرع إلى السلطانِ وخبرّه بما رآه في منامِه وعبرّه. فقال : بالحقِّ أتيْت ، هذا الذي كنتُ رأيت . ثم أمر لُه بجائزةٍ سنيةٍ، وخلعةٍ بهيةٍ ، فصار في عيشةٍ مرضيةٍ، وحياةٍ هنيةٍ ، وسلك طريقته الدنية ، فلم يلتفت إلى عهوده القوية ، ونبذ عهد الحية الحيية . وقال : يكفيها مني كَفّي عنها ، فلا تطلبُ منّي ولا أطلبُ منها.

ثمّ إنّ السلطانَ رأي في المنام ، في ثالث الأعوام ، مناماً آخرَ ونَسيَه ، فأرسلَ إلى المعبّر فغشيه ، من يَمِّ الهَمَّ ما غشيه ، وسأله عما رآه ، وطلب منه

تعبيرَ رؤياه ، فطلب المَهلةَ كما كان ، أحاط به موجُ الهمَّ من كلُ مكان ، ولم يرَ بُدَّاً من معاودِة الحيّة ، فاتأها وبه من الحياء كيّة ، وناداها بصوتٍ خاشعٍ ، ووقفَ في مقامِ الذليلِ الخاضع . فخرجتْ فرأته ، فزجرتْه وزأرتْه وقالت : يا خائنُ يا كَذاب ، يا ناقضَ العهدِ يا مرتاب ، يا قليلَ الحياء ، يا كثيرَ البذاء ، يا صفيقَ الوجه ، يا حقيقَ النَجْه ، تري بأيّ لسانٍ تخاطبني ، وبأيِّ وجهٍ تقابلني ، وقد ختلتَ وقَتَلْت ، وفعلتَ فِعلتَك التي فعلت ؟ فقال : لم يبقَي للاعتذار مجال ، ولا للاستقالة مقال ، وما ثم طريقُ إلا معاملتُك بالإفضال ، فإنْ أفْضَلْتِ أتممْتِ الإحسان ، وإنْ ارَدَدَتِ فعذرُكِ واضحُ البيان. وهذه المرّةُ الثالثة ، لا تكُنْ يمينُها حانثة ، ولا عهودُها ناكثة ، وأَشْهِدّ لله وكَفَي به شهيداً ، إني بعد لا انقضُ لك عهوداً ، ولا أُحل مما بيننا عقوداً. فقالت : لا أخبرّك بشيء ، إلاّ أنْ تعهدَ إليّ ، أن تعطَيني جميع ما تُعطَي ، وتكفَّ عما وقع منك من الخطأ ، فسمع مقالَها ، وأجاب سؤالَها . فقالت : رأي الملكُ في منامِه ، كأنّ ّ الجوَّ أمطرَ من غمامه ، وأَمْلا الفضاء من خِرافِه وأغنامِه وتعبيرَّ هذا المنام ، أنّهُ يكونُ في هذا العام ، من الخيراتِ والأنعام ، ما يشملُ الخاصَّ والعام ، فتطيبُ الاودَّاء وتتصالحُ الأعداء ، وتطيعُ العصاة ، وتذعنُ البغاة ، ويوافقُ المخالف ، ويكثرُ المحبُّ والموالف، فاحفظّ ما قلتُ لك ، فقد حَلَلْتُ مُشكِلتَك . فتوجّه بصدرٍ منشرحٍ ، وخاطرٍ مطمئنٍ فرحٍ ، وقصَّ المنام ، وعبرَّ ما فيه من الأحلام . فطار الملكُ بالفرح ، وَتمَّ سرورُه وانشرح ، وأمر بالجوائز فصبُّت عليه ، وبالأموالِ فانهالتْ إليه ، فَنَعِمَ بتلكِ العطيّة، والخلعِ السنية ، وقصدَ وكْرَ الحيّة. ثم وقفَ وناداها ، وقدَّم إليها كل ذلك وأعطاها ، وشكر لها إحسانها ، وتحمّل جميلَها وامتنانها. فقالت له الحية : اعلمْ يا أبلمَ ، أنه لا عتبَ عليك ولا ملام ، فيما جنيتَه أولاً من الآثام ، ولا ما ارتكبَته من العداوةِ والمْين ، في العاميْن الأوليْن ، ولا فضلَ لك في هذه السنة ، على ما فعلته من الحسنة ، فإنّ ذَيْنَك العاميْن ، كانا مشتمليْن على قِرَانِ النّحْسيْن ، فكان مُقتضى حالهما فسادَ الزمانَ ، والعداوةَ بين الأصدقاءِ والأخوان ، ووقوعَ البغضاءِ والشرورِ ، والحنثَ والخلْف وقوْلَ الزّور ، فجريْتَ على مقتضاهما ، حسب مرتضاهما ، والناسُ في طباعِهم وأيامِهم ، أشبَه بزمانِهم منهم وآبائهم. وهذا الأوان ، قد انصلحَ الزمان ، واستقام الطالع ، وزال الحسدُ والتقاطع ، واقتضى الزمانُ الصلحَ

والصـلاح ، والموافقـةَ والفـلاح ، فمشيتَ علـى موجبـه ، وتشبثتَ بـذيلِ مذهبـه ، فَخـذْ مَالَكَ وانصرِف به ، وبارك الله لك فيه ، فلا حاجة لي به ، ولا يد لي لتقليبه.

وإنْما أردتُ هذا المثل ، أيّها الجمل ، لتعلمَ أنَ الزمان ، لتقلبّه في الدوران، يدفعُ بين الأصحابِ والأخوان ، ويباينُ بين الأصدقاءِ والخلان. والأسدُ المجتهد، وإنْ كان قد زهد ، وترك من أخلاقه ما عهد ، فيمكنُ عودُه إلى حاله الأولى، فالاحترازُ منه في كل حالٍ أوْلى ، وها أنا قد أخبرتُك ، ومن سوءِ العاقبة حذرتُك[١].

برزت هنا القيمة الأسلوبية لابن عربشاه في مقدرته البلاغية في استخدام المثل كمقدمة منطقية تقوم عليها القصة المحورية.

القيمة الأسلوبية الأدبية للصدق الفني على لسان الجمل للدب :

أولا : علي مستوي الأقوال :

اعلم أيّها الرفيق ، الصديقُ الشقيق ، أن هذا الملكَ أوانا ، وأكرمَ مثوانا ، ولم

نشاهد منه سواء ولا من ظلمه باطنه آنسنا ضوءاً[٢].

ثانياً : علي مستوي الأفعال :

أيها الدب : اخرج هذا الوِسْواس ، من القلبِ والرأسِ ، ولا تبكِ سلفا ، ولا تعجَلْ تلفا ، ولا تّخلعْ الحذاءَ يا ذا الرياضة ، قبل أنْ تصل إلى المخاضَة ، ولا تهتمّ لأمرٍ ما وقع فإن ذلك من شرَّ البدَع [٣].

ثالثاً : علي مستوي السرد قال الجمل للدب أمام الأسد :

فقال الجمل للدب : يا فقيدَ اللبّ ، يا قليلَ النْصَفَة ، وعديمَ المعرفة ، وأنحسَ أفّاك ، وأنجس سفّاك ، وأبخس بَتاك ، أتظنُني خائفاً من كلامِك وخطابِك ، عاجزاً عن ملامِك وجوابِك ؟ أما كَفَي أني قَصَدْتُ سَتْرَ عوارِك ، وإطفاءَ نارِك ؟ ومفتكرّ في تلافِي قضيتِك ، وإخمادِ لهيبِ فتنتِك ، وإهمادِ شرارِ مصيبتِك ، وعلى تقديرِ التسليمِ ، وأني فهمتُ بالكبرِ والأمرِ العظيم ، أكنتُ معك منفرداً ، أم رأيتَ بيننا أحد ، فإنْ كانَ

---

(١)فاكهة الخلفاء ، ص ٤١٢-٤١٧.

(٢)فاكهة الخلفاء – ص ٤١٩.

(٣)فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء – ص ٤٢١.

بيننا أُحد ، فأحضرْه إلى حضرة الأَسد ، فإني أَرضي به وبما بَيَّن ، ولا دافعَ لي فيما يشهدُ به ولا مطعن ، وإن كنتَ أنت وحَدك ، فما منعك عن نُصْحِ الملك وصَدَّك ؟ فأنت إذاً إما خائن وإما مائن ، وهذا أمرٌ محقّقٌ بائِن ، ولولا أيْماني ، التى ربطْتُ بها لساني ، لكْنتُ أظهرتُ البريءَ والجاني ، ولكنَّ تحليفي إلى الكتْمِ والسكوتِ اْلجاني ، وسيظهرُ الله الحقَّ ويفصل ، وللباطلِ صولةٌ ثم يَضْمَحِلَّ. واللهِ مالك مَثَل ، مع المسكين الجمل ، إلاّ امرأة النجّار ، لما أغلقتْ بابَ الدار. قال أبو الحارث الغضوب: أخبرْنا يا أبا أيوب ، كيف كان هذا الحديث، لنطلع على هذا الفعل الخبيث.

قصة امرأة النجار :

قال ذكر رُواة الأُخبار ، أنه كان رَجَلٌ نجار ، لهّ زوجةٌ تُخْجِل الأقمار ، وتكسِفَ شَمْسَ النهار ، كأنها الدنيا تخدعُ ملامحِ صورتها ، وتصرعُ بروائحِ سيرتها. فكانت كلما رقدَ زوجُها وهو تعبان ، انسابت إلى الأخدان ، انسيابَ الثعبان ، فتقضي اللّيْلَ بانشراح ، في عناقٍ وشربِ راح ، إلى أن ينفجرَ الصَباح، ثم تنثني عائدة ، فلا يستيقظ الزوجُ إلا وهي عنده راقدة . فَفَطِنَ في بعضِ الأوقاتِ لِفعِلها ، ورَاقبَ ليلةً خَيَالَ خُتْلِها ، فتراقَدَ في الفِراشِ ، وذهبتْ لطلبِ المعاش ، فنهض ورائها النجار ، وأوصد لَمّا خرجتْ بابَ الدار، واستمرتْ هي وصاحبُها ، وزوجُها مستيقظٌ يراقبها ، فلمّا عادت راجعة ، وجدتْ الأبوابَ مانعة فطرقتْ الباب ، من غير اكتراثٍ واكتئابٍ، فناداها : يا خائنة ، أذهبي حيثُ كنتِ كامنة . فقالت : استْر هذه الذنوب ، فإني من بعدُ أتوب . فقال لها : لا واللهِ الرحمن ، حتى تُفْضَحِي بين الجيران . فقالت : الموتُ أهونُ من الفضيحة ، فاغفرْ لي هذه القبيحة ، وأنا احلفُ يا وَدُود ، باللهِ الربُ المعبود، إني أتوبُ ، ولا أعود ، ثم ألحّتْ عليه ، وتضرّعت لديه ، فلم يفتحْ لها باباً ، ولا ردَّ عليها جواباً ، فقالت : واللهِ اللطيفِ الخبيرِ ، لَئِنْ لم تفتحْ البابَ لأُلْقيَنَّ نفسي في هذا البير ، ولأُرمّينكَ بقتيل ، بين الحقيرِ والجليلِ ، ثم عمدتْ إلى حجرٍ كبيرٍ ، وطرحتْه في تلك البير ، ثم اختفتْ عند الباب ، لتنظرَ ما يبرزُه القضاءُ من الحجابِ. فلمّا سمع زوجُها خَبْطَةَ الحجر ، تصوّر أنها تلك البغيُ فابتدر ، وفتح البابَ والى نحو البئر طَفَر ، ولم يشكّ أنّ تلك البغي ، ألقتْ نفسّها في الطويّ ، فما

وَصَلَ إلى البير ، ذلك الرجلُ الغرير، إلاّ وقد دخلت ، وفي وَسْطِ الدارِ حصلت ، ثم أوصَدتْ الباب ، واستغاثتْ بالجيرانِ والأصحابِ ، وأحكمت الرِتَاج ، وأوقدتْ السُرَاج ، وملأتْ الدنيا بالعياط ، وأخذَتْ في الهياطِ والمياطِ ، فاجتمعَ الجيران ، لينظروا ما هذا الشان . فقالت : هذا الرجلُ الظلاّم ، يتركُني كلَّ ليلةٍ حتى أنام ، ثم يتوجّه إلى الزّوَاني، ويدعني أقاسي القلقّ وأُعاني ، وأتقلّبُ في ارَقِي وأشجانِي. فأخذ الرجلُ يحلفُ باللهِ ذي الجلال ، ويذكرْ للحاضرين حقيقة الحال ، فتارة يصدَّق وأخرى يكذّب ، وهو بين مصدُقٍ منهم ومذبذب ، فلم يزالا في عويلٍ وصياحٍ ، إلى أنْ ظهر تباشيرُ الصباح ، فحضرا إلى القاضي واختصما ، وشهِد بعفةِ الرجلِ الصلَحَاءُ والعُلَمَاء ، واظهرَ الله الحق ، وثبت على المرأةِ الخيانة والفسق ، ولولا ذلك لذهب البريء غلطاً ، وانقلب صوابُ المحقُ الصادقِ خطا.

وإنّما أوردتُ هذا المثل ، لتعلمَ أيها المَلِكُ البطل ، خيانَة الدُّبُ وبراءةَ الجمل. والرجلُ إذا عجزَ عن فِعْل الشجعان ، يتشَبّثُ بحبائلِ الشيطان ويستعملُ مَكْرَ النسوان. ونظيرُ هذا الكَياد ، ما وقع بين صادقِ دمشق وفاسقِ بغداد ، وهي قضايا جليلة الأبواب ، طويلة الذيول والأذناب ، قد دونت في مجلدة لا يسعها هذا الكتاب[١] .

فالقيمة الأسلوبية التعبيرية والأدبية في قوله في نادرة الحكمة مكر النسوان وتشبث بحبائل الشيطان هو بواعث له في عرضه المناظرات بالحجاج الأسلوبي في ثنايا هذا الكتاب لدحض القضايا الطويلة الأذناب وقد جاء بصورة واقعية أن تقوم كل النوادر والأمثال التي قام عليها كتابه فاكهة الخلفاء على دائرة هذه النادرة لاسيما كيد النساء ليريد أن يوصل به أفكاره حيث يشاء ويقول فيه :

وما حز أعناق الرجال سوا النسا * وأي بلاء ما لهن به أبلي
وكم نار أحرقت كبد الورى * ولم يكن مكرهن لها أصلا[٢]

---

(١)فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء – ص ٤٢٩ – ٤٣١ .

(٢) المصدر السابق – ص ١٤٩ – ٢١٧ ، الباب الرابع.

وكل القيم الأسلوبية السابقة اتجاهاتها التعبيرية النفسية والأدبية أخرجها لنا ابن عربشاه بأسلوب الإبداع والإشارة بحيث إن الإشارة (التي عبر عنها قدامة من اختلاف اللفظ مع المعني وشرحه بان قال : هو أن يكون اللفظ القليل مشتملا على المعني الكثير بإيماء أو كلمة تدل عليه) [1] ، كما جاءت أسلوبية ابن عربشاه بحسن الإنجاز في قوله على لسان الجمل الأمين الناصح (نظير هذا الكياد صادق دمشق الذي عرضها من خلال القيم الإنسانية في كتابه في الباب الرابع في الكتاب) [2] باب مباحث علم الإنسان مع عفريت جان الجان الذي أشار إليه بفاسق بغداد.

أي صادق دمشق ، أشار لدعوته التي ختم به كتابه هو منهج الاستقامة على الإيمان والإسلام والتي تمثل منهاج فلسفة ابن عربشاه بان العقل أساس الوعي دالة الحق مدلول الشرع استبدال الباطل في قوله (قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ) [3] . وهذه القضايا الطويلة الأذناب عرضناها ببيان القيمة الأسلوبية والتعبيرية والأدبية والفكرية وخصائص أسلوب ابن عربشاه ومقدرته في حجاجه الأسلوبي بمناهج منهج مثالي على ضوء الاستقامة على الإسلام والإيمان لعلاج قضايا الملل والنحل والفلسفة في قوله (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [4] .

ثم عرض ابن عربشاه انتهاء الحبك على لسان الأسد الذي تحقق من براءة الجمل وخيانة الدب على مستوي الأقوال :

(فلمّا تحقق الليث ما في هذا الأمرِ من صلاحٍ وغيثٍ ، ومَنْ هو الصالح ، من الدبُّ والجملِ والطالح ، أرسل إلى الغرابِ ، وعرض عليه هذا الأمرَ العجاب، وطلب منه الإرشاد ، إلى هَدْمِ ما بناه الدبُّ من الإيقاعِ وشاد ، فقال الرأيُ عندي أن تجمعَ العساكر ، وتنادي للبادي والحاضر، ويحضر الدبُّ والجمل ، ويعرض على الجميع هذا العمل ، فإذا ظهرَ الحق ، وانكشفَ سجاف الباطلِ عن جبينِ الصدق ، وَتَبيَّنَ الظالمُ من المظلومِ، وتعيَّن الصحيحُ من المثلومِ ، يري رأيك السعيدُ ما

(1)عجائب المقدور في نوائب تيمور – ص ٢٠.

(2)فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، باب مباحث علم الإنسان مع عفريت جان الجان – ص ١٤٩ – ٢١٧.

(3)سورة سبأ ، الآية : ٤٩.

(4)سورة الذاريات – الآية ٥٦ .

يقتضيه، ويسلُك ما يأمرُ به ويرتضيه ، ويجري على كلٌّ منهما ما يُحكم بتنفيذه ، ويمضيه بحيث لا يَنتْطِحُ في ذلك عَنْزَان ، ولا يختلفُ عليك فيه اثنان ، فلما كان ثاني يوم ، أمر الأسدُ بجمعِ القوم ، وإحضارِ الجملِ البري ، والدبُ المفتري ، فحضر الكبيرُ والصغيرُ، واجتمع الأميرُ والوزيرُ ، ثم علا الملكُ على السرير، وأثني على اللهِ العليَّ الكبير ، وصلّيّ على البشيرِ النذيرِ ، الشاهدِ السراجِ المنير ، ثم ذَكَرَ ما أهَمَّه، في هذه القضية المغمّة ، **وذكر فضل هذه الأُمة ، وما لها من رقةٍ وجلالةٍ ، وإنها لا تجتمعُ على ضلالة** ، ثم قال : ما تقولون في رفيقيْن ، شقيقيْن صديقيْن ،لم يكُن بينهما سَبَبُ مُكالحِة ، ولا موجبُ منازعةٍ ، ولا معالجة ، سوي المحبةِ ، المليحةِ والممالحةِ ، والمودُّةِ الصافيةِ الصالحةِ ، يبيتان في فراشِ ، ويستعينان على حُسْنِ المعاش ، حَسَدَ أحدُهما رفيقَه، وخان من غيرِ سببٍ صديقَه، وسعي في إراقةِ دمِه ، وعدمِ وجودِه بوجودِ عدمِه ، فماذا يجبُ على هذا الحاسد، المنافقِ ، في عملِه الفاسد ، الطالب ترويجَ باطِله الكاسِد ، وقصدُه ذلك الجمل البري الصالحُ ، الغافلُ السري ، والسعيُ به إلى الحكام ، وإلقائهم بسببه في الثامِ وارتكابِ هذه الجرائم وتحمّلِ مثلِ هذه العظائم)[1].

القيمة الأسلوبية التعبيرية على لسان الأسد عبر مستوي الأفعال:

إن من أكبرِ الكبائرِ قَوْلَ الزُّور، وقد قال ربُّ الكائنات (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [2] وإن مرتكبَه الأثيم، استوجبَ العذابَ الأليم ، ومَنْ هو هذا الجري ، الكذّابُ المفتري ، الذي يرتكبُ مثلَ هذه الأمورِ الهائلة ، والكبائرِ الوخيمةِ القاتلة ، والعظائمِ المؤذيةِ الغائلة، خصوصاً في مثل هذه الدولةِ العادلة ، ولأي شئٍ يؤخّرُ جزاؤه ، ولا يُحسم دواؤه ، ولا يضرَبُ ولا يُشهْرَ ، ولا يؤمرُ بالمعروف في هذا المنكر.

قال الأسد : فاكتبوا بما قلتم محاضِر وليعلِمْ الغائب الحاضر ، حتى إذا وقع الاتفاق بين الأصحاب والرفاق ، وارتفع في ذلك النزاعُ والشقاق ، **واجتمع على**

---

(1)فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء – ص ٤٣٨ –٤٣٩.

(2)سورة النور ، الآية : ٢٣.

ذلك العقلُ والسمع ، فَعَلْنا فيه ما يقتضي السياسةُ والشرع ، فأتبعوا شُروطَهم ، وكتبوا بذلك خُطوطَهم ، فعند ذلك طلبَ الأسدُ أُمَّ راشد ، وأقامها في ذلك المحفلِ الحاشد ، واستنطقها بما تعلم ، واستشهدَها على الدُبِّ بما أجْرم ، فشهدتْ في وجهِه بما سمعت ، وَرَقَمَتْ بذلك خَطْها ووضعَت ، وزكاها الحاضرون وشهدَ بعفّتها وزُهدهِا الناظرون ، واتفقت الكلمة ، من الكلم على صِدقِهُا ، وحقيقةِ نطقِها، فَتَهْلل وَجْهُ الجمل ، بهذا القولِ والعملِ ، وظهرت على صفحاتِ وَجْهِ الدبّ ، العديمِ الدينِ واللبّ ، وعلامةُ الانكسار والفضيحةُ والخسار ، ولم يسعْه إلا انه أُذعن ، واعترف أن لا دافعَ له في الشاهدِ ولا مطعن ، وانه قد أجرم ، وطلب العفو والكرم[1].

القيمة الأسلوبية الأدبية على مستوي السرد على لسان الأسد :

عرضها ملء إحساسنا ابن عربشاه ببلاغة أسلوبه بحد المساواة (قدامة شرحه بان قال : هو أن يكون اللفظ مساويا للمعني حتى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه وهذا من البلاغة التي وصف بها بعض الوصاف بعض البلغاء فقال : كانت ألفاظه قوالب لمعانيه[2].

وجاءت صور ابن عربشاه في وصفه هذه الحادثة وطرحها من خلالها قضايا المكر والخيانة والمكابرة عن الحق ببلاغة مقدرته الأسلوبية في انتهاء الحبك للنص في هذا الباب للأسد الزاهد والجمل الأمين الناصح :

وفعل الجمهور فعند ذلك **غَضِبَ الريبال** ، ولم يبقي للعفوِ مجال ، فَزَأَرَ وَزَفَرَ، وغضب الغضنفر ، وهمّر وزمجرَ ، وتطاير من أشداقِه الزبد ، ومن عينيِه الشّرر ، ومن شمائلِ حركاتِه ، ممضِيات القضاءِ والقدرِ ، **ونعوذُ باللهِ من غضبِ الملوكِ ، خصوصاً على الفقيرِ الصعلوكِ ، ومَنْ أحاطتْ به أوزارُه ، وقلْت أعوانُه وفنيتْ أنصارُه.**

ثم أمر الأسدُ بالدبّ ، أن يُلقي من البلاء في جُبّ ،وأن السباعَ تحتوشُه ، والضباعَ تنوشُه ، ففي الحال ، من غير إهمالٍ ، ولا توانٍ ولا إمهال ، **نهشتّه**

---

(1)فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء – ص ٤٣٩.

(2)تحرير التحبير ، ص ١٩٧.

الـذئاب ، وافترسْـته الكـلاب ، وتخاطفتـه النمـور ، وتناتفتْـه الببـور ، والتقمتْه السباع ، والتهمْته الضباع ، فقطّعوه وبضّعوه ، ووزّعوه ومزّعوه ، وخزّقوه ، وحزّقوه ، وحرّقوه ومرّقوه ، ولم يكتفوا بِعَظْمِه وإهابه ، حتى لَحَسُوا من دمِه يابسَ ترابه ، وكان قدّ اشتدٌ بهم القرم ، فأطفأوا بلحمِه ودمِه بعضَ الضرم ، وزال عن أبى أيوب الضرّ ، وارتفعت منزلةُ ذلك الحرّ ، وضاعف الله تعالي عن براءَةِ ساحتِه أنواعَ الحمْدِ والشكرِ [1] .

وفائدة هذا المثل الجاري بين الدب والجمل ، معرفة فضيلة الأمانة ، ووخامة المكر والخيانة ، فإن الله تعالي غير مضيع أهله ن ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله كما قيل :

لأبناء هذا الدهر في الغدر أسهم وضـرب خيانـات وطعـن مكيـدة
ومـا للفتـي منهـا طريـق سـلامة سـوى تـرس تفـويض لـرب البريـة
وكـل امـرئ رهـن بنيتـه وفـي كفالـة ما ينـوي ومـا فـي العقيـدة [2]

وهذه خصائص أسلوب ابن عربشاه في الحجاج الأسلوبي على مستوي التركيب وقيمة الأسلوبية الأدبية والتعبيرية.

([1]) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، ص ٤٤٠.

([2]) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، ص ٤٤٠.

المبحث الثالث : الحجاج الأسلوبي على مستوي المعجم

جاء ابن عربشاه في الباب التاسع من كتابه بعنوان : في ذكر ملك الطير العقاب[1] والحجلتين الناجيتين من العقاب

قال الشيخ أبو المحاسن: وبعد أن فرغ الحكيم من حكاية الأسد الزاهد والجمل الصادق ، شرع في شكره ، على جزيل الفوائد العظيمة ، من الحكم والأمثال التي جاء بها في معرض قصص الحيوان حتى وصل إلى قصة الأسد والجمل وعندئذ طلب منه أن ينتقل من قصص الحيوان ، إلى إيراد قصص الطيور ، فأبتدأ الحكيم في قصة ملك الطير العُقاب والحجلتين الناجيتين من العِقاب ، فقال الحكيم: بلغني أنه كان في مماليك أذربيجان ، جبل يسامي السماك في السمو ، غزير المياه والأشجار ، كثير النبات والثمار) [2] .

وكما ذكر الحكيم حسيب فإن هذا الجبل سكنه زوجين من الحجل[3] وكان كلما تبدأ فراخهما في النمو ، تأتي جيوش من العقبان ، فتسحق الفراخ تحت أقدامها أو تتلاعب بها الريح فتقع من الشجرة ، فتشاور الزوج من الحجل ، زوجته في الرحيل عن هذا المكان لعل الله يديم لهما الولد في مكان أخر ، ولكن الزوجة

---

(١) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، الباب التاسع ، ص ٤٤٣ - ٥٠٦.

(٢) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، الباب التاسع ، ص ٤٤٤.

(٣) طير في حجم الحمام .. ومنه عدة أنواع

عارضته بأن حب الأوطان من الإيمان ، وأن الولد وإن طال به العمر فهو عارية مردودة ، وما زالا في أخذ ورد في الحوار حتى حسم الزوج أمر النزاع بأن حب الأوطان لا ينفع إذا ما هاجمت عليهم العقبان ، وفقد أحدهما الآخر. وفي نهاية المطاف قررا الرحيل والبعد عن الأوطان فوجدا ملك وجدا في رحابه العيش الهني والرضي ، وإطمئنان البال حيث لا خوف من الفتك والقتال وحمدا الله رب العالمين ، ولقد تضمنت هذه الحكاية عدداً من القصص وهي كالآتي:

(١) قصة المرأة البغدادية مع زوجها وحرفائها الأربعة[١] .

(٢) حكاية الحمار مع الجمل[٢] .

(٣) قصة مالك الحزين والسمكة[٣] .

(٤) حكاية النمس والغراب[٤] .

(٥) قصة الفارس والراجل[٥] .

(٦) حكاية تيمورلنك وغضب الملوك[٦] .

القيمة الأسلوبية للمعجم اللغوي في وصف ابن عربشاه ملك الطيور العقاب وجنوده من حوله " فدعا اليعقوب[٧] ، وتوجه وهو معه مصحوب ، وأخذا في السير، إلى خدمة ملك الطير ، وفرعا[٨]. في جبل ، يسامي في المثل ، قبة الفلك ، أو مركز الملك ، يستمد السحاب من ماء واديه ، وتسبح سماك السماء في بحر ناديه ، يغرق جبين الوهم من صعود عقباته ، ويقصر صاعد الفكر في سلم الهواء عن الترقي إلى أدني درجاته ، ويستريح راقي الخيال في عدة مواضع عند قصده فروع هضباته ، فهو كما قيل :

---

(١) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، الباب التاسع ، ص ٤٤٧.

(٢) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، الباب التاسع ، ص ٤٥٩ - ٤٦٠.

(٣) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، الباب التاسع ، ص ٤٦٤ - ٤٦٦.

(٤) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، الباب التاسع ، ص ٤٧١ - ٤٧٦.

(٥) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، الباب التاسع ، ص ٤٧٥.

(٦) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، الباب التاسع ، ص ٤٨٩ - ٤٩٤.

(٧) النور : الزهر واليعقوب كنية ذكر الحجل.

(٨) فرعا : أخذا طريقا صاعدا.

وطود تلوح الشمس من تحت ذيله إذا هي في كبد السماء استقرت

فلا زالا يسيران ، وفي الجو يطيران ، اليؤيؤ إمام ، قائد الزمام ، والحجل وراءه ينشد هذا الكلام :

لكل إمام أسوة يقتدي به وأنت لأهل المكرمات إمام

فوصلا من تلك المدارج ، إلى أعلى المعارج ، وانتقلا في تلك المسالك ، عن دركات المهالك ، وانتهيا إلى أوج رايا ملكة النيرات(١) جارية في حضيضة ، ودرر الدراري راكدة في قعر مغيضه ، يشتمل على مروج ورياض ، ومراع وغياض ، وبحار وحياض ، تنادي خيراتها سكان الربع المسكون ، انصبابها عليهم ، وفي السماء رزقكم وما توعدون ، رياض تلونت ، ومروج بأزهايرها تحسنت ، وأرض قال لها صانع القدرة إذ تمكنت ، تكوني كأخلاق الكرام فتكونت، وأخذت زخرفها من رضوان خازن الجنان وأزينت، فولجا دار سلطنة العقاب ، بعد مقاساة عقاب العقاب ، كما قيل :

مكاناً فيه سلطان الطيور تصدر بالسرور على السرير
أطاف به صنوف الطير طراً عكوفاً بالحضور وبالحبور
لكل في مباشرة مقام يقوم به جليل أو حقير

قد اكتنفه الميمنة والميسرة ،واحدقت به المقدمة والمؤخرة ، كل واقف في مقامه ، شاهينه مع كركيه وبازيه مع حمامه ، فالأنيس (٢) صاحب العرف والكيس ، حامل القبز كالأوزان ، يترنم في مقابلة الإيوان (٣) ، يمدح ملك الأطيار ، والمراء والحضار ، والكبراء والنظار ، وينشدهم جليل الأوصاف ورقيق الأشعار ، فمما أنشده من الأوزان في مناقب السلطان ، وقد وجه به الخطاب ، إلى العقاب ، قوله:

مقامك أعلي أن يقوم بوصفه بيان بليغ أو لسان فصيح

---

(١) النيرات ، واحده النير : المضيئ ، الحسن اللون المشرق.

(٢) الأنيس : الديك.

(٣) الإيوان ، ومنه غيوان كسرى مجلس كبير على هيئة صُفة واسعة لها سقف محمول من الأمام على عقد ، يجلس فيه كبار القوم وعليه الحضور.

أجلتك عنقا مغرب[١] فاختفت فما تلــوح لطــرف فــي الــبلاد طمــوح

والنسر الطائر المقدم على العساكر. قد أظله بالجناح ، وليس عليه في طلبه سيادة الطير جناح ، رابع اللواء ، صاف في جو السماء ، رئيس الدير حامل القبة[٢] .

والطبر[٣] ، كما قيل :

ونسر تفر الطير من قرب ظله وفــي ظلــه للســعد مــأوي ومنــزل

والسنقر[٤] في ثوبه الفهري ، وخلقه النمري ، أمير سلاح الجوارح ، وراس عساكر السوانح والبوارح ، كما قيل :

هو السنقر العالي بهمتـه التـي تعلت على أيدي الملوك بها يده

والشاهين[٥] الدّوادار[٦] ، عليه لمصالح المملكة المدار ، قد تصدي لقضاء الحوائج، لكل داخل وخارج ، ينظر في الولاية والعزل ، ويتعاطي الأمور بالجد لا بالهزل ، فيقضي المآرب ، ويوصل المطالب إلى الطالب ، كما قيل :

طويل العنق رحب الصدر ضخم لـــه فــي آل قســطنطين ضــبط

تغشــي مــن ســواد العــين ثوبــا عليـــه مـــن دم الأحشـــاء نقـــط

والكركي[٧] ، الراطن بالتركي ، يتجلي في ثوبه السكي كاتب الأسرار وصحب الأخبار ، لسان المملكة ، ومحور الفلكة ، مستخدم السيف والقلم ، وفي لفضائل والفواضل نار على علم ، كما قيل :

وكركـــي يحيـــد الصـــقر عنـــه لهيبـــة بطشـــه وشـــديد بأســـه

---

(١) عنقاء مغرب ، وهي طائر خرافي.

(٢) القبة : ما يسمي في عصرنا بالمظلة أو الشمسية ، غير أنها أكبر منها بحوالي ثلاث مرات. قماشها من حرير مزركش ومموه بخيوط من ، وكانت القبة من خصائص السلاطين وحدهم ، خاصة في المواكب.

(٣) الطبر : الفأس. وحاملها يسمي الطبردار ، ويعني الشخص الذي يحمل الطبر حول السلطان عند ركوبه في المواكب أو المراكب أو غيرها.

(٤) السنقر : من الطيور الجارحة التي تشبه الباشق.

(٥) الشاهين : طائر من جوارح الطير وسباعها ، من جنس الصقر.

(٦) الدوادار : هو الذي يحمل دواة السلطان ، والدوادارية : وظيفة موضوعها نقل الرسائل عن السلطان أو عرضها عليه.

(٧) الكركي : طائر كبير أغبر اللون طويل العنق والرجلين ، أبتر الذنب.

والتم المشهور ، ناظر الجيش المنصور ، صدر الديوان ، وقاضي الجند والأعوان، كما قيل :

وتـم تـم دسـت الطيـر منـه كقـاص زان أربـاب الكتـاب[1]
عليـه مـن المهابـة ثـوب مجـد كوجـه الطـائعين لـذي الحسـاب

والطاووس ، كأزهي عروس ، في أفخر ملبوس ، مقدم على الخواص كالناظر الخاص ، ناشر مروحة الارتياح ، يتجلي بجمال هيئته الفائق على الوجوه الملاح، كما قيل :

ثوبـه قـد حـار فيـه كـل صـباغ علـيم
ولسـان الحسـن نـادي صـبغة الله الحكـيم
فيـروق العـين منـه فـوق أوصـاف الكلـيم

والبازي [2] الأمير الكبير ، صاحب الرأي والتدبير ، أمير الميمنة ، قد رتب صفه وزينه ، كما قيل :

ويـاز أشـهب عينـاه حمـر يُضـيء وفـي جناحيـه النجـاح

والصقر الشهم السابق في الطيران الوهم ، أمير الميسرة ، قد فاق بشهامته عسكره، كما قيل :

وصقر إن يلـح فـي القفـر ظبـي أتـيح لـه مـن الجـو انصـبابا
أقـام بمخلـب عـن شـهم سـهم ونسـر عـن قـوي النـاب نابـا

الباشق[3] الجاووش [4] ، ورأس نوبة العساكر والجيوش ، كما قيل :

أنظـر إلـى الباشـق فـي صيده يـنقص كالسـهم مـن الراشـق

---

(1) الدست : في الأصل يتكون من أربعة كراسي لكتاب يكتبون بما يريد السلطان ، ويسمون كتبة الدست ولهم حق التوقيع نيابة عن السلطان.

(2) البازي : نوع من الصقور ، ينتمي إلى فصيلة الصقرية وله مهارة فائقة في الصيد.

(3) الباشق : نوع من جنس البازي ، من فصيلة العقاب النسرية ، وهو من الجوارح ، يشبه الصقر ، ويتميز بجسم طويل ، ومنقار قصير ، بادي التقوس.

(4) الجاووش : رتبة عسكرية ، وفي الأصل بمعني صاحب ، وهو أيضاً الدليل في الحروب ، ومأمور أخبار واستخبار ،وهو رئيس العشرة.

يقفــو حمامــاً مثــل معشــوقة أتبعهــا الحــب حشــا العاشــق

والببغاء تتجلي في الحلة الخضراء ، وتنثر من الخاتم الياقوت درر الثناء ن وتخبر بعجائب الهند ، وتسرد غرائب رغائب السند ، كما قيل :

تســـمت دُرة لكـــن كســـاها حكـيم الصـنع ثوبـا مــن زبرجـد

ومـــن لهـــا بمنقـــار عقيـــق وخـاط شـعارها مـن عـين عسـجد

والهدهد لابس التاج ، ينهي إلى موقع الدراج[١] ، الأخبار المارة ، والأحوال السارة ، كما قيل :

وهدهــد ألــبس ثــوب البهــا [٢] فعــمّ إذ خــص بصــدق النبــا [٣]

أغــرب إذ شــرق فــي حســنه ففــاق أهــل التــاج حتــى ســبا[٤]

والحمام مقدم البريدية ، يتردد في مواقف العبودية ، والعصافير كالمماليك الأجلاب[٥] في الكتاب ، يدرسون العلم والاداب ، والبلبل والهزار ، ومطزقات الأطيار ، وساجعات الأسحار ، مسبحات الواحد القهار ، يتناشدون الأشعار ، ويرددن النغمات ، ومطربات رنات الأوطار وضروب المسيقات من جنك المنقار ، والشحرور والزرزور. وذوات الهديل من الطيور ، حتى جناج الزنبور ، تغرد فتخجل العود والطنبور. وزواجر الطير ، تبشر بالفرح والخير ، وأنواع الجوارح في الحافات ، والطير في الجو صافات ، كل يفدي الملك ،ويقدم جسده وروحه ، ويسبح من أتاه الملك ، كل قد علم صلاته وتسبيحه[٦] .

ودلالة هذا الحجاج الأسلوبي على مستوي المعجم الذي قام على الاستقامة على الإسلام على ضوء قوله تعالي "وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ أَلَمْ

---

(١) الدراج : كُتاب الدرج أو الإنشاء. ويعبر عنهم في عصر المؤلف بالموقع.

(٢) البها : البهاء.

(٣) النبا : النبأ.

(٤) سبا : سبأ (ملكة سبأ).

(٥) المماليك الأجلاب : فرقة من المماليك الجدد يشتري السلطان جنودها بنفسه.

(٦) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، ص ٤٩٦ – ٥٠١.

تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ "(1).

فالاتجاه الأسلوبي لمستوي هذا المعجم ودلالته تحقيق الاستقامة على الإيمان على ضوء قوله تعالي :" فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" (2) .

هذه الاستقامة على الإسلام والإيمان هي ما ختم بها ابن عربشاه كتابه فاكهة الخلفاء في الباب العاشر والذي يمثل القيمة الأسلوبية التعبيرية والأدبية للرجل الجدل في المناظرة التي ساقها في سردية خطابه الفني والأسلوبي على لسان الراوي الشيخ أبو المحاسن المروي عليه الحكيم أخو الملك الذي ناظر الوزير وكانت خاتمة كتابه حيث يقول ابن عربشاه " قال الشيخ أبو المحاسن ؛ المخجل بأدبه أمرأ القيس(3) ، وأبا فراس (4) : فلما انتهي الحكيم مقترحه ، وما قصده من بيان محاسنه وملحه ، إلى هذا المحل وفصل من فضله ما أجمل من جمل ، نهض الوزير وقبل قديميه ، واعترف له بالفضل المنعم به عليه ، وأنه مالك أزمة الإنشاء ، وملك الكلام يصرفه كيف شاء وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وكما أنه شيخ المنقول وأستاذ المقول ،

---

(1) سورة النور ، الآيات (٤٠ ، ٤١ ، ٤٢).

(2) سورة النحل ، الآيات (٧٤ – ٧٩).

(3) أمرؤ القيس ابن حجر الكندي ملك بني أسد ؛ أشهر شعراء الجاهلية ، وإمام الشعراء وحامل لوائهم . صاحب المعلقة الأولى.

(4) أبو فراس : ابن عم سيف الدولة الحمداني، امير حلب ، وكان أميراً لإمارة منبج / الشاعر الأمير الفارس شعره من أجمل وأحسن أشعار العربية. كان يضارع الشاعر الكبير المتنبي.

فمن أنوار ألفظه تنير القول ومن كنوز عباراته تستخرج جواهر المعقول ، وأما أخوه الملك فطار بسروره به عن سريره ، واتخذ في مهام أموره مقام أميره ، ثم أدت آراء فكرته أن يستعمل أخاه لكشف كربته ، ويمشي في السعي بينه وبين إخواته لرتق ما انفتق ، وسد ما خرقه سيل الحسد فانبثق ، فامتثل أمره العالي ونهض بأمر الله المتعالي ، وأنفق من جاهر أفكاره في سوق المناصحة الرخيص والغالي ، ورصع ما استخرجه من يواقيت تلك من عباراته بما يستعبد عقود الالالي ، وتعاطي أسباب الإصلاح وساعده لحسن النية وخلوص الطوية السعد والنجاح :

وهذب في الفضل ما رتبه　　　ورتب بالفضل ما هذبه

وأعجب ذا اللب ما شاده　　　فأثني عليه بما أعجبه

وأغرب في السبق إشراقه　　　فلله ذا السّعد ما أغربه

فما شذ بالصدق عن نصحه　　　ولا شذ خل لما شذبه

فاستمال الخواطر النافرة ، وأطفأ بزلال ألفاظه العذب شواظ تلك النائرة ، وسكن بنسيم ملاطفات قتام الأخلاق الثائرة ، فأطمأنت القلوب ، وطهرت من غش التشاحن الجيوب ، واتصل بالمحب المحبوب ، وحصل الأمن والأمان ومساعدة الزمان ، ومعاضدة الإخوان ومصافاة الخلان ، وطيب العيش والمكان ، أفضل من هذا جميعه شفقة السلطان ، والاستقامة على الإسلام والإيمان" (١) .

بهذه تتم خصائص اسلوب ابن عربشاه في الحجاج الأسلوبي الذي يحقق هدفه الذي طرح به مقدمته التي تدعو إلى التوحيد ، والتي تحقق دعوة الله سبحانه وتعالي إلى مرتبة الإحسان على ضوء قوله تعالي " ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ، وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ،

---

(١) فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، العالم الأديب السياسي احمد بن عربشاه ، تحقيق وتعليق أيمن الجابري ، دار الافاق العربية ، بيروت ، ٢٠٠١م.

وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ، إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ " (١) .

---

(١) سورة النحل ، الآيات (١٢٥ - ١٢٨).

الفصل الرابع

ابن عربشاه أديبا

المبحث الأول : ابن عربشاه ناثراً

المبحث الثاني : ابن عربشاه شاعراً

المبحث الأول

ابن عربشاه ناثرا

المطلب الأول : الخطاب الإبداعي والصورة لوصف الحرب في المجتمع النثري حتى سقوط دمشق:

إنّ نثرية الخطاب الفني لابن عربشاه تتميز بأسلوبية تعبيرية برزت في أسلوب بن عربشاه الناثر البليغ الفصيح ، عن طريق الإبداع والذي عرفه ارسطو بحيث :

" الإبداع يجب أنْ يسمح بالإجابة عن السؤال ماذا نقول ، ويجب العثور على أفكار وعلى أشياء(حقيقية أو محتملة) لجعل القضية معقولة ومقبولة ، ويتضمن هذا الجزء من النظرية (أركان القضية) التي تعد قطعة رئيسية من الإبداع البلاغي .

ويتعلق الموقف الذي يتبناه الخطيب في الخطاب ، بالتطابق المسبق بين ركن القضية والسؤال الذي يطرح : هل القضية المطلوب الحكم عليها موجودة (حدس)؟ما هي(تحديد) ؟ ما هي طبيعتها (نعت) ؟ ويكون النموذج في حوزة الخطيب لحظة الإبداع. وهو أمر أساسي لاكتشاف الحجة في مادة ، وفي مجموعة من الأمكنة. وهذه من البدهيات العامة جداً والتي تعمل بوصفها مخازن للحجج. وإننا لنميز بين الأمكنة العامة والمفيدة لكل الناس ، وبين الأمكنة العقلانية ، فإنها تمثل نماذج للموافقة الضمنية بين المرسل والمتلقي – تبرز – بوصفه أداة أسلوبية[1]. في طبعتها الأولى ، أسلوبية للتحليل النفسي والسبب إنْ القيمة التعبيرية – الذي صور به ابن عربشاه وحشية ما فعله من حرق المدن في جميع أقطار العالم

---

(1) القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان ، اوزوالدديكرو ، جان ماري ستايفر ، ترجمة:د/منذر عياش ، المركز الثقافي القومي ط٢ ٢٠٠٧م ، بيروت لبنان ، ص ١٥٦-١٥٧.

وعلى قلب هذه الوحشية المدمرة فيما فعله من دمار لدمشق – كانت قد حملت عموما[1]. على نفس ابن عربشاه مأساة المسلمين في دمشق ، وقضية خضوع الشخصية العربية المسلمة، لاسيما منها في دمشق. حين هجوم التتر عليها، وابن عربشاه حينذاك صغيراً في ذاكرته تلك تمثل صورة جزئية ، لتلك الصور النفسية الكلية لوحشية الدمار التتري في دمشق، صورة تيمور وفعله. وهذه الحادثة هي الواقعية التي تنطق بها أسلوبية ابن عربشاه في تصوره لتك الصور التي تشابه لصورة الحرب عند تيمور لنك ، وكما إنّ ابن عربشاه لم ينسي مشهد الأطفال حين دخول تيمور. أمر بإخراج أطفال دمشق خارج المدينة ، الذين تتراوح أعمارهم بين الشهرين ، إلى الخمس سنوات، وعندما تم إخراجهم وتجميعهم في مكان معين، راح يتأملهم من الزمن ، وبعدها أشار لرجاله ليدوسوهم جميعاً بسنابك الخيل ، وقد قتلوا جميعاً وكان عددهم عشرون ألف طفل[2]. فان تصوير ابن عربشاه للحرب داخل كتابه عجائب المقدور ، والذي بواعثه خراب دمشق، ووحشية تيمور لنك ، ومن معه من جنود. وخطابه الإبداعي البلاغي النقدي الذي يريد من "هذه المشاهد المرعبة ، أن توقد فينا بلاشك حدوة الكرامة، وتحثنا بدورها على العمل من اجل العزة المنشودة ، وعندها سيتبين لنا إنّ السبب الأساسي لتمكن القوات المغولية منا ، هو تفرقنا وشقاقنا ، فإنّ هذا سوف يدفعنا مجدداً للبحث عن صيغة جديدة من صيغ التلاقي – الذي في عصرنا هذا ،عصر تفرق أمتنا الإسلامية لاسيما العربية– نشتاق إليه"[3]. أيّ على التوكل على الله، والاعتصام بحبله استقامة للترابط الإسلامي الأمين ، لدعامة الذات العربية الاسلامية، لأنّ إبداع ابن عربشاه يبرز قوة التصديق، بصورة الحرب في دمشق، في أسلوب التناسب، والمجانسة الذي جعلنا من الأفكار المتفرقة من صورة من صور الحرب التي صورها ابن عربشاه في كتابه تمثل أشكال إيقاعية ، وفي إحساسنا متكاملة الصورة لمأساة دمشق.

---

(1) المصدر السابق ، ص ١٦٧: الأسلوبية الأدبية.

(2) تيمورلنك في دمشق الدكتور سليمان المدني الطبعة الأولى ، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠م ، ص٦.

(3) المرجع السابق ، ص٧.

والتناسب عند قدامه بن جعفر كل النص – (كالدر المنتظم والدر المنسجم)[١].

عن طريق ضم عناصره وجمع أجزائه ، و مما لاشك فيه إنّ أقسام النص وأسبابه ما كانت لتجتمع وتتحد ما لم تتوفر لها صفة الانسجام والقدرة على التأليف)[٢]. وكانت الصور المتفرقة من قضايا تيمور العريضة ، ووحشيته وجنوده في الحرب في دمار شعوب العالم ، تمثل حينذاك جزئيات من أقسام النص خلاصة لتصويره الكلي لوحشية الحرب في دمشق مما جعلنا أن نجمع أقسام النص لصورة الحرب عند ابن عربشاه التي صورها (بالاستشهادات اللائقة والاستطرادات الرائعة والاستعارات العجيبة ، ونوافث السحرة من علماء البيان ونوادر المهرة من أرباب البيان)[٣]. أبرزها لنا بأسلوبية تعبيرية برع فيها ، حسن النسق من محاسن الكلام وهو أنْ " تأتى الكلمات من النثر ، والأبيات من الشعر متتاليات ، متلاحمات تلاحماً سليماً مستحسناً، لا معيباً مستهجناً ، والمستحسن من ذلك أنْ يكون كل بيت إذا افرد قام بنفسه ، واستقل معناه بلفظه ، وإنّ ردفه ، مجاوره ، صار بمنزلة البيت الواحد ، بحيث يعتقد السامع إنّهما إذا انفصلا تجزأ حسنهما ، ونقص كمالهما ، وتقسم كمالهما ، وتقسم معناهما ، وهما ليس كذلك ، بل حالهما في كمال الحسن وتمام المعنى مع الانفراد الافتراق كحالهما مع الالتئام والاجتماع – وأفصح وأبلغ كلام قوله تعالي – (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[٤].فأنت ترى إتيان هذه الجمل معطوفا بعضها على بعض ، بواو النسق على الترتيب الذي تقتضيه البلاغة لأنه – سبحانه وتعالي – بدأ بالأهم ، إذ المراد إطلاق السفينة من سجنها ولا يتهيأ ذلك إلا بالانحسار عن الأرض ، فلذلك بدا بالأرض ، فأمرها بالابتلاع ، ثم علم – سبحانه

---

(١) عجائب المقدور قول بن عربشاه في خاتمته.

(٢) نقد الشعر لقدامة من جعفر – تحقيق كمال مصطفى ، ط٢ ، الناشر : مكتبة الخانجي ، مصر ، ص

(٣)عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٤٩٠.

(٤)سورة هود الآية : ٤٤.

وتعالي – إن الأرض إذا ابتلعت ما عليها من الماء ولم تقطع مادة الماء ، تأذى بذلك أهل السفينة عند خروجهم منها ، وربما كان ما ينزل من السماء ، مخلفاً لما تبتلعه الأرض ، فلا يحصل الانحسار ، فأمر –سبحانه وتعالي– السماء بالإقلاع بعد أمره الأرض بالابتلاع ، ثم أخبر بغيض الماء عندما ذهب ما على الأرض ، وانقطعت مادة السماء، وذلك يقتضي أن يكون ثالث الجملتين المتقدمتين ، ثم قال تعالى : وقُضي الأمر ، أي هلك من قدر هلاكه ، ونجى من قضيت نجاته ، وهذا كنه الآية ، وحقيقة المعجزة، ولابد وان تكون معلومة لأهل السفينة ، ولا يمكن علمهم بها إلاّ بعد خروجهم منها ، وخروجهم منها موقوف على ما تقدم ، فلذلك اقتضت البلاغة أنْ تكون هذه الجملة رابعة الجمل ، وكذلك استواء السفينة على الجودي ، أي استقرارها على المكان الذي استقرت فيه استقرارا لا حركة معه ، لتبقى آثارها آية لمن يأتي بعد أهلها ، وذلك يقتضي أن يكون بعد ما ذكرناه ، وقوله سبحانه (وقيل بعداً للقوم للظالمين)[١].هذا دعاء أوجبه الاحتراس، هذا دعاء أوجبه الاحتراس ممن يظن إنْ الهلاك ربما شمل ما لا يستحق ، فدعا – سبحانه– على الهالكين ، ووصفهم بالظلم احتراساً من هذا الاحتمال ، وذلك يقتضي أن تكون بعد كل ما تقدم ، والله اعلم . فانظر إلى حسن هذا النسق ، وكيف وقع القول فيه وفق الفعل سواء"[٢] ، وهذا اتجاه أسلوب ابن عربشاه وصياغته الفنية، وصورة الحرب في المجتمع التتري وعلى الرغم من هذه الصورة المتفرقة في ثنايا كتابه تعكس مدى وحشية تيمور، وجنوده في شعوب العالم إلاّ إنّ ابن عربشاه حقق بهذا التصوير الفني لصورة الحرب التيمورية، بما فيها دمار دمشق، بحسن النسق لهذه الصور المتفرقة، بحيث أبرزها بانسجام كصورة متكاملة، تمثل بشاعة الحرب التيمورية بموطن كلامه (كالدرُّ المنظم والدرِّ المنسجم) أي أنْ (يأتي الكلام متحدراً كتحدر الماء المنسجم، سهولة وسبك، وعذوبة ألفاظ ، حتى يكون للجملة من المنثور ، وقع في النفوس وتأثير في القلوب"[٣] ، لاسيما إن كان نثر تقريري مثل الذي صور به ابن عربشاه

---

(١) سورة هود الآية : ٤٤.

(٢) تحرير التحبير ، ص ٤٢٥.

(٣)المصدر السابق ، ص ٤٢٩.

هذه الصور المتفرقة، لبشاعة الحرب التيمورية على شعوب العالم لكنها بفكرة واحدة وعاطفة واحدة لكن بتعابير مختلفة مادام (النثر التقريري فإنه يبدأ بقضية قد يكون وعيه بها غامضاً لشكل عام ، لكنها لا تتماسك ولا تصقل إلا بإخراجها في نظام ملائم من التراكيب والمفردات ، وقد يكون الروائي على وعي بالشخصيات ، والمواقف القصصية على نحو مماثل لوعيه بالشخصيات ، والمواقف في الحياة دون أي تفكير في تقديمها لغوياً، وتتطلب معظم أنواع الكتابة إجراء عملية تنقيح ، وهذه العملية أما تتم على الورق، أو في عقل المؤلف قبل الكتابة ، وتختلف الكتابة في نظرتهم إلى هذه العملية فبعضهم يرى فيه تقدماً بالعمل نحو مزيد من دقة التجسد لمعنى سبق تصوره وآخر يرى أنها عملية تعبير وتعديل مستمرة في المعنى نفسه)[١].

الاتجاه الاول على ضوء قوله: (بالفاظ الحاظ تشير إلي النهي تعلم فنون السحر كيف يكون ؟).

والاتجاه الثاني: علي ضوء قوله: (وفلذت من كبدي فلذة ، وعملت بموجب لكل جديد لذة).

ولكن الاتجاه الأول هو الذي صور به صور الحرب الوحشية التيمورية حتى دمار دمشق و التى جمعناها من شتى أطراف وصفه لها في كتابه عجائب المقدور في كوحدة نفسية متناسقة منسجمة كعمل أدبي متحدة بكمال الاتصال الجمالي للمتلقي ما دام (العمل الأدبي مشروع او خطة ، وحينما يكون كاملاً تكون النتيجة وحدة Unit، لكن متكاملاً لكنه كل مؤلف من العناصر اللغوية التي نعرفها أيضاً في تأليفات أخرى، ولهذا تستطيع بعملية تجريد أن تصبح على وعي بها متفرقاً ، ومستقلاً بعضها عن بعض ، وان ندرسها كإضافات إلى الكل، فالكلمة التي تكون سحرية في بيت معين ربما تفتقد الفعالية في جملة أخرى ، وبالمثل فان التركيب الذي يكون رديئا في سياق ربما يخدم هدفاً معبراً في سياق آخر ، وهذه الظواهر هي التي

---

(١) الأصول : دراسة ابسيتمولوجية للفكر اللغوي عند العرب الدكتور تمام حسان عالم الكتب ٢٠٠٤ ص٣٥٠.

تهتم بها دراسة الأسلوب[1]، وهو الاختيار الفردي للمتكلم أو الكاتب يبدأ بعد الوفاء بمطالب القواعد النحوية[2] – والأساليب البلاغية فالقيمة الأسلوبية التعبيرية والأدبية تبرز في الصور المتفرقة والحرب الوحشية التيمورية حتى دمار دمشق علي التالي : –

العِدة والعدد والعُدة لجيش تيمور :

إن تيمور "فوق سهام الانتقام، إلى نحر ممالك الشام ، بجنود إن قيل كالجراد المنتشر فالجراد كان من أعوانها ، أو كالسيل المنهمر. فَسَيْل الإماء جار من فرندها وخرصانها ، أو كالفراش المبثوث ، فالفراش يحترق عند تطاير سهامها، أو كالقطر الهامي فاليم تضمحل عند انعقاد قنامها. رجال ثوران ، وأبطال إيران ، ونمور تركستان وبيور بالخشان ، وصقور الدشت والخطا ، ونسور المغول ، وكواسر الجت، وأفاعي خجند ، وثعابين اندكان ، وهوام خوارزم ، وجوارح جرجان ، وعقبان صغانيان ، وضواري خصار شادمان ، وفوارس فارس ، واسود خراسان ، وضباع الجبل ، وليوث مازندان ، وسباع الجبال ، وتماسيح رستمدار ، وطالقنان ، وأصل قبائل خوز ، وديدان كرمان ، وطلس أرباب طالسة صبهان ، وذئاب الري وغزل وهمدان ، وأفيال الهند والسند ومولتان ، وكباش ولايات اللور وثيران شواهق الغور وعقارب شهرزور ، وجرارت عسكر مكرم وجند بسيان[3].

قوم إذا أبدا الشر ناجذيه لهم   طاروا إليه رازقات ووحدنا[4].

مع ما أضيف إليهم من عشائر الخدم ، وفراعل التراكمة والأوباش والحشم وكلاب التعباب من رعاع العرب، وهمج العجم وحفالة عُبّاد الأوثان ، وأنجاس مجوس الأمم ، ما لا يكتنقه ديوان ولا يحيط به دفتر حسبان، وبالجملة فانه الدجال

---

(1)الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي ، الدكتور شفيع السيد ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٨٦م، ص ١٣٧.

(2)الأصول : دراسة ابسيتمولوجية للفكر اللغوي عند العرب ، مرجع سابق ، ص ٣٥٠.

(3) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ١٩٤ – ١٩٥.

(4) هذا البيت في ذاكرة حفظي ولم أجد توثيقاً له لعدم حقيقة التوصل إلي قائله.

ومن معه ياجوج وماجوج، والرياح العقيمة الهوج متوجه والنصر قائده والصبر رائده، والقضاء مواقعه، والقدر مساعده، ومشيئة الله تعالى سابقته، وإرادة الله عز وجل تدبير العباد والبلاد سابقته[١].

دخول حلب:

عندما قرب من دمشق التقى بالجيوش الشامية لكنه (قد أضمر لهم الويل، وعبئ عساكره تحت جنح الليل ، وبثّهم فيهم وأرسل عليهم عَزَاليهم ، وقابلهم بمقدّمتهم ، وشغلهم بأوائلهم ، وأحاط الباقون بهم ، فأتوهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم فمشي عليهم مشي الموسى على الشعر وسعي سعي الدبي على الزرع الأخضر[٢].

وعرض جنده للتوجه إلي دمشق :

وعرض جنده (فإذا الوحوش حشرت) ، **وانبثوا** على وجه الأرض(فإذا الكواكب انتثرت) ، **وماج** فإذا الجبال سيرت، **وهاج** فإذا القبور بعثرت ، **وسار** فزلزلت الأرض زلزالها ، **ومار** أظهرت القيامة أهوالها)[٣].

ثم عزم بالخميس العرمرم ، كالسيل الهامر ، المدمر الطامر إلي دمشق :

تحرك للرحيل ذلك الأفعى ، ونفث على هوام أموات الزمهرير من أحياء عساكره ، فإذا هي حيّة تسعى ، فدّق الكؤس، فجاوب صداه الرعد القاصف، ولمعت مرايا اللبوس ، فانعكس منها إيماض البرق الخاطف ، وعرض خيوله في التروس ، فأحاط بالأطواد قوس قزح ، وسير خيوله في اللبوس ، فتجللت كتائب الكثبان ، بشقق الورد والريحان ، خائلة في ذلك البر المنشرح ، ومارت الجمال ، فمرّت الجبال مر السحاب ، وسارت الرعال ، فصعد العنان من النقع الضباب ، وشرعت الذوابل،

(١) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٣١٤.

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٦ – ٢٠٧.

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٣١٤.

فـإذا رطيـب الأغصـان متمايـل ، وهزهـزت القواصـل ، فانسـاب فـي القصـيل مرهـق الجـداول، وتصلصـت ألسـنة الحنـاجر، والنيـازك فبـرزت عـذبات الغـدبات ، ونشـرت أعلام الكتائب فانبثت تشاهير الازاهير على عقبات العقبات(١).

على الجملة:

فان الربيع حاكى بِبُروقه بوارِقه ، وبرُعوده صواعقه ، وبخمائلـه وروابيـه زرابيـه ونَمَارِقه ، وبركامـه قتامـه ، وبشقائف أعلامـه ، وبأشجاره المزهرة خيامـه ، وبأغصـانه رماحـه ، وبعواصـف أمـره ونهيـه رياحـه ، وبكتائبـه السـود كثبـه الأخضـر، وبأزهـاره الزرق مزارقه الزُهر ، وبسُيوله الجحافة مسير جحافله ، وباضطراب بحر فيائقه تموج خمائله عند هبوب اصائله(٢).

(ثم دخل بجيشه بالرياح الهوج العقيم دمشق)

القيمة الأسلوبية التعبيرية والأدبية لتصوير ابن عربشاه الحرب، وما فيها من العِدة والعُدة، فكانـت بـالحق أسـلوب جمـالي مـادام "الجمـال أبـرز صـفاته ، وأظهـر مميزاتــه،ما فيــه مــن خيــال رائــع، وتصــور دقيــق – فــي – إلبــاس المعنــوي ثــوب المحسوس، وإظهار المحسوس في صورة المعنوي ، وجملـه القول إنَ هذا الأسلوب يجب أن يكون جميلاً رائعاً ،ثم واضحاً قوياً، بكل المعاني والألفاظ، و قوه الحجـة والبرهان وقوه"(٣) وعـي عقل ابن عربشاه في تصـويره لماسـأة صـورة الحـرب التترية علي المدن والشعوب، لاسيما الأمـة العربيـة، التـي فجعت مرتين بفعل التتار الدمار، من فروع جنكيز خـان هولاكـو التتري في بغداد وشهادة تلك المصنفات التـي غيرت لـون نهـر دجلـة والفرات ، ودمـار السـلامة والنفس والأعـراض مـن فعل تيمـور لنك وجنوده العتاة البغاة، الذين علوا في الأرض و في مثلهم قال الله تعالي (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ

---

(١) عجائب المقدور في نوائب تيمور ص ٣١٤.

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦٩.

(٣) البلاغة الواضحة ، علي الجارم ومصطفي أمين ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٤٨م ، ص١٣-١٦.

وَنَجْعَلَهُـمْ أَئِمَّـةً وَنَجْعَلَهُـمُ الْـوَارِثِينَ وَنُمَكِّـنَ لَهُـمْ فِـي الْأَرْضِ وَنُـرِيَ فِرْعَـوْنَ وَهَامَـانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ)[1].

فإن ابن عربشاه في تصويره لقسوة تيمور لنك وجنوده، كما عرضناه من صور سابقه في مواقع شتي على شعوب مختلفين، في اللون والعقيدة واللسان، ما هي إلا جزء من تدريج استنهاض الهمم لكل عربي ومسلم، أي لكل مسلم لجهاد الدخيل سواء كان على النفس أو علي البدن والروح حين يقول ابن عربشاه مصوراً ما حل بدمشق من تيمور وجنوده (حين ملأ جراب طمعه من نفائس الأموال ردنه ، واستدر خلفاتها شيئاً فشيئاً صافياً حتى صفاها بقطنه بتعذيب هؤلاء الأعيان الكبار ، فعذبوهم بالماء والملح وسعّفوهم الرماد والكلس وكووهم بالنار واستخرجوا خبئ الأموال منهم استخراج الزيت بالمعصار ، ثم أطلق عنان الأذن لعسكره بالنهب العام ، والسبي الطام ، الفتك والقتل والإحراق والتقيد بالأسر على الإطلاق ، فهجمت أولئك الكفرة الفجرة على ذلك اشد هجوم ، وانقضوا على الناس بالتعذيب ، والتثريب ، والتخريب، انقضاض النجوم ، واهتزوا و ربوا وفتكوا وسبوا ، وصالو على المسلمين وأهل الذمم، صولة الذئاب الضواري على الغنم.......

عذبوا الكبار والأكابر بأنواع العذاب وبدأ للخلق ما لم يكن في الحساب ، واستخلصوا باصلاء جواهر الناس منهم خلاصات الذهب ، وصنفوا في استخراج النفائس من النفوس بأصناف العذاب مسائل يقضي منها العجب ، وذل العزيز والكريم، وهان الخطير والجسيم وطم البلاء وعم القضاء ، وطاشت الحلوم ، وتبلدت الفهوم ، وتراكمت غيوم الغيوم. ثم إن تيمور لنك فرق تلك الأوراق ، التي بأسماء الحارات على أمرائه فتقاسموها ، ثم دخل المدينة السواد الأعظم ، ونزل كل أمير من الأمراء في حارة وطلب سكانها ، وفرق عليهم مالا يقدروا على شئ منه ، فكان الرجل يقام على باب داره وهو في أنحس منه ويقولون له : هات ما عليك من المال، فيقول ما عندي من المال ، فيضرب ضربا شديدا ، فيخرج جميع ما في بيته من قماش ونحاس ، وغير ذلك حتى يخرج بأولاده ونسائه وعياله فتوطأ نسائه وبناته بين

([1]) سورة القصص – الآيات ٤-٦.

يديه ، وهو يشاهد ذلك بعينه بناته ، ويلاط بولده بين يديه، فإذا قضوا من الوطء أوطارهم أوجعوهم بعد ذلك ضربا ، هذا وصاحب البيت قائم يضرب وسط داره[١].

فجزّوا الرؤوس ، وحزّوا الرقاب ، وفتّوا الاعضاد ، وبتوا الاكتاد ، وحرّقوا الأكباد ، وشوهوا الوجوه ، أسالْوا الدموع ، اشخصوا الأبصار ، وبطُّوا البطون ، وأخرسوا الألسنة ، وصكوا المسامع ، وأرقموا الأنوف ، أزلوا العرانين، وهشموا الثغور ، وحطموا الصدور ، وقصموا الظهور ، ودقوا الفِقَرْ ، وشَقُّوا السُرَر ، أذابوا القلوب ، وفَطرَّوا المرائر ، أراقوا الدماء ، واستحلوا الفروج ، وأحرقوا الأنفاس ، أبادوا النفوس ، وسبكوا الأشباح ، وسلبوا الأرواح ، ..... ، وصارت جماعاتهم فيهم ما بين[٢] – (الْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ)[٣].

وفرقوا بين الوالدة وولدها ، والروح وجسدها ، وذهلت كل مرضعة عما أرضعت ، وجازوا كل نفس بما صنعت ، وفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، وصار (لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)[٤] ، وذل العزيز والكريم، وهان الخطير والجسيم ، وطم البلاء ، وعم القضاء ، وطاشت الحلوم ، وتبلدت الفهوم، وتراكمت غيوم الغيوم ، **فاقسم بالله إنّ تلك الأيام ، علامة من علامات يوم القيامة ، أسفرت تلك الساعة ، إشراف الساعة** ، واستمر هذا النهب العام، نحوا من ثلاثة أيام[٥].

المطلب الثاني : التوظيف الرمزي للطبيعة في وصف السلام في المجمتع التتري: من خلال عرس حفيد تيمور:

---

(١)عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٢٨٠ – ٢٨٣.

(٢)المصدر السابق ، ص٣٤٤.

(٣) سورة المائدة ، الآية : ٣.

(٤) سورة عبس ، الآية : ٤٣.

(٥) عجائب المقدور تيمور ، ص ٢٨٢.

وبعد أن برع ابن عربشاه في تصوير الأحداث، بما فيها من حوادث زاخرة وشخصيات عامرة ، انتقل إلى صورة أخرى مغايرة لصور الحروب ، بما فيها من دسائس ومؤامرات ، فكانت هذه الصورة الجديدة انعكاسا للروح المعنوية ، التي ارتفعت من خلال انتصاراته ، والتي حققها في جولاته حول البلدان .

فأراد أنْ يكتمل له فرحه، وكأنه خير الدنيا وما فيها ، فشرع في تزويج حفيده، بصورة لفتت أنظار الكتاب والأدباء بما فيهم الشعراء ، وأصحاب الإبداع النثري مثل ابن عربشاه الذي صور لنا ما رآه وما سمعه بقلمه . زواج ولد ولد تيمور وعبر به عن كل ما خالج نفسه إحساسا وشعورا ، فكان انفعالا فاق حد الوصف في وصفه فأجاد ، وأبدع إذ كان شاهد عيان، حاملاً معه أوراقه ، مسجلاً فيها اللحظة باللحظة فاق كل ماعداه من الأدباء وكأنه الصحفي في يومنا هذا ، وقد أمسك بكاميرته ليسجل صوره لم يسبقه إليها أحد ، لينال السبق الصحفي في ذلك ، فكان هذا الصحفي حينذاك، هو ابن عربشاه نفسه ناثراً ومبدعاً في تصويره لهذا الحدث ، متنقلاً من لوحة إلى لوحة أخرى ، تفوقها عجباً أو يقصد من وراء ذلك إلى عرض صورة من صور السلام في المجتمع التيموري ، إذ أمر أن يوضع السيف وأنْ يعفو عن بقايا ما أهلك بهم البشرية في العالم وان يبسط لهم الأمان ، فلا يجري فيها. أي سمرقند في مكان يدعي ، **كان كل** وان لا يكون هنالك ظلم او حيف وبل في كل ممالكه التي استولي عليها أن يجري فيها ما يجري في سمرقند ، وخاصة في ضواحيها ، في هذا المكان حيث الطبيعة علي سجيتها ، حية وصامتة ، أشخاصاً وأشجاراً ومنازلاً ، فكان الاختيار على مكان (نحو ميل من ضواحي سمرقند) [١].
"ذاك المكان كان كل " الذي أقام فيه حفل زواج ، فكان أول ما جرت به سطوره . ابن عربشاه من وصف لهذه :

([١]) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٣٧٤.

اللـوحــة الأولى

هـو وصـف لهذا المكـان مـن حيـث اسـتنطاقه للطبيعـة الصـامتة، ودعمهـا بحركـة الطبيعـة المتحركـة تشـبيهاً ، جعلهـا تعـي وتتحـرك حركـة ونشـاطا معبـرة عن نفسـها فـي لوحـة أولـى ، وضـعها إطـار فكـره ، وشـكلها قلمـه ، صـورة موضـوعية ، إنسـانية جماليـة ، وموضـوعها تلك الأرض من مائهـا ، وهوائهـا ، وريحهـا ، وأزهارها وطيورها ، فكان الهواء أذكي من المسك ، حيث لا سخونة ولا سموم ، والماء أحلي من طعم قصب السكر ، فلا ملوحة ولا رواسب ، فكانت هذه الأوصاف أشبه بقطعة من روض الجنان ، لكنها في الأرض ، وكأنّ رضوان خازن الجنان، قد غفل عنها ، فنسي أن يضمها إلى رياض الجنة ، فأصبحت في الأرض متعة للناظرين .

القيمة الأسلوبية التعبيرية لابن عربشاه جاءت صورة جمالية بديعة، مستنطقاً بها الطبيعة الصامتة حتى يصل به الانفعال . في الوصف . حداً أنْ يتطاول فيعمد إلى التشبيه الضمني في مقارنة المثل كما يفعل في وصفه بأنه روضة من رياض الجنة ، لعله يصل بالقارئ إلى المشاهد إلى طبيعة تعبيره عن فكرة تخيله لذلك المكان، وإنْ كانت رياض الجنة لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر بقلب بشر، فكان من ذلك أنْ نظم شعراً :

رعي فيه غزال الترك شيحا   فصار المسك يعض دم الغزال[1].

ثم مازال واصفاً في مائه وهوائه ، حتى جعل لهما ريحاً تعطر الألوف ، فإذا الهواء الذي لا لون له ولا رائحة ، إذ هو الطف من نسيم السحر ، حين قارب الصبح على الانفلاج ، فجاءت نسماته باردة لطفاً وحلاوةً ، وإذا ذاك الماء الذي لا لون له ولا رائحة ، والذي تنطلق من رواشحه بخارا ، أعذب من ماء الحياة ، صفاء بها كدر، حيث إن الحياة تكتنفها المصائب مما يعكر صفوها.

ثم انتقل لإبراز صورة الربا، بما فيها من طول وعرض للمكان، وأزهاره، وطيوره حيث إنّ للطيور تغريداً ، إذ تتناهى إليك والى سمعك ، كأنها ألذ في السماع من ثناء الناي على الوتر ، دقة ، ورقة ، وسلاسة ، ونظماً بديع :

بســـاط زمـــرد نثـــرت عليـــه * مـــن اليـــاقوت ألـــوان الفصـــوص

([1]) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٣٧٤.

كـــــان مـــــدور الأزهـــــار فيـــــه * ورودا فـــــي محاســــنه تتنضـــــد
صـــحاف مـــن لجـــين او عقيـــق * ومرجـــــان ويـــــاقوت وعســــجد
فهـــــذي حشــــوها مســــك فتيــــت * وهــــذي ضــــمها تبـــــر مبــــدد
أراد الــــــروض يجلوهــــــا علينـــــا * فصـــاغ لهـــا اكفـــاً مـــن زبرجـــد[1].

وأما الأزهار فكأنّما صباغاً أخذ الألوان فصاغ منها جمال الصور والتصاوير، نقوشاً على ورق الأزهار ، فكانت الألوان أصباغاً لها تعددت أشكالها ونقوشها في خيال نشط وقوي ، أورد صورة قوية شاعرية الجمال ، إذ صمم التصاوير قبل خلط الأصباغ. وسبحان الله الذي أبدع ثم صور ، (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) وكل ذلك في هذه الربا :

كــــأنّ ربّـــا ســــماه وقـــت هبـــة خضـــم بـــأنواع الحلـــي مرصـــع[2].

فبلاغة الأسلوب في جمال هذه اللوحة ، عرضه لنا ابن عربشاه بأسلوبية تعبيرية في طول هذا الربا ، إذ هو أفسح من أمل حريص طامع ، وإنْ كان للمكان حدوده الجغرافية إلا انه لضيقه وما حوى أطول من أمل هذا الحريص الطامع ، لان ينال جاه غني كريم نافع ، وأما ما حوى فهو أنزه للعين والفؤاد ، من أن ترنوا للنظر إلى سواه ، وكأنه أراد مخاطباً هذا المكان : ولو كان النظر إلى مثلك شباب غض زاه زاهر ، وفوق ذلك أمده الله في عمره فامتلك الحال الوافر ، والأدب الكامل فما أسعده، ولكن أنزه منه للبصر والبصيرة رؤية ذلك الربا ، في ذلك المكان ذات المنتزهات التي هي للناس معلومة بالنزهة والرفاهية ، فلا يداخلها فسق أو مجنون، وهو أول السعد :

شــــــقائفه خــــــدود نـــــــاظرات تحشـــت مـــن ســـواد المقلتـــين[3].

([1]) المصدر السابق ، نفس الصفحة.

([2]) المصدر السابق ، ص ٣٧٤ – ٣٧٥.

([3])عجائب المقدور في نوائب تيمور ، نفس الصفحات.

اللـــوحـــة الثـانيـــة

بعد أنْ بدا ابن عربشاه بالتعريف بمقدمات هذا الزواج ، أمر بالتزيين للجميع ثم التعريف بالمكان ، الذي أمر تيمور أنْ تقام فيه مراسم الزواج ، برزت القيمة الأسلوبية التعبيرية في هذه اللوحة بالتعريف بالحضور. هؤلاء الذين دعوا لهذا الزواج وما حملته أيديهم من هدايا عجيبة بصور غريبة.

فبدا بالتعريف بعساكر تيمور ، الذين هم في حروبه صف واحد، جبابرة عتاة، وحوش كواسر ، تكبراً على الشعوب، عصاة، وعلى المدن دمار، اليوم مع عدم انتظامهم فكانوا هم المقدمة ، ومن دونهم كانوا من الكبراء والأعيان ، ورؤساء الأمراء والأعوان ، في ذلك الروض الاريض ، والمرج الطويل العريض، فكان السباق فيمن حضر لكل منهم ، وكأنه معرض لعرض ما غلا وثمن ، فبرز التفاخر بينهم والتباهي ، في ذلك إلى أنْ فاق ذلك حداً ، أنْ جهروا بالمعاصي والآثام التي ارتكبوها في حياتهم ، فنشروا ما ستر الله أمرهم لاسيما الذي جمعوا به هذه الأموال ، من الأمصار والأقاليم ، من جواهر المعادن من فضة وذهب ، ومن تحف البحار من لؤلؤ ، إذ قتلوا لأجلها النفوس ، وأبادوا الأطفال ، وهتكوا العروض ، وشربوا بجماجم الأبطال الخمور ، كأنها كؤوس .

ولم يأخذ هذا المكان بهجته إلا بوجود الأنجم الزواهر ، من الحرائر والسرائر، فزاد ذلك الوجود حسنا ، فعلا قدره على من في الأرض وقل قدره في السماء.

اللـــوحـــة الثـالثـــة

ثم انتقل ابن عربشاه إلى وصف السرداقات ، وهي الخيام المنصوبة التي كانت محل.هذا الاجتماع والاحتفال ، وفي مقدماته أون ما يستيبل القادم ، البوابة ذات القرنان الشامخان لعلوها ، والتي يدخل إليها الوافد عبر دهليز حوى المستقبلين الضيوف من مغنين.

وهذان القرنان لعظمهما كان يلقب بذا القرنان ، وفي داخل هذه السرادقات عدد من الأقبية والخيام ، والأخبية ، ومن جملتها أعلي قبة، في أسفلها مزركشة بالذهب ، وفي داخلها وخارجها مكسوة بالريش ، وأما لباسها فهي بالحرير، محبوكة وعليها نقوش بجملة من الأصباغ ، وأخرى من فوقها إلى تحتها مكللة باللالي الكبار

، التـي لا يعلـم قيمـة أحـدها إلا عـالم الأسـرار جـل وعـلا ، وأخـري مرصـعة بـأنواع بـالجواهر ، علـى صـفائح مـن الـذهب ، مدهشـة للأبصـار والبصـائر ، فتراهـا تأخـذ بالعيون والقلوب إعجابا ودهشة .

ثم انتقل إلى وصف السقف الذي هو من فضـة ، ثـم إلـى الفرش والأوانـي والمراوح ، التي أضفت على المكان جوا رطبا .

ثـم انتقـل إلـى الحـديث عـن تلـك المنـافع والمرافـق ، فـاظهروا بـذلك الزخـائر الغريبة ، وكان العجب في تلك اللوحة الجمال .

اللـوحة الـرابعـة

مـن السـتائر العجيبـة فـي هـذا المكـان سـتارة خـوخ ، كـان أخـذها مـن خزانـة السلطان بايزيد ، تساوي قطعة واحدة من عرضـها عشرة اذرع ، منقوش عليها صـور الحيوانات ، والأشجار ، والنباتات ، ثم الأشخاص شيباً ، وشباباً ، ونسـاءً وصـبياناً ، **وكأنـها في صورتها تلك تناجيك** ، بأنْ تقطف من ثمارها ، وتخاطب أشخاصها ، **فكأنـها صورة حية** ، فأصبحت بذلك أحد عجائب الدنيا ، ورغم هذا الوصف إلا أن ابن عربشاه برع بأسلوبية تعبيرية في زيادة دقة الوصف ليؤكد أن **(ليس المسمع بـالمرأي)** ، فأعطى هذه السـتارة وضـعها وقيمتهـا التاريخيـة ، ثم انتقل إلـى وصـف فرش الصيوان الذي أمام السرداقات ، مصوراً اجتماع المباشرون وأرباب الديوان ، لا سيما الذين عليهم الحفاظ علـى نظـام الحفل والاستقبال ، وهـو فـي علوه شامخ فـي الهواء هذا الصـيوان ، تعمل علـى تثبيتـه عدد من العواميد ، وأربعين من الاسطوانة وأسـوار أمسكت بهـذا الصـيوان ، وإمـا سـواء عسـكر تيمـور ومـن دونهـم مـن الكبـراء والأعيـان ، ورؤسـاء الأمـراء ، فكـان هنالـك أهل المدينـة مـن الأعيـان ، فـاخرجوا مـا عبوه من تجمل زينة من كل أهل البلد واجتهد مع كل فريق منهم ، بحسب حرفته ، أن يظهر فنونـه وقوتـه ، فبالغ في ذلك أرباب الصنائع ، فكان منهم القصاب الذي جعل من القصب كل

الآلات الموسيقية على سبيل المثال لا الحصر في وصف هذا الجمال.

اللوحة الخامسة : وصف العروسان

القيمة الأسلوبية التعبيرية لابن عربشاه برزت في تشكيل الصورة الرمزية للسلام في المجتمع التتري ، من خلال هذه الجمعية ، وليته يمثل السلام الإنساني الذي يسمو إليه ابن عربشاه ، ولكن ليس كل ما يتمنى المرء يدركه ، بل الجميع يهنون سلاماً لهذا الحفيد الزوج، بل انه الملك الهرقل، الذي يتمني له من هذا العرس أن يلد ملكا هرقل يحقق قول الشاعر :

إنّ الهلال إذَا رأيت نمو أيقنت * أنْ يكون بدراً كاملاً

وكانت الصورة الرمزية لناسج القصب ، الذي اخرج فارسا مكمل الاهبة، واستقصي في إكمال هيئته ، حتى أظافره وهديه ، واستوفي كل ما يتعلق بالآلات كقوسه وسيفه وسائر الاستعدادات .

عجباً كل ذلك من القصب ، ورفع ذلك من غير تعب ولا نصب ، هذه رمزيه جاء بها ابن عربشاه بخياله ، بادلالها الرمزي في مجتمع السلام التتري ، في هذه الجمعية ما هي إلاّ وصفاً للعريس في هذا الحفل .

أما العروس :

ثم يبدع ابن عربشاه في وصف عبر دلالة الرمز، أنْ يصف العروس، بحيث أحكم أساليب البيان والبديع في تصويرها في الحفل، والذي جعل دلالتها تمثل رمز السلام في الجمعية، وكأنّها قلبت قانون الجبروت التتري، القائم على البطش والدمار، والوحشية والبوار، لكل مدينة ولكل أرض، يصور ابن عربشاه : **وصنع القطانون من القطن مئذنة رفيعة محكمة بديعة**[1] ، ثم برع إن هذه المئذنة الرفيعة المحكمة البديعة ذات قدر رشيق كأنه يشير تورية وكناية واستعارة كقد **تلك العروس "مظلومة القد في تشبيهه غصنا**[2]. **(ذات منظر أنيق بياض جسم يسمو على الحور ، وكمال قوام يعلو على القصور)**[3]. والقيمة الأسلوبية التعبيرية برزت بخيال ابن عربشاه قوة في تشكيل صورة حسن

---

(1) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٣٧٧.

(2) ديوان المتنبي ، شرح الواحدي ، ص ١٥٥.

(3) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٣٧٧.

التورية التي قوام هذه العروس ، يعلو على قصور الجمال.

وهذه اللوحة التي صور فيها ابن عربشاه الصورة الرمزية للسلام التتري بوصف العروسين ، وهذا يمثل قلب دعاوى باطل دعوة تيمور لهذه الجمعية من الملوك والأمراء والنواب ، وكل من في الأرض من أصحاب الخراب .

وبلاغة التصوير في تلك المئذنة الرفيعة والتي هي إشارة للعروس فكم أولاد الملوك صاروا لها مماليك وبناتهم وصائف ، فاستوقف كل من في الحفل جمالها ، فأصبحت علماً للنظارة ، حين يقول : ابن عربشاه **(ونصبوها فصارت بحسها تستوقف النظارة ، ويعلو قامتها ترشد في ذلك المهمة المارة حتى غدت علما للسيارة)**[1].

اللوحة السادسة

وكان أيضا من الحضور من أهل المدينة كل أصحاب الحرف. وكان ترتيبهم على طوائف صفا ، أمام السرداقات وصيوانه ، وخلف ذلك الأسواق ، ثم كان الفرق على الأبواق ، وألبسوا الخيول والجياد أفخر لباس ، وأمر تيمور بإطلاق عنان الرخص فلا مشقة ولا تكليف ، فكانت هذه الإباحة ، في سلام هذا المجتمع والقباحة ، التي بها أباح لهم كل محرم ومكروه ، فكان الاختلاط بين الرجال والنساء ، بلا وازع ولا رقيب ، فكل أحد سواء كان أدني أو أعلي لا يستطيل أحد علي أحد ، ولا شريف على وضيع ، فالكل سواء ، بين هذا المجون والغناء ، وإطلاق العنان لكل مكبوت ومحبوس.

وأباح لهم بعد أن خرج في زينته شرب الخمور ، فكانت لها يواقيت موضوعة، من زبرجد ذلك المرج الاحوي ، مسبولة لكل ناظر وعام ، واختمر عقلهم فبدل أخلاقهم الوحشية لطفا ، للضعفاء هدية ، فاصبح الأسد مثل الظباء وداعة ، وتنزلوا من جحيم المنازلة والمبارزة ، إلى نعيم المغازلة والمداعبة ، فتبدلت الطباع إلى اللطافة والظرافة ، فأصبحوا بعد جورهم يتجاورون ويتحاورون ، فتساوت الرتب، وانقلبت الموازين ، هذا هو السلام التيموري ،

(1) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٣٧٧.

حيث لا غل ولا حسد......

والذي صوره ابن عربشاه بأسلوبية تعبيرية (وأطلق عنان الرخص وأنواع التمتع والملاذ للناس ، فسارع كل طالب إلى مطلوبة – رمزاً لهم العروسان كزهرتين توأمتين للسلام التيموري – اجتمع كل محب مع محبوبه ، من غير أن يتعدى أحد على أحد ، أو يستطيل أعلي من يكون على أدني من يكون من الجند وأهل البلد ، أو يجري تعد ما ، من شريف على وضيع ما)[1] ، فأنّهم صاروا بصورة هذه اللطافة ، والظرافة ، من الغلاظة ، والكثافة. وأنْ يمحو بالصورة الرمزية للعروسين ، ذلك الظلم علي الشعوب ولكن كانوا كما قيل :

بنـــي مســـجد مـــن غيـــر حلـــه * واصـبح بحمـد الله غيـر موفـق

كمطعمــة الأيتــام مــن كــد فرجهــا * لك الويل لا تزني ولا تتصدقي[2]

فصار عدلهم في سلامهم في هذه الجمعية ، على الرغم لم يتعد أحد علي أحد، سوي كان التعدي على قلب محب تعدي عليه طرف أحور، وكان ذلك الصد سوي هذا الهمس كما قيل :

(فَقَبَّلَــــــتْ نِــــاظري تُغــــالطُني وإنّمـــا قَبّلـــت بــــه فاهــــا

فَلَيتْهَـــــا لا تـــــزالُ اوَيَـــــةً ولَيْتَــــهُ لا يــــزالَ مأوهــــا

كُـــلَّ جَـــريحِ تُرْجَـــي سَـــلاَمُتَه ألاّ فــــؤاداً رمتــــه عيناهــــا)[3]

كما ليس هنالك ظلم واعتداء، غير ذلك الظلم الذي وقع على ذلك الخصر النحيل ، الوديع الجميل ، اللين ، وعليه ذلك الردف الثقيل ، وصارت بالحق صاحبته:

(مَظْلُومـة القـد فـي تشـبيهِه غُصُـنا مَظْلومـةُ الريـق فـي تشـبيهِه ضَـرَبا)[4]

([1]) المصدر السابق ، ص ٣٨٠.

([2]) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٨١.

([3]) ديوان المتنبي ، شرح الواحدي ، ص ٧٥٩.

([4]) المصدر السابق ، ص ١٥٥.

وهذه الحرب الضروس التي وقعت على قلب المحب يصورها ابن عربشاه في هذه اللوحة (وتبدلت تلك الغلاظة والكثافة باللطاقة والظرافة ، وأضحوا بعد جورهم يتجاورن ، وبمعني ما قلته يتحاورن .

محا الظلم ما بين الورى سيف عدلنا فلم يتشبث مستغيث بمعتد
سوي قلب صده طرف أحور وخصر نحيل أده ردف أغيد)[1]

وبدأت الحرب الرمزية لهذا السلام في المجتمع التتري ، فيصورها ابن عربشاه : **(فما صار يصول سيف ، إلا أن كان صارم لحظ وهو مع ذلك مكسور)** [2] **أي :**

مَثَّلْتِ عَيْنَيْكِ في حَشايَ جَراحَة فَتَشابهاَ كِلتْاهما نَجْلاءُ[3]

ثم يصور ابن عربشاه **(ولا يجول ذابل إلاّ إنْ كان رمح قد وهو مع ذلك بالعناق مهصور)** [4] أي :

نَفَذَتَّ عَلَيَّ السابِريَّ ورُبَّما تَنْدَقُّ فيه الصَعْدَةُ السَّمْراءُ [5]

وفعل الرمح والسيف في هذه الجمعية، ما هو إلا صورة باعتبارها رمزاً للسلام في المجتمع التتري ، ذلك الذي وصفه ابن عربشاه بأسلوب التمثيل ، في

اللوحة السابعة .

(مما فرعه قدامة من ائتلاف اللفظ مع المعني ، وقال : هو أن يريد المتكلم معني فلا يدل عليه بلفظه الموضوع له، ولا بلفظ قريب من لفظه ، وإنّما يأتي بلفظ هو أبعد من لفظ الأرداف قليلاً ، يصلح أنْ يكون مثالا للفظ المعني المراد ، مثل قوله تعالي (وَقُضِي ٱلأمرُ) وحقيقة هذا أي هلك من قضي هلاكه ونجا من قدرت نجاته، وإنّما عدل عن اللفظ الخاص إلى لفظ التمثيل لأمرين : أحدهما اختصار أمر

---

(1) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٣٧٩.
(٢)المصدر السابق ، ص ٣٧٨.
(٣)ديوان المتنبي ، شرح الواحدي ، ص ١٩٣.
(٤)عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٣٧٨.
(٥)ديوان المتنبي ، شرح الواحدي ، ص ١٩٣.

اللفظ والثاني كزون الهلاك والنجاة كانا بأمر مطاع ، إذ الأمر يستدعي أمرا وقضاوه يدل على قدرة الأمر وطاعة المأمور ، ولا يحصل ذلك من اللفظ الخاص)[١] .

حين يصور ابن عربشاه ختام هذه الجمعية في هذا السلام الذي جعله دلالة الرمزية لصورة واقعية من أخلاق المجتمع التتري، فجاءت القيمة الأسلوبية التعبيرية في هذا التوصيف الرمزي للطبيعة الحية والصامتة في حفل الجميعة حين يقول: (وصرت لا تري إلا عوداً يحرّك **أو** يحرّق **أو** قدحاً يُروّب **أو** يُروّق **أو** شادياً يُغردّ **أو** شارباً يعربد **أو** جارية تَسْقي **أو** ساقية تجري **أو** خدّ ورد ينشق **أو** وردّ خد يعشق **أو** كأس ثغر يُرشف **أو** غصن خصر يقصف **أو** فرص عيش تُغتنم **أو** **لسان حال ينشد ويترنم**

(فـــي ربيـــع الوصــــل لمــــا * آن وفـــي الظبـــي الشـــرود
وســــــرت بشـــــري الصـــــبا * للــــروض تبنــــي بــــالورود
خـــــرت الأنهــــار والأغصـــــان * مالـــــــــت للســــــــجود
واجتمعنـــــــا فـــــــي ريـــــاض * حســـنها يســـبي الوجـــود
فالســـــحاب الصـــــب فيهـــــا * بالحشــــي أمســـى يجـــود
نثـــــــر الـــــــدُّر علينـــــــا * منـــــه يلِّـــــود الغمـــــام
فـــــوق صـــــحن سُندســــــي * فيــــه مليـــا قـــوت جـــام
وثغـــــــور مــــــن عقيـــــق * زانهـــــا حســـــن ابتســـــام
وعيـــــون مـــــن لُجـــــين * نــــــاظرات لا تنـــــــام
وغصـــــون الـــــدوح حفَّتنـــــا * بـــــأنواع النقـــــود
طيرهـــــا غنـــــي عليهـــــا * إذ عـــلا عـــودا وطـــــار
وشــــــذاها ضـــــاع فيـــــه * المســـك لمـــا منـــه غـــار
والصَـــــبَا أمســــــى علـــــيلا * فـــي رباهـــا حـــين ســـار

(١)تحرير التحبير ، ص ٢١٤.

جنـــــة الفـــــــردوس فيهــــــا * وجـــه بـــدري حـــين نـــار
أصـــــبحت جنــــات عـــــدن * تشـــتهي فيهـــا الخلـــود
يالهــــــا مـــــــن عشـــــرة * جـــاءت بـــأنواع الهنـــا
لـــــيس فيهـــا غيــــر لــــثم * وارتشــــــاف واعتنـــــا
وكـــــــؤس دائـــــــرات * وغنـــــــاء وغنـــــــي
لـــــو رآهــــا زاهـــدا مــــن * ريحهـــا كـــان انثنـــي
لـــــم يســـعه عنــــدها مـــن * زهـــــده إلا الجحـــــود
قـــم يـــا نـــديمي اعطنـــي * فالـــدهر لا يســـوي الحـــزن
كـــــاس عـــــيش ينمحـــــي * فـــي مزجهـــا صـــرف الـــزمن
الطـــــلأ والمـــــاء والخضـــرة * والوجـــــــه الحســـــــن
لا تطـــــع فـــــي ذا عـــــذولا * أنـــــه محـــــب كمـــــن
فـــــي حشـــــاه غليــــان * لا تقـــل خـــل ودود) (١)

ومـازال ابـن عربشـاه فـي وصـفه حتـى وصـل إلـى خاتمتـه فجـاء بالنتـائج والمفارقات والمقارنات ، فكان من ذلك أن يجمل نتائج هذا الزخم واللخم ، بحصول الأمن والدعة ، فكان من ذلك حصول المطلوب، باستباحة ما هو غير مباح أو مرغوب ، فكان الزنا في قضاء الأوطار، ووصال المحبوب ، وذهاب المقت فكان تحقيق الرغبات دون رقيب أو حسيب ، مع رخص الأسعار وعدل السلطان وصحة الأبدان ، بيد فيه فساد العقول ، وكان فيه من الأبهى والعظموت ، شي لم يظن ابن عربشاه انه قد حدث لأحد من السابقين والأولين ، وكانت المقارنة بين هذه وتلك بين عرس المأمون وحفيد تيمور في عرسه ، رجح ابن عربشاه عظمة زواج حفيد تيمور، على عظمة عرس المأمون ، لأن المأمون قد فرش في ليلة عرسه تحته من الذهب، ونثر على رأسه اللولؤ المنتخب ، عجباً لم يهتم أحد من حضوره ومعازيمه بالتقاط ما

---

(١)عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٣٧٨ – ٣٧٩.

نثر ، حتى قال فيه أبو نواس شعراً ، وكأنه كان حاضرا مما استحق به أن يوبخه ابن عربشاه في ذكره معرضا لما نظمه في تلك الحادثة التي قال فيها :

كـــان صـــغري وكبـــري مـــن فواقعهـــا حصـــباء علـــى أرض مـــن ذهـــب[١]

ومع ذلك فقد فاقه تيمور في عرس حفيده ، كيف لا وقد أصبحت بنات الملوك في ذاك اليوم وصائف للعروس ، يقمن بتزينها ومرافقتها ، وبنوهم عبيدا كل منهم في مقام العبودية واقف، في انتظار الإشارة بتحقيق مطلب ما ، ولم يكن لهذا العرس أثره في الداخل ، فحسب بل امتد إلى خارج البلاد ، حيث بعث له الملوك الهدايا والرسائل تهنئته بالزواج ، حتى اجتمع عنده حصاد الملك الناصر فرج سلطان مصر والشام ، ومعهم الحمولات ومن جملتها الزرافي والنعام ، ثم رسل الخطا والهند والعراق والفرنج ، ومن سواهم ومن الأقاليم من أعلاهم إلي أدناهم ، وحوت بينهم وبينه تيمور أحوال كل سلام ووئام وتجاوزوا كل الخلافات مع من كانت بينه وبينهم خلافات وزاد الوئام مع أصحاب الوفاق ، فكان أن شاهد الجميع جبروته في ذلك العرس أبهته ، وقد نال حظا من السعد ، فلم يعد يخشى الوبال ولا النكال .

(قريـــــر العــــين لا يرجــــوا الهــــا خلــــي البــــال لا يخشــــى معــــادا)[٢]

فكان سلامه معهم حين أباح لهم المنكرات والمحرمات ، وحدث منها كل ما هو قبيح وشنيع ومستهجن ، فكانت أوامره ذات تنفيذ ، بيد أنها خالفت الشرائع والمشروع ، وابتعدت من الشرع والمسموع ، فجهروا بذلك الفساد عيانا بيانا ، وفخرا وافتخارا .

تبـــدل مـــن ســـفك وهتـــك جريمـــة أحـــل بهـــا مـــا حرمتـــه الشـــرائع[٣]

وبالغ في شروره وانخلع عنه ثوب الحياء، وأفتري وتحدي الشرع بأوامره، فسقي الحضور الخمر بيديه ، وبالغ في ذلك وكأنّه سعي إلى النار برجليه ، تراه يدعو من الملوك والأمراء ،وسلاطين الآفاق والكبراء، وزعماء الجيوش والأنصار، فكانت السقيا بيديه ، كأنه أخاً لهم أو والد ، فكأنّ جلوسهم منه ذات اليمين ، وأما

---

(١)ديوان أبو نواس ، شرح وتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي ، القاهرة ، ص ٧٢.

(٢)عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٣٨٠.

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة.

ذات الشمال فهم النساء ، بيد إنّهن مختلطات مع الرجال ، وكان ديدين هذه الجمعية ، حتى انعكس أمر تيمور على حركاته ، إذ استخف به الطرب، وسط الموسيقي والتي تصدر من الارغون بذاك الناي والطرب ، وكاس تدور ، وساق فاتن ، فوقف مترنحاً من ذهاب العقل بالخمر ، حتى استتد واسندوه، خوفاً من الوقوع ، لكنه ثبت بعد الاستناد على الكبرياء والعجب، بذاك العقل المختمر، بفساد الطرب وعجباً عجاب في قول ابن عربشاه العجب من رقص تيمور في ذاك الطرب :

ومن عجب الدنيا أشل مصفق وأبكم قوال وأعرج راقص(١)

إذ حدثت الأعاجيب في ذلك اليوم ، وانقلبت الموازين والأمور ، وفي رقصه ذاك، نثر عليه الملوك والكبراء ، ونساء السلاطين والأمراء ، الجواهر واللالي ، والفضة والذهب ، وكل نفيس غالي ، ومازال هكذا لاهياً وناسياً ، حتى أخذ من اللهو حصته ، وأدخل العروس في منصته ، وتفرغت هاتيك الجمعية فكانت الختام لذلك الاجتماع بقول ابن عربشاه الذي يصور سعد تيمور ومن معه الذي ضاع :

ما كان ذاك العيش الاسكرة لذاتها رحلت وحل خمارها(٢)

القيمة الأسلوبية التعبيرية والأدبية لتصوير هذه الجميعة جاءت موحية فيما ذكرته حكمة ابن عربشاه، إنّ هذه الجمعية لتيمور كانت سوء خاتمته، إذ عندها مع توالي الانتصارات ، ثم هذا الزواج حينها قد بلغ من دنياه المرام ، بيد قاربت شمس حياته أنْ تزول ، وكان القدر أنْ رشقه الزمان بسهم الموت، وسيف دوران الدهر(٣).

وما للدهر إلاّ سلم فبقدر ما	**يكون صعود المرء فيه هبوطه**
وهيهات ما فيه نزول وإنما	**شروط الذي يرقي إليه سقوطه**
فمن صار أعلي كان أوفى تهشما	**وفاء بما قامت عليه شروطه**

وعند ذلك آفاق من سكرته ، وعاد إلى عسكره ، تراه طالباً الصفح والمغفرة وكان الذي كان.

(١)المصدر السابق ، ص ٣٨١.

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة.

(٣) المصدر السابق نفسه ، نفس الصفحة.

فالقيمة الأسلوبية التعبيرية حققها ابن عربشاه في توظيفه الرمزي للطبيعة الذي جاء لحبك النص في تصوير هذه الجميعة(كالدرُّ المنتظم ، والدرِّ المنسجم) ، في النص الذي أمامنا الذي برزت فيه قوة السرعة الفنية في السبك والحبك وهو خير شاهد حين يقول مصورا هذه الجمعية (ثم شرع في تزويج حفيده أي ولد لولد اولوغ بيك ابن شاه رخ النبيه ، الذي هو في يومنا هذا اعني سنه أربعين وثمانمائة حاكم سمرقند ، من قبل أبيه ، فأمر أهل المدينة ، أن يشرعوا في الزينة، وان يرفع عنهم الكلف والمظالم ، ويعفي عن الطروحات والمغارم ، ويبسط أهم بساط الأمان ، ويعامل الكبير والصغير ، والرفيع والوضيع منهم بالفضل والإحسان ، وان لا يشهر في ممالكه سيف ، ولا يجري فيها ظلم ولا حيف ، وان يخرجوا زينتهم إلى مكان نحو ميل من ضواحي سمرقند ، يدعي **كان كل**.

هواؤه اذكي من المسك ، وماؤه احلي من القند ، كأنه قطعة من روض الجنان ، غفل عنها خازنها رضوان ، قلت شعر:

رعي فيه غزال الترك شيحا فصار المسك بعض دم الغزال

روائح هوائه ألطف من نسيم السحر ، ورواشح مائه أعزب من ماء الحياة صفاء بلا كدر ، وتغاريد طيوره ألذ في السماع من ثناء الناي على الوتر ، قلت :

بساط زمرد نثرت عليه من الياقوت ألوان الفصوص

وقيل :

كأنّ مدور الأزهار فيه ورداً في محاسنه تنضد

صحاف من لجين أو عقيق ومرجان وياقوت وعسجد

فهذي حشوها مسك فتيت وهذي ضمها تبر مبدّد

أراد الروض يجلوها علينا فصاغ لها أكفأ من زبرجد

صباغ القوة الخيالية يتعلم خلط أصباغ النقوش من تشاهير أزاهيره ، ومواشط عرائس الجمال تزين عوائق الكمال ، من تحارير تصاويره ، قلت :

كان رباه سيماه وقت هبة خضم بأنواع الحلي مرصع

أفسح من أمل حريص طامع ، في جاه غني كريم نافع ، أنزه للأبصار والبصائر، من غض شباب زاه زاهر ، ساعده الدهر بوجهه بسيط أدب كامل وعمر طويل ومال وافر ، وهو أحد الأماكن المذكورة ، والمتنزهات التي هي بالنزاهة والرفاهية في الدنيا مشهورة ، ومبدأ السعد الذي جهاته بالنعم موقرة موفورة ، قلت :

شـــــقائقه خـــــدود ناضـــــرات تحشـــت مـــن ســـواد المقلتـــين

عساكر تيمور مع أنها البحر المتلاطم فيه ، تضاهي بني إسرائيل في قطر من أقطار التيه ، ثم أمر الملوك والسلاطين ، وأرباب التيجان من الأساطين ، أن يخرجوا إليه وينبثوا عليه ، وفرز لكل منهم في ذلك المرج مقاماً ، ورتبه ميمنة وميسرة ، وراء وأمام ، وأمر أنْ يظهر ما أمكنه من تجمل وتحسين ، ويضرب ماله من خيام وقباب متكلفة بأنواع النقوش والتزيين ، ثم رتب من دونهم من الكبراء والأعيان ، ورؤساء الأمراء والأعوان ، في ذلك الروض الاريض ، والمرج الطويل العريض ، فاخرج كل منهم ما حواه ، وكأثر نظراءه لينظروا ما قدمت يداه ، وفاخر ذوو الفخار منهم وباهي ، واستقصي في المباهاة والمفاخرة وتناهي ، فنشروا مما طوت صحائف أيامهم ، على جمعهم إياه ، سجلات آثامهم ، من طرف أطراف الأقاليم والأمصار ، وتحف جواهر المعادن والبحار ، ونفائس ذخائر نهبوا عليها النفوس وألهبوا الأنفاس، وعرائس آخائر سقوا عليها الكؤس وحرقوا الأكياس ، ما أزري علي زهر تلك الروضة الخضراء بالأنجم الزواهر ، واسري منظره البهيج سرايات المسرات إلى السرائر ، فزاد حسن حديث ذلك المكان ونما ، وعلا قدره بهجة على كل ارض وسما، ثم أمر بسردقاته فجعلت مركز تلك الدارة ، ونقطة دائرة تلك الأفلاك المدارة ، وهي سور محيط مضروب، على ماله من خيام وقباب منصوب ، له باب واسع ، يُدخل فيه من دهليز شاسع ، على ما به من معان ومغان ، وله قرنان شامخان ، تتكسر لهما الرؤس ، وتذهل عند مشاهدتهما النفوس ، ولأجل هذين كان يلقب ذا القرنين ، ونصبوا له داخل هذا الجناب ، عدة من الخيام والأخبية والقباب ، ومن جملتها قبة أعلاها وأسفلها بالذهب مزركش ، وظاهرها وباطنها بلب الريش مريش ، وأخرى كلها بالحرير محبوكة وبأنواع النقوش وألوان الأصباغ مبنية مشبوكة ، وأخرى من فوقها إلي قدمها مكللة باللالي الكبار ، التي لا يعلم قيمة

أحدها إلا عالم الأسرار ، وأخرى مرصعة بأنواع الجواهر، على صفائح الذهب مدهشة للأبصار والبصائر ، وجعلوا لما بين ذلك سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبواباً وسرر عليها يتكئون ، وبين ذلك الأوراق المنقشة ورواقات الأخبية المزركشة، والفساطيط والأبنية المدهشة ، وفيها مراوح الخيش ، الجالبات لبرد العيش ، والمنافع والمرافق ، والمفاتح والمغالق ، وأظهروا الذخائر الغربية ، وأرخوا على ذلك الستائر العجيبة ، ومن جملتها ستارة جوخ ، كان أخذها من خزانة السلطان بايزيد قطعة واحدة عرضها نحو من عشرة اذرع بالذراع الحديد ، منقشة بأنواع النقوش من صور النباتات والبنيان والعروش ، وأشكال الهوام والطيور والوحوش ، وأشخاص الشيوخ والشبان ، والنساء والصبيان ، ونقوش الكتابة وعجائب البلدان ، والعروق اللاعبة وغرائب الحيوان ، بألوان الأصباغ المبالغ ، في أحكامها وإجادتها أحسن بلاغ ، **كأنّ صورها متحركة تناجيك ، وثمارها الدانية لاقتطافها تناديك** ، وهذه الستارة أحد عجائب الدنيا وليس المسمع كالمرأي ، ونصبوا أمامه سرادقاته بمقدار شوط فرش الصيوان ، الذي يجتمع المباشرون فيه وأرباب الديوان ، وهو جتر عالي الذري، شامخ في الهوي، له نحو من أربعين اسطوانة ، وعواميد وأسوار شيدوا عليها أركانه ، وسددوا بنيانه ، **بتسلق الفراشون إلى أعلاه كالقردة ، كأنهم مسترقوا السمع من الشياطين والمردة** ، ويتعاودون على سطحه، حين يرفعونه بعد بطحه.

وأخرج أهل المدينة ما عبوه ، من تجمل وزينة ونصبوه ، تجاه تلك السرادقات على مد البصر ، وتأنق كل واحد من أهل البلد بما وصلت إليه القوي والقدر ، واجتهد كل ذي حرفة بما يتعلق بحرفته ، وبالغ كل من أرباب الصنائع فيما يليق بصنعته ، حتى إن ناسج القصب **اخرج فارسا مكمل الاهبة واستقصي في إكمال هيئته حتى أظافيره وهدبه، واستوفي دقائق ما يتعلق به من الآلات، كقوسه وسيفه وسائر الاستعدادات ، كل ذلك من القصب ، ورفع ذلك في مكانه من غير تعب ونصب** ، وصنع القطاطون من القطن **مئذنة رفيعه ، محكمة بديعه ، ذات قدّ شيق ، وصنع وثيق ، ومنظراً أنيق ،**

ببياض جسم يسموا على الحور ، وكمال قوام يعلوا على القصور ، ونصبوها فصارت بحسنها تستوقف النظارة ، وبعلو قامتها ترشد في ذلك المهمة المارة ، حتى غدت علما للسيارة ، وعلى جوامع تلك الأبنية منارة .

وكذلك أهل الحرف من الصواغين ، والحدادين والخفافين والقواسين ، وسائر الطوائف ، وأرباب الملاعب واللطائف ، ولقد كانت سمرقند مجمع الأفاضل ، ومحط رجال أهل الفضائل ، فرتبت كل طائفة ما أخرجته علي حدة في مكانه ، أمام سرداقاته وصيوان ديوانه ، ونصبت وراء ذلك كله الأسواق ، وضربت بين الناس بوقات الأبواق ، وزينت الفيول وجياد الخيول بأفخر لباس ، **وأطلق عنان الرخص والتمتع بأنواع الملاهي والملاذ للناس ، فسارع كل طالب إلى مطلوبه ، واجتمع كل محب منهم مع محبوبه ، من غير أنّ يتعدّي أحد على أحد أو يستطيل أعلي من يكون على أدني ، من يكون من الجند أهل البلد أو يجري تعد ما من شريف ما على وضيع ما.**

ولما استتبت الأمور على مراد تسويل قرينته ، أخذت الأرض زخرفها وازينت من جنده وأهل مدينته ، توجه إلى ذلك المرج علي وقاره وسكينته ، وخرج على قومه في زينته – (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) (١)– ثم أمر أن تجري يواقيت الصهباء ، على زبرجد ذلك المرج الاحوي ، وسبلها لكل ناظر وعام ، فسبح في تيارها كل خاص وعام ، **فدارت في سماء تلك الأرض للسرور أفلاك ، وهبطت في افقها بوحي اللذات من أفلاك الملاحة أملاك** ، فأصبحت تلك الأسود الحواذر وهي ظباء جواذر ، وتنزلوا من جحيم المنازلة إلى نعيم المغازلة ، وتبدلت تلك الغلاظة والكثافة باللطافة والظرافة ، وأصبحوا بعد جورهم يتجاورون وبمعني ما قلته يتحاورون :

---

(١)سورة القصص ، الآية : ٧٦.

محـا الظلـم مـن بـين الـورى سيف عـدلنا فلـــم يتشـــبث مســـتغيث بمعتـــدي
سـوي قلـب صـب صـاده طـرف احـور وخصـــــر نحيـــل اده ردف اغيـــد

فصـار يصـول سيف إلا إن كان صـارم لحظ وهو مع ذلك مكسور ، ولا يجول ذابل إلا إن كـان رمـح قد وهو مـع ذلك العنـاق مهصـور ، وصـرت لا تـري الأعـودا يحرك أو يحرق ، أو يروب أو يروق ، أو شادياً يغرد ، أو شاربًا يعربد ، أو جاريـة تسقي ، أو ساقية تجري ، أو **خد ورد** يعشق ، أو **ورد خد** ينشق ، أو كأس ثغر يرشف ، أو غصن خصـر للعناق يقصف ، أو فرص عيش تغتنم ، أو لسان حال ينشد ويترنم :

فـــي ربيـــع الوصـــل لمـــا أن وفـــي الظبـــي الشـــرود
وســـرت بشـــري الصـــبا للــــروض تنبـــئ بـــالورود
خـــرَّت الأنهـــار والأغصـــان مالـــــــت للســـــــجود
واجتمعنـــا فـــي ريـــاض حســـنها يســـبي الوجـــود
فالســـــحاب الصـــــب فيهـــا بالحشـــي أمســـى يجـــود
نثـــر الـــدر علينـــا منـــــه بلـــــور الغمـــــام
فـــوق صـــحن سندســـي فيـــه مليــــاقوت جـــام
وثغـــور مـــن عقيـــق زانهـــا حســـن ابتســـام
وعيـــون مـــن لجـــين نـــــاظرات لا تنـــــام
وغصـــون الـــدوح حفتنـــا بـــــأنواع النقـــــود
طيرهـــا غنـــي عليهـــا إذ عـــلا عـــود وطـــار
وشـــذاها ضـــاع فيـــه المســـك لمـــا منـــه غـــار
والصـــبا أمســـى علـــيلا فـــي رباهـــا حـــين ســـار
جنـــة الفـــردوس فيهـــا وجـــه بـــدري حـــين نـــار
أصـــبحت جنـــات عـــدن تشـــتهي فيهـــا الخلـــود
يالهـــا مـــن عشـــرة جـــاءت بـــأنواع الهنـــا

لـــــيس فيهــــا غيـــر لــــثم وارتشــــــــــاف واعتنـــــــــا

وكــــــــؤس دائـــــــرات وغنــــــــــاء وغنــــــــي

لـــو رآهـــا زاهـــد مـــن ريحهـــــا كـــــان انثنــــى

لـــم يســـعه عنـــدها مـــن زهـــــــده إلا الجحـــــــود

قـــم نـــديمي أعطنـــي فالـــدهر لا يســـوي الحـــزن

كـــاس عـــيش ينمحـــي فـــي مزجهـــا صـــرف الـــزمن

الطـــلا والمـــاء والخضـــرة والوجـــــــــه الحســــــــن

لا تطــــــع عــــــذولا انـــــــه حـــــــب كمـــــــن

فـــي حشـــاه غليـــان لا تقــــــل خـــــــل ودود

فحصل الأمن والدعة ، والفراغة والسعة ، ورخص الأسعار وقضاء الأوطار ، واعتدال الزمان ، وعدل السلطان وصحة الأبدان ، وصفاء الوقت ، وذهاب المقت، وحصول المطلوب ، ووصال المحبوب : مصراع.- "**وعنـد التنـاهي يقصـر المتطـاول** " واتفق لـه في ذلك العرس من الأبهة والعظمة ، والسطوة والجبروت ، شي لم أظنه حصل لا أحد من الخلفاء المتقدمين ، ولا يقع فيما بعد لا حد من المتأخرين ، وان كان المأمون فرش تحته ليلة عرس حصير من الذهب ، ونثر على رأسه اللولؤ المنتخب ، ولم يلتفت إليه أحد ، ولم يلتقط من ورائه ولا من بين يديه ، حتى قال قاتل الله أبا نواس ، كأنه كان حاضرا حيث قال:

كـــأنّ صـــغرى وكبـــرى مـــن فواقعهـــا حصباء درّ على أرض من الذهب

لكن تيمور كان في عرسه ذاك بنات الملوك وصائف ، وبنوها عبيداً كل منهم في مقام العبودية واقف ، واجتمع عنده قصاد الملك الناصر فرج من مصر والشام ، ومعهم الحمولات والتقادم ومن جملته الزرافي والنعام ، ورسل الخطا والهند والعراق والدشت والسند وبريدي الفرنج ومن سواهم ، وقصات كل الأقاليم أقصاهم أدناهم ، ومن كل مخالف وموافق ، ومعادي ومصادق ، فأخر الجميع حتى شاهدوا عظمته ،

وعاينوا جبروته في ذلك العرس وأبهته ، فباشر ذلك على تلك الحال ، لا يخاف النكال ولا يخشى الوبال ، قلت شعر :

قريـــــر العـــــين لا يرجـــــوا إلهـــــا خلـــــي البـــــال لا يخشـــــى معـــــادا

يتناول المحرّمات ويبيحها ، ويروج عنده مستهجنها وقبيحها ، مهما أمر به جماعته في ذلك امتثلوه ، يتباهون في كل قبيح عملوه ، ولا يتناهون عن منكر فعلوه، قلت شعر :

تبـــدّل مـــن ســـفك وهتـــك جريمـــة أحـــل بهـــا مـــا حرمتـــه الشـــرائع

وجعل يدعو الملوك والأمراء ، وسلاطين الآفاق والكبراء ، وقواد التوامين، وزعماء الجيوش والمقدمين ، ويسقيهم الكاسات بيده ، ويحل كلا منهم محل أخيه وولده ، ويخلع عليهم الخلع السنية ، ويجزل لهم المواهب والعطية ، ويجلس كلا منهم بجنبه ذات اليمين ، وإما ذات الشمال فإنها للنساء والخواتيم ، فان النساء لا يستترن من الرجال ، وخصوصا في مجالس الاجتماع والاحتفال ، واستمر في ذلك بين جنك وقانون ، وعود وارغنون وناي مرقص مطرب ، وشاد معجب ومغرب ، وساق فاتن ودهر موات وهوى متبع ، وأمر مستمع ، وشمس تدور ، على نجوم وبدور ، وكاس تملا وكيس يفرغ ، وأمر يمضى وأمل يبلغ ، حتى أستخفه الطرب والبطر ، واستفزه النشاط والأشر ، فضبع إلي من استعضده، ومد للنهوض إليه يده ، فتعاضدوا لمعاونته ، وتعاونوا على معاضدته ، وحين استوي قالصا ، تهادي بينهم بشيبته وعرجته راقصاً ، قلت :

ومـــن عجـــب الـــدنيا أشـــل مصـــفق وأبكـــم قـــوال وأعـــرج راقـــص

فنثر عليه الملوك والكبراء ونساء السلاطين والأمراء الجواهر واللآلي ، والفضة والذهب وكل نفيس غالي ، ولم يزل على ذلك استوفي من اللهو حصته ، ودخل العروس منصته ، وانقضت تلك الأمنية ، وتفرقت هاتيك الجمعية ، قلت شعر :

مــــا كــــان ذاك العــــيش الاســـكرة لـــذاتها رحلـــت وحـــل خمارهـــا) [1]

ومـن هـذه الصـورة التـي بـرزت مـن براعـة التوظيـف الكلـي للطبيعة والرمزي لابن عربشاه ، في وصف هذه الجمعية ، فجاءت القيمة الأسلوبية التعبيرية والأدبية في جماليات هذا النص ، الذي صوره لنا ابن عربشاه ملء إحساسنا مبينا معالم شاعريته ، من خلال نثرية الخطاب الفني ، بأنه ناثراً بالحق فناناً بارعاً ، في هذا الإبداع الذي كان .

المبحث الثاني

ابن عربشاه شاعراً

المطلب الاول : شاعريةابن عربشاه في ضوء القيم الروحية والإنسانية في قصيدته :

والـــــــدهر دولاب يـــــــدور والـــــدهر مكـــــار غيـــــور

لما كان ذكر تيمور وأخباره ، وتبيان حاله وأحواله ، من مولده إلى وفاته ، بعرض حروبه وانتصاراته ، إلى أن وافاه الأجل الذي انهي حياته ، ووضع حداً لهذا العظموت والجبروت ، هو من دواعي ابن عربشاه لوضع كتابه عجائب المقدور في نوائب تيمور ، استخلاصاً للعبر والعظات فيما يجري به القدر ، لكل جبار ظالم ، كما جري على تيمور في رقاده بعد العز تحت التراب بين الصخور في صندوق من خشب ، وبعد أنْ أفاض ابن عربشاه في عرضه لأحوال حياته ، من ذكر الأخبار من حروب وحوادث وبعد أنْ ذكر الباحث ما استدعاه من بعض الحوادث والتشخيصات ، كان لابد من وقوفه لأخبار وفاته ، كيفيه وتاريخاً ، ومما صاحبها من حوادث ، (إلى أن خرجت روحه إلى بارئها ، في ليلة الأربعاء ١٧ شعبان

---

(١)عجائب المقدور في أخبار تيمور ، احمد محمد بن عربشاه الدمشقي ، طبعة القاهرة ١٢٨٥هـ ، الطبعة الأولى ، ص ١٥٨ – ١٦٤.

٧٠٨هـ – ١٨ شباط ١٣٠٥م ، ثم دفن بعد أربعة أيام في مقبرته التي أقامها بنفسه في سمرقند) [١] ، وعبر ابن عربشاه عن ما اعتراه من ذلك الحدث – انتقال تيمور إلى الدار الآخرة – بشاعريته التي يسكب عبرها في سطور قصيدته – عن ذلك الحدث – لكنها بالتزام ديني كشاعر ملزم نفسه ، داعية لله لأحداث القدر ، لاسيما دعوته بالموت ، وأثره في الدعوة لله ، عقيدة وشريعة ، والزم نفسه بهذا الالتزام في هذه القصيدة ، مادام الالتزام الديني له ضروب شتي في سفر الدعوة لله ، ولكن هنا مثل ما فعل ابن عربشاه مخرجاً لنا دلالة من دلالات المصطلح للالتزام الديني (إذا وقف الشاعر المسلم أمام وفد من الوفود ، يعرض له مبادئ الدين الجديد ، وأصوله ، فهو أدخل حينئذ في إطار الالتزام الديني ، وإذا ما وجه شعره في – أساليب جديدة – لم يكن للجاهلية بها عهد ، كأن يصرفه – كما صرفه ابن عربشاه الشاعر في هذه القصيدة بمنهج العقيدة التي بانت بأسلوب – الزهد والدعوة إلى التقشف ، أو ضبط للسلوك الاجتماعي في معاملة الناس بالحسنى ، أو الانصراف عن فتن الدنيا وزخرفها ، أو الانشغال بقضية المصير ، أو قضية الأرزاق ، أو مشاهد للقيامة والبعث والنشور والجنة والنار والثواب والعقاب ، فهو بلا شك يدور في عمق متميز من أعماق هذا الالتزام الديني وإذا ما تحول بشعره إلى واعظ أو مرشد أو مصلح أو خطيب ، يقف عند دائرة الإفهام والإقناع لا يتجاوزها ، يكون قد وظف شعره توظيفاً تاماً)[٢] ، كما وظفه ابن عربشاه في هذه القصيدة الذي ابرز فيها باسلوبيته البارعة

---

(١)عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٣٩٣ – ٣٩٤ (الهامش).

(٢)قضية الالتزام في الشعر الأموي ، د.مي يوسف خليف ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٩٨٩م ، ص ٢٦٥-٢٦٦

كل مكنونات نفسه وخبرة حياته وتجاربه ، وعما استلهمه من العظات والعبر ، وكان للباحث أن يعكف على دراسة هذه القصيدة على ضوء منهج العقيدة للقيم الروحية للدعوة لله ، واثبات شاعرية ابن عربشاه بها ، اعتماداً على دعوته لمنهج الاستقامة على الإسلام والإيمان، الذي كان خاتمة كتابه فاكهة الخلفاء ، ويمثل جوهر العقيدة الذي بني عليها أهداف دعوته في الكتاب .

فالقيمة الأسلوبية والتعبيرية لابن عربشاه في قصيدته الدهر دولاب يدور ، أبرزت لنا شعراً للناس على مر دوران الدهر لا شعراً يرويه الناس ويقال انه يعني قائله وحده ، لان شعر النفس يعني كل نفس ، والشعر الذي لا يعني قراءه لا يستحق أنْ ينظم ، وما من شعر نظم ، إلا وهو بهذا المعني ، شعر اجتماعي – وكما جاء به ابن عربشاه في قصيدته – هذا لأنه تبين حالة المجتمع ويؤثر فيها ، وان لم يكن اجتماعيا ، بمعني انه لم يخاطب الأمة او يدون حادثاً قومياً [١] .

وهذا ما جاء ابن عربشاه في شعره الحكمي في هذه القصيدة التي عني بها دوران الدهر ، الذي هو الحق الموجود ، الذي لا يحتاج إلى إثبات من اللاموجود، موضع عبادة ، منفعة للنفس البشرية ، للوصول لحلاوة الإيمان ، وواقعية الإحسان (إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) [٢].

حدثنا يَحْيَ بن بُكَيْرُ حدثنا اللّيثُ عن يُونَس عن ابن شهاب أخبرني أبو سَلَمَة قَالَ : قَاَل أبُو هُرَيرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : قال اللهُ : يُسَبُّ بَنُو آدُمْ الدّهْرُ ، وأنا الدّهْرُ بيدِي اللّيَلُ والنَّهارُ) [٣] .

فلذا يقول ابن عربشاه : ولكن لا ينبغي للعاقل أن يغفل عن حوادث الدهر ، ولا يسند ظهره لكواذب العصر ، فان طوارق الآفات ، وخوارق العادات ، ومحن الزمان ، وفتن الدوران ، محتجبة وراء ستار ، ومستورة في أنواع أطوار ، من الفلك الدوار ، له في علم الأدوار ، لعيبات أبكار ، يبرزها للنظار ، فلتعب بالأفكار ،

---

(١)أراء في الآداب والفنون عباس محمود العقاد ، حديث تلفزيون الطهران ، ١٩٦٢م ، ص ٢٤١.

(٢)سورة النحل ، الآية : ١٢٨.

(٣)صحيح البخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، طبعة سلطانية ، الجزء الثامن ، المطبعة الأميرية بولاق بمصر ، ١٣١٢هـ ، ص ٤١ – ٤٢.

ويذهب في سنا برق مخاوفها إبصار الأبصار ، ويخطي حركاتها الرأي المصيب ، ويدهش في دجي حندسها الفطن الأريب ، وقد بادت الفكر ، وعجزت القوي والقدر ، وحارت عقول البشر دون إدراك ما يبرزه كل وقت من الصور ولم يعهد الدهر الخئون ، والزمان المجون إذا استقام أو قزل ، أو جد او هزل ، أو أمر بنازل فنزل ، أو ولي أو عزل ، أو أقبل أو أعتزل ، أو نقص أو غزل ، أن يرسل قبل ذلك منذرا ، أو مبصراً أو محذراً ليستيقظ النائم ، أو ينهض الجاثم أو يتحرك القائم ، وإنما يحطم بغتة ، ويهجم في سبكته ، ويأخذ علي بهته،فلا يفلت منه فلته،ولا يمهل إلى لحظة ولا لفته[١]،(فالدهر دولاب يدور والدهر مكار غيور).

فكأنَ أسلوبه في هذه القصيدة مع وحدة الموضوع ، أن عمل بأسلوبيته التعبيرية على ترتيب الحوادث ، وفقاً لسير القصيدة باستعمال الرمزية الموضوعية ، كما يفعل قدماء الشعراء ، حين يقول :

والدّهُر دولابٌ يدورُ ۞ فِيه السّرُورُ مع الشّرُورِ
بَيْنَا الفَتّي فَوْقَ السَّمَا ۞ وإذا بِهِ تَحْتَ الصُّخُورِ
كَمْ مِنْ شُمُوسٍ فِي سَمَا ۞ فَلَكِ العُلاَ لَهَا يدُوُرِ
لَمَّا اسْتَوَتْ فِي عِزِّهَا ۞ زَالَت وأكْسَفَها الفُتُورُ[٢]

هذه الأبيات هي مقدمة قصيدته ، والتي أول ما تبادر إلى ذهنه الدهر وتصاريف أحواله ، وتقلباته دلالة على إنه لا يستقر على حال ، وهذه هي حال الدنيا وهذه الدار ، والتي أبى آدم عليه السلام إلا أن يسكنها بفعلته عندما نهاه الله عن الأكل من تلك الشجرة ، والعيش في الجنة ، حيث لا جوع فيها ولا عطش ، لكنه ظلم نفسه واكل منها ، هو وزوجه حواء ، فكان لهذه الخطأ النزول إلى الأرض ، (قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)[٣] (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى

---

(١)فاكهة الخلفاء ومخالفة الظرفاء ، رجب النجار ، ص ٤٥٧-٤٥٨.

(٢) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٣٩٤.

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٣٨

فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى) [١] ، حيث الجوع والعطش والابتلاء، ودوران المحن وعدم الاستقرار ، من حال إلى حال كحال الساقية الدوار ، والتي أشار إليها بقوله : **الدهر دولاب يدور** ، والدوران دلالة على عدم الركوب ، والاستقرار ، فهو كالكرة الأرضية في دورانها بين غروب وشروق ، ولان ابن عربشاه لو قدر له أدبيا أن يفند قصيدته شرحاً أدبيا تفصيلاً لاستدعي الآيات القرآنية ، كحاله في كل مؤلفاته ، وكان لسان حال افتتاحه بهذا البيت يستدعي بعضا من الآيات القرآنية ، يري الباحث في استعراضه سابقا لفحوي البيت الاول قضية آدم وحواء ، وأكلهما من الشجرة في الجنة ، ثم النزول إلى الأرض ، حيث الشرور مع السرور ، في دوران على حياة الإنسان ، منذ مولده إلى وفاته ، ولولا الإيمان في حياة المؤمن ، لكان ذلك أدعي إلى الحياة في ظل الأحزان .

ثم انتقل إلى وصف حال الأشخاص من حيث العلو والرفعة ، ثم أدرك الموت لهم ، وانطفاء جذوة حياتهم ، (أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ)[٢] .

فكان إدراك الموت لفترة الشباب والفتوة ابلغ تعبير ، دون التفريق بين الصغير والكبير ، إذ يقول الله تعالي : (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ) [٣] .

جاء أسلوبية تعبيره صادقة الوصف قوية العاطفة جزلة التعبير حين يقول :

بَيْنَـــا الفَتَـــي فَـــوْقَ السَّـــمَا وإذاً بِـــهِ تَحْـــتَ الصُّـــخُور

فكانت استعارة السما للعلو والرفعة ، ثم ما لبث الموت أن أفضى به إلى الأرض حيث الصخور ، فيها ثأويا بعد أن أدركه قاصم الجبابرة ومفرق الجماعات.

أَيْـــنَ الأكَاسِـــرَة الجَبَـــابِرَة الأُولَـــى كَنَـــزوُا الكُنُـــوزَ وَمَـــا بَقِيَـــا ومَـــا بَقُـــوا
مَـــا كُـــلُّ مَـــنْ ضَـــاَق الفَضَـــاءُ بِجَيْشِـــه حَتَّـــى ثَـــوّي فَحَـــوَاهُ لَحْـــدٌ ضَـــيِّقُ
المَـــوْتُ آتٍ والنُّفُـــوسُ نَفَـــائِسٌ والمُسْـــتِعزْ بِمَـــا لَدَيْـــهِ الأَحمْـــقُ[١]

([١]) سورة طه ، الآية : ١٢٣

([٢]) سورة النساء ، الآية : ٧٨

([٣]) سورة غافر ، الآية : ٦٧

فجاءت أسلوبية ابن عربشاه وصف العلو والرفعة بالسماء ، إلا أن يأخذ من كواكبها من هو اشد لمعاناً وإشراقا ، فما كان له إلا أن اختار كوكب الشمس ، ثم ما لبث أن جعل العلو والرفعة هما الفلك الذي تدور فيه هذه الشموس ، إذ يقول :

كَـــمْ مِـــنْ شُـــمُوسٍ فِـــي سَـــمَا فَلَـــكِ العُـــلاَ لَهَـــا يَـــدورُ

وما لبث أن جاء بالموت وهو يباغتها ، وبالفناء يحطم وجودها ، ودورانها (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) [٢] .

كما يعتري الشمس من حالة الكسوف الذي يذهب بإشراقها ونورها ، بعد استوائها في عزها ، من حيث علوها ورفعتها ، فكان كسوفها هو العثور وهو بمعني الموت ، الذي أزال الأشخاص بعد أن لمع شأنهم وارتفع كارتفاع الشمس ، ثم طرأ عليها ظاهرة الكسوف ، فأطفأ إشراقها ولمعانها ، فكان الموت بمثابة الفتور لها.

ثم عطف على ذكر المملوك وأحوالهم بين الرعية من ظلم أو عدل ، ولكنه قصر وصفه على حال ملوك هم على شاكلة تيمور ومن شابهه ، من حيث ظلم الرعية ونشر الفساد وإراقة الدماء ، دون المراعاة للحرمات من النساء والعطف على الأطفال والضعفاء ، وحياتهم الخاصة السياسية من حيث المكر والنفاق ، في صراعهم حول السلطة ، فقال ابن عربشاه واصفاً كل ذلك :

وَمَلُـــوك دُنْيَـــاَ أُضْـــرَمَتْ مِـــن نَّـــارِ عَـــدّوَاهَا البُحُـــور

مَلَكُـــوا الـــبِلاَدَ أَهْلَهَـــا مَاضِـــي الأوامِـــر والأمُـــور

أغْـــرَاهُمُ الـــدَّهْرُ الخَئُـــونُ وغَـــرَّهُمْ بِـــاللهِ الغَـــرُور

ضَـــحِكَ الزَّمَـــانُ بِثَغْـــرِهِ لَهُـــمُ وَقَـــدّ مَلَكُـــوا الثَّغُـــور [٣]

ثم شرع ابن عربشاه في الوصول إلى مبتغاه ، وذلك بالحديث عن جور الملوك وظلمهم وتسلطهم ، فقال :

وَمَلُـــوك دُنْيَـــا أضْـــرَمَتْ مِـــن نَّـــار عَـــدَّوَاَهَا البُحُـــور

---

(١) ديوان المتنبي ، شرح الواحدي ، ص ٣٩.

(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٤

(٣) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٣٩٤.

شارحاً نوعية معينة من الملوك ، وهم ملوك الدنيا كالذي (حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [1] ، وليس ملوك آخرة يطبقون شرع الله (وقل الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً) [2] ، ويعملون على سعادة وهناء رعاياهم ولكنهم ملوك دنيا ، ملؤهم حب الدنيا (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) [3] .

وهؤلاء الملوك أشاعوا الفساد والحروب ، فكانت النار التي أوقدوها من حب هذه الدنيا ، عجباً أن عجزت عن إطفائها ماء البحور ، لأنها هي أيضا أضرمتها بالنار ، وأما أهل هذه البلاد فانهم كانوا لهم مماليك ، سارت عليهم الأوامر والأمور ، وقهر أي احتجاج أو مقاومة ، فقال ابن عربشاه :

مَلَكُـــــوا الـــــبَلادَ أَهْلَهَـــــا مَاضِـــــي الأوامِـــــر والأمُـــــور

ويتساءل ابن عربشاه لماذا فعلوا ذلك ، فكانت إجابته دلالة على حالهم إذ يقول:

أغّـــــرَاهُمُ الـــــدَّهْرُ الخَئُـــــونُ وغَـــــرَّهُمْ بِـــــاللهِ الغَـــــرُور [4]

فعاد ابن عربشاه لوصف الدهر ، وعدم ثباته واستقراره ، فوصفه بالخيانة لعدم الأمن فيه ، وعدم ثباته لأحد ، فكان الغرور وعدم التعقل في فهم هذا الدهر وتقلباته ، فكان اتباعهم لمسلك الغرور كالشيطان الذي استولي عليه الغرور ، عندما أمره الله بالسجود فأبى (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٨.

(٢) سورة الإسراء ، الآية : ١١١.

(٣) سورة الأعلى ، الآية : ١٦– ١٧.

(٤) ينظر قصيدته علي لسان الراوي في كتابه سيرة الظاهر بيبرس ، م١ ، ج١ ، ط٢ ، مطبعة المعاهد الجمالية ، مصر ، ١٩٢٣هـ ، ص ٤١ ، والتي مطلعها :

أيها الدهر الخئون كم ارميتنا بكل مجون

وكم فينا فعلت فعلاً وكم أخذت منا مصون .

مِنَ الْكَافِرِينَ) [1] ، فكان ضحك الزمان لهم في عصرهم ، ذاك حتى دانت لهم البلاد ، وملكوا بذلك أماكن العدة والعتاد لجيش العدو .

ضَحِكَ الزَّمَانُ بِثَغْرِهِ لَهُمُ وَقد مَلَكُوا الثُّغُور

وبعد أن دانت لهم البلاد وأهلها ، وامضوا فيهم أوامرهم وأمورهم ، ماذا فعلوا ، فيقول ابن عربشاه :

فَغَدَوْا ذِئاباً فِي الأذَى وَغَدَوْا أُسُوداً فِي الشُّرُور [2]

فاستعار ابن عربشاه بأسلوبية تعبيرية طبائع بعض الحيوانات وخصائصها، فكان اختياره للذئب ومكره الذي يورث الأذى ويرسي الغدر ،هو إحباط الحالة المعنوية ، كما استعار بأسلوبية تعبيرية صورة الأسد في خصيصته ، وهو إلحاق الشر دون الخير. وفي ضحك الزمان لهم أوغل لهم الزمان ، فرقصوا على ألحانه مثل الذي يرقص دون إحساس أو شعور ، يدفعه لهذا الرقص بل هو رقص غير مركز أو مهذب ، فكانوا بذلك أشبه بالحجارة او اشد قسوة (كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) [3] ، (كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) [4] .

بل صار فعلهم ومكرهم وخداعهم مثل تلك الشخوص التي يخدعون بها الطيور في المزارع ، لكي لا تأكل الثمار والحبوب فتحسب أن هذا الخيال هو تشخيص :

غَنَّي لَهُمْ فَتَرَاقَصُوا مِثْلَ الشُّخُوصِ بِلاَ شُعُور [5]

---

(1) سورة البقرة ، الآية : ٣٤.

(2) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٣٩٤.

(3) سورة البقرة ، الآية : ٧٤.

(4) سورة النور ، الآية : ٣٩.

(5) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٣٩٤.

فأسلوبية ابن عربشاه في جعله الزمان كمن هو شئ محسوس يغني ، وفي وسطه الراقصين وهو يغني لهم ، وهم يرقصون كمثل الشخص الذي يعيش بلا شعور ، وماذا يهمه ، فهو لا إحساس له كالميت ، وإنْ كان الميت له شعور خفي. وما فعلوا ذلك إلاّ لظنهم أنّ هذه الأحوال لن تتبدل ، وأنّها طوع بنانهم ، وإنّ ما نالوه هو في زيادة وليس إلى غوران أو نقصان ، (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [(١)]:

وَتَوَهَّمُـــــــــــوا أَنَّ الزَّمَـــــــــان مُطَـــــــاوِعٌ غَيْـــــــرَ النَّفُـــــــور

أو أَنَّ مَـــــــا نَـــــــالُوه مِـــــــنْ دُنْيَـــــا يَفُـــــــورُ ولاَ يغُـــــــور [(٢)]

فكأنّ تقسيم ابن عربشاه للزمان بأنَّهُ مطاوع ونفور ، ونتيجة لذلك كانت حياتهم ضرب من الصراعات والمؤامرات والخصومات .

فاستعار ابن عربشاه بأسلوبية أدبية، لتلك الصفات أشباهها من الحيوانات فقال:

فَتَواثَبُـــــــــوا وتَضَـــــــارَبُوا وَتكَـــــالَبُوا شِـــــــبْه النَّمُـــــــور

وَتَلاَكَـــــــــزُوا وتَلاَحَـــــــزُوا وتَنَـــــاجَزُوا الضَّـــــرْبَ الهَصُـــــور

وتَنَـــــــاحَرُوا وتَـــــــدَابُروا وتَنَـــــاقَرُوا نَقْـــــرَ النُّسُـــــور [(٣)]

فكانت أوصافه هذه وصف لحال الحيوانات عند تعاركها مع بعضها ، فكانت صفات الضرب والوثوب من النمر ، والتلاكز من الأسد الهصور ، ومن ثم خلافاً للضرب ، عطف على اللسان وأدواته ، فاستعار لذلك النسر في نقره وتناقره إقبالا وتدابر ، ولو صفت أحوالهم وران عليها الهدوء والسكينة والسلام ، فإنما ذلك نوعاً من الزور والبهتان ، وبالغوا في حب الدنيا وسلطانها فكان تهافتهم على نارها و تصوراً بأنها نور ، بلْ أنّها خدعتهم بزيف الأماني ، وصورت لهم أنّ الدهر دولاب لا يدور ، بل هو في ثبات وصبور :

هَـــــــذَا وإنْ يَتْصَـــــالَحُوا يَتَصَـــــافَحُوا مِينـــــــاً وَزُور

---

(١)سورة القصص ، الآية : ٨٨.

(٢) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٣٩٤.

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٩٤ – ٣٩٥.

فَتَهَـــــــافَتُوا فِـــــــي نَارِهَــــــا متصــــــورين النَّـــــــار نُــــــور

وفجأة وبلا مقدمات كشف الدهر عن حقيقته بأنه دولاب يدور بين السرور والشرور ، فأصابهم بمصائبه وصروفه ، كالصقر الذي إذا رأي جماعه من الطيور في فرحها ومرحها ، انقض عليها خاطفاً وغاصباً ، واستعار للموت لفظ الصقر، حيث إنْ الموت آتى ، والطيور في شغل عن النظر إلى السماء ، فهي في أعشاشها آمنة غير مترقبة لغدر الزمان وصرفه ، (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ)[1]:

بينـــــا همــــوا فـــــي عِــــزِّهِم والـــــــدَّهرُ مَّكـــــــارٌ غَيُــــــور
اِنْقَــــــضَّ فِــــــيِهْم صِــــــرْفُهُ كالصَّـــقْرِ فِـــي دَقْـــلِ الطُّيــُور[2]

فاثبت ابن عربشاه لخصائص الدهر من المكر والإغارة ، حين أوغل فيهم مكره ودمر أحوالهم ، وبدل أفراحهم ، فكانوا كاللحم يلقي للصقور فتأكله ، بل هنا الصقر بمثابة الموت ، الذي لم يمنعهم منه كرسي العرش ، ولا القصور ، ولا الجيوش ، (أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَا لِهَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً) [3] ، فأخذهم الموت واصبحوا من سكان القبور وانمحت آثارهم .

وأمســـوا كـــأحلام النيـــام نعـــيمهم وأي نعـــيم خلتــــه لا يزايــــل[4]

الذي كان في حياتهم ، ولم يبقي من أسمائهم سوي أفعالهم ، وهي التي بمثابة الذكر لهم ، إن كانت خيراً فخير ، وان كانت شراً فشر ، فإنما بحسب العمل يكون الذكر ، فقال ابن عربشاه :

أمْسُـــــــوا وَكُــــــــلٌّ مِـــــــنْهُمُ كــــــاللَّحْمِ يُلْقَـــــي للصَّــــــقُور

---

(1)سورة آل عمران ، الآية : ١٨٥.

(2) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٣٩٥.

(3)سورة النساء ، الآية : ٧٨.

(4) شرح ديوان لبيد العامري ، د. إحسان عباس ، دار القلم الكويت ، ١٩٦٢م ، ص ٢٦٦.

لاَ مَلُــــــكْ ردَّ يَـــــــدَ الـــــــرَّدَى عــــــــنْهُمُ ولاَ مَلَـــــــكُ يَــــــدوُر
كَـــــــلاً ولا جَـــــيْشٌ ولا ولَـــــــدٌ ولا مَـــــــــــدْدُ نَصُـــــــــــور
ثُــــــــمَّ انمَحنــــــــتْ آثَـــــــارُهُمْ مَحقـــــي الحَيَـــا نَقْـــشَ السَّــــطُور
لَـــــمْ يُبْـــــقِ مـــــنُهم دَهْــــرُهُم ذَيْئـــــاً سِـــــوَي ذِكْـــــرٌ يَــــدوُر[1]

فكان محو آثارهم كما تمحو الحياة ، وتقادم سنواتها كلا تمحي السطور ، من آثار نقوشها ، ويطويها الزمان ، كما قيل :

وجــــلا الســـــيول عــــن الطلـــــول كـــأنّها زبُـــر تجِـــد متونهـــا أقلامـــها[2]

وأكل منهم الدهر كل شئ حتى رسمهم ، وإشكالهم ، فلم يبقي منهم سوي ذكر يدور مع الأزمان .

ثم شرع بعد ذلك في أخذه لنماذج منهم ، فلم يجد سوي تيمور ، وقد انطبقت فيه كل الأفعال والأحوال والأقوال ، وقد وجد فيه الفتنة التي عرفتها الشعوب ، حينما صال فيهم بدماره ، وجال ذلك الأعرج (الدجال) ، الذي ابتدع طريقة قتل لم يسبقه إليها أحد ، إذ عمل على تعليق الجماجم في واجهات المساجد والمحلات ، وعمل على تقطيع الأجساد بعد أن لم يدع بلاداً ، إلا وقد اعمل فيها دماره ، وأسال فيها دماؤها ، فكان اشد ابتلاء وبلاء لهذه البلاد ، ولقد أمهل له في ذلك (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُون) [3] ، وإنّما ذلك استدراج له، لتثبت عليه سوء نيته ، ويتحقق عليه سوء عاقبته ، ومع هذا الإمهال لم يرجع إلى الله ، ولكنه زاد في غيه وطغيانه ، حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، وإنّما كان استدراجه في كل ما هو زائل امتحانا واختباراً له ، ولكنه اجتاح كل الخلق من كل الأجناس ، ولم يقف غيه وطغيانه عند ذلك ، بل امتد ذلك لإظهار فجوره ، فتطاول على دين الله الذي ينتمي إليه ، زعماً وزيفاً ، بل عمل على محو دين الله شرعاً ، ومنهجاً ، بفناء أصحابه الذين يدافعون عنه ، حتى تخلو له الساحة ، ليمتد في غيه وطغيانه ، وعمل علي إطفاء نور الله ، ولكن

---

(1) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص

(2) شرح ديوان لبيد العامري ، مصدر سابق ، ص ٥٢٦.

(3) سورة المؤمنون ، الآية : ٥٥-٥٦.

أخذه الله ليتم نوره بسواه (يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) (١) ، فكانت معالم إطفاء نوره ظاهراً في إباحته ، لكل ما هو هادم لدين الله الطهور ، حيث أباح القتل والاغتصاب، ورمي الصغار على النار وهم أحياء ، فلم تشفع لديه صرخاتهم ولا غض أعمارهم وهم مقبلون على هذه الحياة ، بقلوب طاهرة وبريئة ، وادمي بذلك قلوب آبائهم وأمهاتهم غير مكترث بصرخاتهم ، بل أباح الزني وشرب الخمور ، ونقض العهود والمواثيق ، وحتى في علاقته مع الله ينذر النذور ثم لا يفي بنذره ، وكان عدوه وانتهاكه للحرمان من ذئاب بشرية ، وكلاب دنيا باغتصابهم للحرائر والسادات ، وعملوا على الإساءة إلى حياة غره لم تعرف سوي السجود لله (سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ) (٢) .

وهؤلاء العتاة ، الوحوش البغاة ، هم نسل جنكيز خان ، الذي كانت منه البداية وهم النهاية ، غدراً وإجراماً ، فسلبوا الأموال وباعوا النفوس في أسواق الرقيق ، وبالغوا في جرائمهم هذه ، ومعهم جيوشهم الذين يعملون بأمرهم ، واحتلوا بهم البلاد وأحلوا بأهلها العذاب (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) (٣) .

وجعلوا هذه بمثابة عبور لهم ، لدول أخرى حتى ملكوا كل الأقطار ، ولما بلغ إفساده حداً فاق التصور ، أخذه الله اخذ عزيز مقتدر ، فجاءت أسلوبية ابن عربشاه التعبيرية والأدبية في براعة فاقت التصور ، إذ صور بشاعريته تلك الأحداث تصويراً متناسقاً منسجماً ، بديعاً سارت على منوال سطوره الشاعرية الفذة ، حين يقول :

نَاهِيَكَ مِنْهُمْ فِتْنَةً ... كَالأبْحُرِ الظَّلْمَا تَمُور
الأعْرَجُ الدَّجَّالُ مَنْ ... قَصْمَ الجَمَاجِمَ والظُّهُور
دَاخَ البِلاَد ودَارَهَا ... ونَوَائِبُ الدُّنَيا تَمُور
أمْلَي لَهُ اللهُ الحَلِيمُ ... فَزَادَ عَدْواً فِي فُجُور
وأمَدّهُ مُسَتَدْرِجاً ... إيَّاهُ فِي شيءٍ يَبُور
ويَراهُ فِي إمْضَائِهِ ... حَكَماً أيَعْدل أمْ يَجُور

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٣٢.

(٢) سورة الفتح ، الآية : ٢٩.

(٣) سورة غافر ، الآية : ٤٦.

فاجْتَــاحَ كُــلَّ الخَلْــقِ مِــنْ عَــرْبٍ ومِــنْ عَجَــمٍ وَلُــور
وَمَحَــا الهُــدَي وَعَــذا الـرَّدَى بِحُسَـامِهِ البَـاغِي يَمُـور
أَفْنَــي المُلُــوك وكُــلَّ ذِي شَــرَفٍ وذِي عِلْــمٍ وَقُــور
وَسَــعَي عَلَــى إِطْفَــاءِ نُــور اللهِ والـدِّين الطَّهُـور
بفُــرُوعِ جَنْكِيــزَ خَــانَ ذَاكَ الظَّــالِمُ الــنَّحْسُ الكفُــور
فأبَــاحَ إهَــراقَ الــدِّمَاءَ مِــنْ كُــلِّ صَــبَّارٍ شَــكُور
وأحَــلَّ سَــبْي المُحْصَــنَات المُؤمِنَــات مِــنَ الخُــدور
وَرَمَــي عَلَــى النَّــارِ الصِّــغَارَ كــأنَّهم فِيهــا بَخُــور
وأضَــافَ فِــي هَــذا إلَــى فِعْــلِ الزِّنَــي شُــرْبَ الخُمُــور
طَــوْراً يُــرَي نَكَــثَ العُهُــودَ وتَــارَةً نَقَــضَ النَّــذُور
وَعَــدا عَلَــى السَّــادَاتِ مَــعْ أهْــلِ الصَّــيَانَةِ والوَقُــور
مِــنْ كــل ذئــب صــائل مِــنْهُم ومِــنْ كَلْــبٍ عَقُــور
فَتَكُــوا وَقَــدْ بَتَكُــوا القُلُــوَب وَيْعــدَ مَــا هَتَكُــوا السَّــتُور
وَشَــدُّوُا جِبَاهــا طَالَمَــا سَــجَدَتْ لِــذِي الــرَّبِّ الغَفُــور
وَكَــوَوْا جُنُوبــاً قَــدْ جَفَــتْ طِيــبَ المَضَــاجِعِ والظُّهُــور
واسْتَخْلَصــوا الأمْــوَالَ مِــنْ أيْــدي البَرَايَــا بــالفُجُور
وَسَــقُوهُم كــأسَ السُّــمُومِ وجُرِّعُــوا كــأسَ الحِــرُور
واسْتأْسَــرُوا آل النَّبِــيِّ المُصّــطَفَي لطهــر الطّهُــور
بَــاعُوهُمُ مِــنْ مُشْــرِكي الأتْــرَاكِ فِــي أقْصَــى الكَفُــور
وَكَــذَاكَ واحِــدُ أمَــهِ مِــنْ كُــلِّ مَقْــلاَت نَــذوُر
وَجَــرَوْا عَلَــى هَــذِي الجَّــرَائِمِ واسْــتَمَرَّ لَهُــمْ مُــرؤُر
مَــا بَــيْنَ إيَــرانٍ وتَــوْرَانِ الــبِلادِ لَهُــم عُبُــور
وامتَــدَّ ذَاكَ مِــن الخَطَــأ أخْــذاً إلــى أقْصَــى القُطُــور
لمــا انْتَهَــي إفسَــادُهُ وَتَكامَلــتْ تِلْــكَ الشُّــرؤر

هَجَـــــمَ القَضَـــــاءُ لأخْـــــذِهِ   ولِكُـــــلِّ تَكْمِيـــــلٍ قُصُـــــورُ[1]

ولقد أكثر ابن عربشاه من بعض التشبيهات كتصوير ما يكون ، إذ يصف فتنة تيمور ، كالبحار شديدة الظلمة ، وهو تمور في ظلامها (ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا) [2]. كما صور حال الصغار ، وهم يلقونهم في النار كحال حبات البخور ، التي تلقي في النار ، فتزيد النار اشتعالاً ، وذلك أمام من نجا من آبائهم وأمهاتهم وبعد الضرب والنكال بهم ، وأخذ أموالهم ، يريدون أن يحمدوهم على فعلهم ذلك ولم يعلمون إنّ (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ *أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ *أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ *أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ*أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ *أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ *بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمِونَ)[3] ، فأخذه الله الجبار القهار ، بعد هذا الجبروت والوحشية ، أخذ عزيز مقتدر ، كما أخذ فرعون وجنوده ، الذين علو في الأرض جبروت ووحشية على بنو إسرائيل ، عباد الله الذين اصطفاهم للتوحيد حينذاك (جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ

---

(1) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٣٩٥ – ٣٩٦.

(2)سورة النور ، الآية : ٤٠.

(3)سورة النمل ، الآية : ٥٩.

الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ)(١).

هذا السفاك تيمور أخذه الله عبرة لمن يعتبر ، فكان الدلالة لنجاة بدن فرعون إنذاراً لمن يخاف وعيد ، ما هي إلا أن أبرزها لنا ابن عربشاه ببلاغة أسلوبه الذي يسمو بفكرته الطيبة ، وعاطفته المتزنة ، تعبيراً ملزماً بأخلاق النقد الأخلاقي الديني حين يقول :

قَذَفَتْـــهُ أيْـــدِي المُـــوت مِـــنْ تِلَـــكَ القُصُـــور إلـــى القُبُـــور
وتَبَّـــدلَتْ مِنْـــه الكَرَامَـــة بالمَذَلَّـــةِ والعُتُـــور
ومَضَـــي إلَـــى دَارِ النَّكَـــالِ بِمَـــا تَحَمّـــل مِـــنْ وقُـــور
وَتَفَرَّقَـــتْ تِلَـــكَ الجُمُـــوعُ وهـــدَّ مَـــا شَـــادَ الـــدَّثُورُ
أبْقَـــت عَلَيْـــهِ فِعَالُـــهُ لَعْنَـــاً عَلَـــى مَـــرِّ العُصُـــور
وَتَخلَّـــدَتْ أَثَارهُـــا مـــا أذى علـــى كـــرّ الـــدُّهور(٢)

وهذه الآثار الأذية الذي فعلها على شعوبه العربية والإسلامية ، كما تفعله الحيّة ، ذات السم الهالك ، في الطفل الرضيع ، نقلها لنا ابن عربشاه بشاعريته الفذة محققاً بها أسلوبية تعبيرية أدبية ، نموذجاً للالتزام الشعري ، بحيث كان شعره في القصيدة هذه ملء إحساسنا ، مكملاً فيه جماليات دقة الوصف ، وبلاغة الأسلوب في الدعوة لله ، بضوء قوله (ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (٣) .

فَـــانْظُرُ أخِـــي ثُـــمَّ افْتَكِـــرْ فِـــي ذَا المَسَـــاءِ وذَا البُكَـــور
لاَ فَـــرْقَ عِنْـــدَ المَـــوْت بَـــيْنَ شَـــكُورِ فَضْـــلٍ أو كَفُـــور
أيْـــنَ الـــذِيَن وُجُـــوهُهُمْ كَانَـــتْ تَـــلألأُ كـــالزَّبُوَر
أَهْـــلُ السَّـــعَادَةِ والحِجَـــا وذَوُو السَّـــيَادِة والوُقُـــور

(١)سورة يونس ، الآية : ٩٠-٩٢.

(٢) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٣٩٦.

(٣)سورة النحل ، الآية : ١٢٥.

المُطْفئُــــو بَـــدْرَ السَّـــمَا والمُخجِلُـــو فَـــيْضَ البُحُـــور
كَــانُوا عِظَامــاً فــي الصُّــدوُر وَهْــمْ صُــدُورٌ فِــي البُــدوُر
طَحَــنَ الــرَّدَى تِلْــكَ العِظَــامَ وَقَـــتَّ هَاتِيـــكَ الصَّـــدوُر
وَسَـــفَتْهُمُ رِيـــحُ الفَنَـــا تَسْــفِي الرِّمَــالَ يــد الزيــور
أيْـــنَ البَنُـــونَ ومَـــنْ غَـــدَا للقَلْـــبِ أفْراحَـــاً وَنَـــور
كَـــانُوا إذَا رُفِـــعَ الحِجَـــابُ وزُحِزِحَـــتْ عَـــنْهُمْ سُـــتّور
تَلْقَـــي الـــدُّنَا قـــد أشْـــرَقَتْ كالشِّــمْس فِــي سَــجَفِ الخُــدُور
مِـــنْ كُـــلِّ ظَبْـــي احـــورٍ أو ظَبْيَـــةٍ تُـــزْرَي بِحُـــور
نَشَــرَ الجَمَــالُ عَلَــيْهِمُ ثَــوْبَ الـــدَّلاُلِ عَلَـــى حَبُـــور
وَفَــدَتْهُمُ مُهَــجُ الــوَرَى مِـــنْ شَـــرِّ أحْـــدَاثِ الـــدُّهُور
كـــانُوا إذَا سَـــكنَوُا مَكَانـــاً حَرَّكُـــوُه مِـــنَ السُّـــرُوُر
كَـــانُوا عَلَـــى وَجْـــهِ الـــدُّنَا حَـــدَقاً وللإحْـــدَاقِ نُـــوُر
وَحَـــدَائِقاً لِرَياضِـــها وَعَلَـــى حَـــدَائِقِهَا زُهُـــور
بَيْنَـــا هُـــمُ فـــي سُـــكْرِهِمْ قَـــدْ مَـــازَجَ الـــدَّلُّ الغُـــرُوُر
والعُمُـــرُ غَـــضٌّ والزَّمَـــانُ مُسَـــلِّمّ لَهُـــمُ الأمُـــور
وإِذَا بسَـــاقِي المَـــوْتِ فَاجَـــأهُمْ بكِاسَـــاتِ الثُّبُـــور
فَسَـــقَي بَيَـــاضَ حَيَـــاتِهِمْ قَـــدْحاً أَعَـــادَ الكّـــلَّ بُـــور
تَرَكُـــوا فَسِـــيَح قُصُـــوِرهَم رَغَمـــاً إلَـــى ضِـــيقِ القُبُـــور
وَسَـــقوا كُئُـــوس فِـــرَاقِهم صَـــبْراً لكِـــلِّ شـــج غيـــور[١]

فالقيمة الأسلوبية التعبيرية لابن عربشاه في تصوير أحوال الباكين عليهم وأحوالهم ، من شق الجيوب وضرب الصدور ، الذين لم يعوا قول الرسول صلي الله

(١) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٣٩٦ – ٣٩٧.

عليه وسلم وهداه في قوله : (ليس منا من شق الجيوب ولطم الخدود ، ودعا بدعوى الجاهلية) (١) ، ولو كانوا يملكون لهذا الموت دفعاً ، لأمكنهم ذلك لكن هيهات : (فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ) (٢) ، إذ لا يمكن دفعه ولا الذود عنهم تجاهه ، فلذا يقول ابن عربشاه :

مِـــن شَـــقَّ حُزنُـــاً جيبـــه ولفَقْـــدِهِمْ دَقّ الصَّـــدُور

لـــوْ كَـــانَ يَنْفَعُـــهُ الرَّشَـــا أوْ كَـــانَ يَجْذِبُـــهُ النُّـــذُور

لفَـــدَاهُم وَوَقَـــاهُمُ وَرَعَـــاهُمُ رَعْـــيَ الجَـــذُور (٣)

ثم شرع ابن عربشاه مصوراً أحوالهم بأسلوب التخييل والتوهم ، وهم في قبورهم وحال الديدان في أجسادهم ، والدود قد أبلاهم ، فلم يبقي لهم من الأحياء إلا الدعاء والزيارة ، ناعياً وباكياً حول القبور ، واقفا أو جالسا ، ويندب فقيده ، وقد تلطخ بالتراب حزناً وكمداً ، عل هذا الفقد يناجيه فلا مجيب ، وهو غداً سوف يؤول أمره هذه المآل ، فليس لأحد خلود (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ) (٤) ، وكان ولا زال وسيظل هذا أمر الله لا تبديل فيه ، ولا تغيير فهذا سنة من شرعه ، حين يقول ابن عربشاه في ذلك :

سَـــكَنُوا الثَّـــري فَتَغَيَّـــرَتْ تِلْـــكَ المَحَاسِـــنُ والشَّـــعُور

وَرَعَـــاهُمُ دُودُ البِلَـــي وفَـــرَاهُمُ فَـــرْيَ الجُـــذُور

أمْسُـــوا رَمِيمَـــا فِـــي الثَّـــري وثَـــوَوْا إلـــىَ يَـــوْم النَّشُـــور

يســـعي المحـــب مخاطبـــاً أجـــداثهم يومـــاً يـــزور

يَنْعَـــي ويَنْـــدُبُ نائَحَـــاً قَبْـــراً تَنَاوَشَـــه الـــدُّثُور

وُيمّـــرِّغُ الخَـــدِّين فِـــي تُـــرْبٍ يَرَاهَـــا كالـــذّرُور

يَـــدْعُو فلـــيس يُجيبُـــهُ إلاَّ صَـــدَي صُـــمْ الصُّـــخُور

بَيْنَـــا تَـــرَاهُ زَائِـــراً وإذَا بِـــه أمْسَـــى مَـــزوُر

---

(١) صحيح مسلم ، شرح النووي .

(٢) سورة يونس ، الآية : ٤٩.

(٣) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٣٩٧.

(٤) سورة الزمر ، الآية : ٣٠.

هَــــــذَا بِتَقْــــــدِيرِ الإلَــــــه وحُكْــــــمِ فَعَّــــــالٍ صَــــــبُور[1]

(وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)[2] .

فجاءت خصائص أسلوب ابن عربشاه في هذه القصيدة من حيث الجانب الأدبي أستخدم أسلوب الاستقصاء في وهو (أنْ يتناول الشاعر معني فيستقصيه ، إلى أن لا يترك فيه شيئا ، كقول ابن الرومي في صفة الحديث (كامل) :

وحــديثُها الســحر الحــلال لــو أنهــا لــم تَجْــن قَتــلَ المُســلم المُتَحَــرّز

شَــرَك النُفُــوس وفِتَنْــة مَــا مِثْلُهــا للمُطَّمَــئنِّ وعُقْلَــه المُســتوفِزِ

إنْ طــال لــم يُمْلَــلْ وان هــي أوجَــزَتْ ودّ المحــدّث أنهــا لــم تُــوجِزِ [3]

فانظر إلى كون هذا الشاعر وصف حديث هذه المحبوبة بنهاية الوصف الحسن اللائق بمثله ، حيث قال : (وحديثها السحر الحلال) ، لفعله في العقول فعل السحر ، وجعله حلالا لصدق الوصف ، وليضمن كلامه في صفته معني قول الرسول صلي الله عليه وسلم : (إنّ من البيان لَسِحرا) [4] ، فان سحر البيان سحر سحر حلال ، ثم رجع فاستدرك فيه فقال :

.... لــو انــه لــم يجــن قتــل المســلم المتحــرز

لكون قتل المسلم بغير حقَّ حرام ، فحصل في البيت طباق معنويّ ، فكأنه قال سحر حلال لو لم يجن حراماً ، فطابق بين الحلال والحرام وأحدث براءَة المسلم المقتول بالحديث من الإيغال الذي في قافية البيت ، وهو قوله : (المتحرّز) لأنّ المتحرّز لا يقع في شئ من موجبات القتل ، وفي ذلك مبالغة [5] ، إلا إن هذه المبالغة لابن الرومي كانت أسلوبية دعوية حق أستخدم فيها ابن عربشاه الحكمة في

---

(1) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٣٩٧ – ٣٩٤.

(2) سورة القصص ، الآية : ٨٨.

(3) شرح ديوان ابن الرومي ، شرح وتحقيق عبد الأمير علي مهنا ، ج٣ ، منشورات دار الهلال ، ١٩٩١م ، ص ٤٤٧.

(4) صحيح مسلم ، شرح النووي ، ص

(5) تحرير التحبير ، ص ٥٤٠.

الدعوة لله، محققاً الالتزام الديني في الشعر ، وإنّ الشاعر خلق لكي يكون داعية لله في الحق ودحض الباطل ، بحيث ما جاء به في وصف الدهر بأسلوب المساواة.

وهو (هو أن يكون اللفظ مساوياً للمعني، حتى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، و هذا من البلاغة التي وصف بها بعض الوصاف بعض البلغاء ، فقال : كانت ألفاظه قوالب لمعانيه ، ومعظم آيات الكتاب العزيز كذلك ، ومنها قوله تعالي : (إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)[1]) [2].

بحيث ساوي بفكرة خطابه البصري في النص الشعري للقصيدة ، وبينما بلغ به حسن الخاتمة لها ، والتي تمثل جودة انتهاء النص بقوة حبكه وسبكه .

وحسن الخاتمة هو أن (يجب علي الشاعر والناثر أن يختما كلامهما بأحسن خاتمة، فإنها آخر ما يبقي في الأسماع ، ولأنها ربما حفظت من دون سائر الكلام في غالب الأحوال ، فيجب أن يجتهد في رشاقتها ونضجها وحلاوتها وجزالتها[3] .

جاءت خاتمة ابن عربشاه للقصيدة بقيمة أسلوبية تعبيرية تمثل قمة الدعوة لله لمنهج العقيدة على ضوء الواعظ الصامت دوران الدهر ، وجاءت بأسلوب مماثل لمن سبقه من شعراء الالتزام الديني نقيب الشعراء المخضرمين لبيد بن ربيعه العامري في قصيدته في رثاء النعمان بن المنذر وكأن بابن عربشاه يدعو ويتمثل ، بقول لبيد الشعر الحكمة حين يقول :

ألاَ كُلُّ شَيءٌ مَا خَلاَ اَللهَ باطِلُ وكُلُّ نَعِيمٍ لاَ مُحَالَةَ زَائِلُ

ألاَ تَسْألاَن المَرْءَ مَاذَا يُحاوُلُ أنْحبٌ فَيقِضَي أمْ ضَلاَلٌ وبَاطِلُ

حَبَائِلُهُ مَبْثُوثَةٌ بِسَبِيِلِه ويَفْنَي إذَا مَا أخْطَأتْهُ الحَبَائِلُ[4]

(أسالوا هذا الحريص على هذه الحياة الفانية ، حتماً أي فائدة يجنيها من هذا الحرص ، انه ما زال يتمادي فيه ، وليس ذلك فحسب ، إنّما صاحب هذا الحرص

([1]) سورة النحل ، الآية : ٩٠

([2])تحرير التحبير ، ص ١٩٧

([3]) المصدر السابق ، ٦١٦.

([4])شرح ديوان لبيد ، مصدر سابق ، ١٩٦٢م ، ص ٢٥٥.

تكبره وغروره عند سماع القول الحق واستعلاءه على حقيقة الوجود الحق ، أسالوه وأنفسكم قبله ، عظة واعتبار ؟ أيفيد هذا الحريص التكبر والغرور والاستعلاء ؟! ، خاطبوا أنفسكم عظة واعتبار من خلال صورة هذا الحريص ومن معه ، مادام سؤالا يتردد :(أي نعيم خلته لا يزايل ؟!)(وكل نعيم لا محالة زائل ؟) في ثنايا – الأبيات– لم لا ، ما دام الوجود الحق (ألا كل شئ ما خلا الله باطل) .

أيها الناس أحذروا صورة هذه الحريص ، ولا تتمنوا حاله ، لأنه في نعيم لا محالة زائل ، فخاطبوا أنفسكم بموطن العظة والاعتبار من خلال صورة هذا الحريص على الدنيا الفانية ومن معه ، نعم هذا هو ممتد دوماً في حرصه علي الدنيا الفانية ، حتى صار طبعه أو كأنه نذر نذره ، لهذا الحرص أنْ يكون ممسكا به في نفسه ، عازماً على هذا الحرص ، لابد من فعله ، ولكن هيهات هيهات ما يعمل ، مهما عمل وان طال عمله ، فانّ عمله لا ينتهي ، ولا يدرك من عمله هذا إلاّ الضلال والباطل ، وليته استدرك حقيقة البقاء والخلود– .

أَيْـــنَ الّـــذِي الهَرَمَـــان مِـــنْ بُنْيَانِـــهِ مَـاَ قوْمُـــهُ مَـاَ يَوْمُـــهُ مَـاَ اَلمَصْــرَعُ[1]–

ولكنه ما زال يسعى علي حرصه في الدنيا الفانية ونعيمها الباطل المضمحل الفاني ، أيها الناس ابلغوه موته لا محالة آت ، لأنه بقدر الله وقضائه ، سوف يفني ، وأيضا ما له سيفني ، وربما فني هذا المال قبل فنائه ، ما دام هذا مصير كل مخلوق في هذه الدنيا ، كبيراً كان أم صغيراً ، فلا مفر من هذا الموت ولا خلود لكل الأشياء سوي – :

تتخلــــف الآثـــار عـــن اصـــحابها حينــــا ويــــدركها الفنــــاء فتتبــــع[2]

هذه حقيقة ثابتة علي مر الأزمان إلاّ إنْ هذا الحريص في حتمية نفسه يداوم على هذا الحرص ، لأنُه كلما تحقق من عمل شئ منه ، وظن انه فرغ منه ازدادت حوائجه لأكثر مما تحصّل عليه ، انظروا إلى صورة الحريص فقولا له ، (أي نعيم خلته لايزايل ؟!) ، ثكلتك أمك أيُها الحريص وأنت وان تتمادي في هذا الغي والباطل ، مهما كثر نعيمك في هذه الحياة الدنيا ، فهو حتماً لا محالة زائل ، ليس

---

(1)شرح ديوان المتنبي ، عبد الرحمن البرقوي ، ج٣ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٦م ، ص ١٣.

(2) المصدر السابق ، شرح ديوان المتنبي ، ج٣ ، ص ١٣.

نفسك أيها الحريص فحسب ، إنما الجميع سوي الذي يبقي ، الله سبحانه وتعالي المهيمن القادر المقتدر ، واليه ترجع الأمور ، (وله الأمر من قبل ومن بعد) ، أيّها الحريص ليتك تعدل طريقك إليه ، وترتقي نفسك بالوسيلة إلى تقواه ، ودع حرصك على هذه الدنيا لديه ، أيها الحريص على هذه الدنيا أنْ تضعك هذه العظة والاعتبار ، فأصدق نفسك في إجابة هذا السؤال ، هل لك أب حي أي أجدادك ، أي إلى عدنان ؟ هلكوا جميعا والباقي الثابت الحق الموجود ، فابتغي إليه الوسيلة ، وليتك أن تحرر نفسك أيّها الحريص من الطمع في الحرص على هذه الحياة الفانية ، ولكن هيهات ديدن طمعك (فلتزعك العواذل ، وكل نعيم لا محالة زائل) وليتك أيّها الحريص صرت مثل ذاك العاقل اللبيب الذي حرص إلى طريق الاهتداء ومعرفة التقوى ، والهداية بها في التوسل الحق بالطاعة والعمل الصالح ، وكانت نتيجة تجربته سعادته تلك ، إن الحياة زائلة لا محالة ، كل شئ فيها فاني ، إنّ (كل شئ ما خلا الله باطل) فيها ، كما عرف هذا العاقل اللبيب إن الموت حقا لا مفر منه. بعد هذه الحياة ونعيمها الفاني المضمحل ، البعث في دار المقر ، ثم الحساب ، ولا مفر سوي الوسيلة إلى الله ، وهو باب النجاة من العقاب ، والفوز بفضله بالرحمة والثواب .

هداك الله أيها الحريص بخلق هذا العاقل اللبيب ، الذي لم يكن يوماً حريصاً على هذه الدنيا مثل حرصك ، ومسيرتك فيها إلا الخسارة ، لأنه يعلم إن الأمر لله من (قبل ومن بعد) ، واليه الوسيلة [1] ، **أيها الحريص .. أيها الحريص .. أيها الحريص :**

دنْيـــــاك جســـــر فـــــاعتبر واحـــــرص علـــــى زاد العبـــــور
واطمـــح إلـــى اللـــبّ الهنـــي فجميـــع مـــا فيهـــا قشـــور
لـــو لـــم تَـــكُ الـــدنيا ومـــا فيهـــا هبـــاءً خَيْثَعُـــور
مـــا كـــان يـــزوي برُّهـــا عـــن كـــل صَـــبّار شـــكور

(1)لبيد شاعرا ، عبد المالك إدريس مالك ، رسالة ماجستير ، كلية اللغة العربية ، جامعة امدرمان الاسلامية ، ٢٠٠٢م ، ص ص ١٢٧-١٢٨

كـــــــلا ولا انقـــــــادت لمـــــــن　قـــــد صـــــار مختـــــالا فخـــــور

هـــــذا وغالـــــب مـــــن عتـــــا　فـــــي أرضـــــها عـــــرج وعـــــور

خُلقِـــــوا لِحـــــقّ فـــــانثْنوُا　عنـــــه إلـــــى مَـــــينِ ورور

يـــــا رب ثبتنـــــا علـــــى　مـــــا ترتضـــــيه مـــــن الأمـــــور

واغفـــر لنـــا مـــا قـــد علمـــت　مـــن الخطايـــا يـــا غفـــور

واخـــــتم لنـــــا بســـــعادة　تكفـــي بهـــا شـــر الغـــرور

وامـــــنن لنـــــا بتجـــــارة　مـــن بـــاب فضـــلك لـــن تبـــور

وأدم ســـــحائب رحمـــــة　تهمـــي علـــى بـــدر البـــدور

خيـــــر الأنـــــام محمـــــد　الشـــــافع الزاكـــــي الطهـــــور

والآل والصـــــحب الكـــــرام　وتـــــابعيهم يـــــا شـــــكور[1]

وهذه هي الصورة البديعة التي نهجها ابن عربشاه في قصيدته وجاء بأسلوبية تعبيرية ، حقق فيها دلالات الأثر القرآني والنهج المحمدي ودعوته لاسيما اتجاهه الذي عرف به طريقة أسلوبه في كل شئ ، في حياته وفي تعبيره ، بأنه السني معتقداً، الحنفي مذهباً ، وليس عجيباً أن تأتي هذه القصيدة بالقيم الروحية والإنسانية ، التي تمثل خير نصيحة دعوة للإنسان ، الذي خلقه الله في أحسن حال ، أن يعبد الله ولا يشرك به أحداً. ثم برع ابن عربشاه بخصائص أسلوبه الملزم بالالتزام الديني ، بأنه شاعراً بيد أنه خطيباً بارعاً ، داعياً لله ورسوله ، (أَدْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)[2] .

وفي هذه القصيدة جاء أسلوب ابن عربشاه باسلوبيته ، ببيان شاعريته بالقيم الروحية في الدهر دولاب يدور .. والدهر مكار غيور .

المطلب الثاني : أسلوبية ابن عربشاه في التلقي الفني لشواهد الشعر لاسيما أثر لبيد والمتنبي عليه :

---

(1) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٣٩٨.

(2) سورة النحل ، الآية (١٢٥).

القيمة الأسلوبية والتعبيرية والأدبية في شاعرية ابن عربشاه بأنها (تكون جزءا من شخصيته البارزة ، فهو شاعر سيال القريحة ، مواتي القلم ، ندي اللسان(١)، لا سيما بإيداع أو تفصيل لنفسه شواهد الشعر في نثرية خطابه الفني أو مضمنا من الشعر ما كان أثر علي اللغة والعقل والقلب ، لاسيما براعة استشهاده بشعر لبيد والمتنبي ، حينما يبلغ معالم شاعريته في تلقيه الفني لشواهد الشعر ، وليس غريبا أن يتخلل نثر ابن عربشاه شواهد هذين الشاعرين لاسيما المتنبي داعماً أسلوب عصره بمشاكلة الشعر للنثر. بل نحن نحس بأثر لبيد ابن ربيعة العامري والمتنبي وما لهما أثراً واضحاً في أسلوبية نثره بحيث أبدع فيهما بفكرته وقوة عبارته إلا أنه قدم شاهد المتنبي على لبيد لأنه مدح ، لأن بيت لبيد ابن ربيعة جاء في إحدى قصائده في رثاء أخيه اربد بن قيس من أمه ، بأسلوب الطباق ، بموضع الحقيقة ، بين مر وحلو ، ولكن في النظرة البلاغية ، في قوله مصوراً شجاعة أخيه وطيبته في آن واحد :

مــــر المـــــذاق علـــــي أعدائـــــه بشـــــع حلـــو الفكاهـــة للأصـــحاب كالعســـل(٢)

فكلمة مر تضاد حلو ، ولكنهما خرجا مخرج التشبه ، الذي حذف أحد طرفيه على سبيل الاستعارة التصريحية ، والتي دعمها بقوة المشبه ، بتلك العاطفة القوية تجاه أخيه اربد ، والتي أنتجت خيال كان له دوراً فعالاً في تشكيل الصورة الشعرية عند المتنبي عندما أخذ معني لبيد وجاء بعده كثير من الشعراء على هذا المعني وليس هذا البيت السابق فحسب عند لبيد بهذا المعني إنما جاء به في مواضع شتي في ديوانه حين يقول :

ممقر مر على أعدائه

وعلى الأدنين حلو كالعسل (٣)

وهذا المعني هو مصدراً لمعني لبيد في البيت السابق له والذي جاء به بموضع الأثر على بيت المتنبي داعماً به وصفه لتيمورلنك والذي يقول فيه المتنبي مدحاً :

مُتَفَـــرّقُ الطَعْمَـــيْن مُجْتَمَـــعُ القُـــويَ كأَنَّـــــه السَـــــراء والضَـــــــراء(١)

---

(١) عصر سلاطين المماليك ، محمود رزق سليم ، م ٥ ، ق ١ ، ج ٣ ، ص

(٢) هذا البيت للبيد بن ربيعة العامري ، لم أجده في ديوانه المحقق لإحسان عباس.

(٣) شرح ديوان لبيد ، مصدر سابق ، ص ١٩٧.

فكلمة متفرق تضاد لمجتمع والسراء تضاد للضراء ، في النظرة البلاغية العامة طباق ، ولكن خرجا مخرج الاستعارة لان متفرق الطعمين ومجتمع القوي جاءت على سبيل المجاز ، لان مجتمع القوي ليس تعبر عن شخصية تيمور ، مثل تلك التي وصف بها آبي الطيب المتنبي سيف الدولة بأنه مجتمع قوي :

كُــــلٌّ يُريـــــدُ رِجالَـــــهُ لحياتـــــه يـــا مَـــنْ يريـــد حَياتَـــهُ لرجالِـــهِ[٢]

أي هو وحده مجتمع القوي ، ويؤكد هذه الصورة في المتنبي ، بدعمها بصورة أقوي من هذه في تصوير سيف الدولة بقوته الضاربة ، حين يقول فيه :

يَهـــزُّ الجَـــيْشُ حولُـــكَ جانِبَيَـــهِ كمـــا نَفَضَـــتَ جَناحيَهْـــا العقُـــابُ[٣]

والإجراء البلاغي خرج إلى الأسلوبية بحيث براعة كل من البيتين عند الشاعرين أبرزت أسلوبية كل منهما التعبيرية والصوتية والأدبية ولكن العرب (رأوا أنّ الكلام الذي جمع فيه بين الضدين يحسن أن يسمي مطابقاً ، لان المتكلم قد طابق فيه بين الضدين ، وهو على ضربين : ضرب يأتي بالفاظ الحقيقة ، وضرب يأتي بألفاظ المجاز ، فما منه بلفظ الحقيقة سمي طباقا ، وما كان بلفظ المجاز سمي تكافؤاً) [٤] ؛ فالقيمة الأسلوبية التعبيسية لمثال هذا التكافؤ بانت بها شاعرية ابن عربشاه في التلقي الفني ، و إيداع بيت لبيد ابن ربيعة العامري :

مـــر المـــذاق علـــى أعدائـــه بشـــع حلـــو الفكاهـــة للأصـــحاب كالعســـل

في نثرية خطابه الفني بحيث دعم به توظيفه الفني في الطبيعة المتحركة في وصف أغراض تيمور لنك ، بحيث أبرزها بقول المتنبي الذي أخذه من معني لبيد في فكرته في وصفه أخيه أربد حين يقول المتنبي :

متفـــرق الطعمـــين مجتمـــع القـــوي كأنـــــــه الســـــــراء والضـــــــراء

وبالشاهدين للبيد والمتنبي برزت أسلوبية ابن عربشاه في وصف الطبيعة المتحركة في تصويره ليتمورلنك حين يقول (كان تيمور محبا للعلماء ، مقربا

(١) ديوان المتنبي شرح الواحدي ، ص ١٩٨.

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٣٣.

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٥٣٣.

(٤) تحرير التحبير ، ص ١١١.

للسادات والشرفاء ، يعز العلماء والفضلاء ، إعزازا تاماً ، وتقدمهم على كل أحد تقديما عاماً ، وينزل كلا منهم منزلته ، ويعرف له إكرامه وحرمته ، وينسبط ممزوجاً بهيبته ويبحث معهم بحثاً مندرجاً فيه الإنصاف والحشمة ، لطفه في قهره وعنفه مندرج في بره :

متفـــرق الطعمـــين مجتمـــع القـــوي كأنـــــــه الســـــــراء والضـــــــراء

وقيل :

مـــر المـــذاق علـــى أعدائـــه بشـــع حلـــو الفكاهـــة للأصـــحاب كالعســـل)[1]

فالقيمة الأسلوبية التعبيرية لابن عربشاه برزت بأسلوب حسن الاتباع في تلقيه لشواهد الشاعرين : (أن يأتي المتكلِّم إلى معني اخترعه غيرُه فيحسن اتّباعه فيه ، بحيث يستحقه بوجه من وجوه الزيادات التي وجب للمتأخّر استحقاق معني المتُقدّم ، إما باختصار لفظه ، أو قصر وزنه ، أو عذوبة قافيته وتمكنها ، أو تتميم لنقصه ، أو تكميل لتمامه ، أو تحليته بحلية من البديع يحسن بمثلها النظم ، ويوجب الاستحقاق[2]، ما يسمي التناص في المصطلح النقدي المعاصر .

وهذا الأسلوب برز مرة أخري عندما أبدع به قول المتنبي وابرز به معالم شاعريته من خلال نثره في فن الرسائل : **ذكر مراسلة شاه ولي سلاطين العراق وما وقع في ذلك من الشقاق وعدم الاتفاق .**

(ثم أرسل شاه ولي إلى شجاع سلطان عراق العجم وكرمان ، وإلى السلطان أحمد بن الشيخ أويس متولي عراق العرب واذربيجان يخبرهما بورود خطابه وصدور جوابه ، ثم قال : أنا ثغركما ، وإنْ انتظم أمري انتظم أمركما ، وان نزل بي منه بائقة فإنها بممالككما لاحقة ، فإن ساعدتماني بمدد كفيتكُما هذا النكد ، وإلا فتصيران كما قيل :

مـــن حُلِقـــتْ لِحيـــة جـــار لـــه فليســـكب المـــاء علـــى لحيتـــه

فأما شاه شجاع فأطرح قوله ورماه ، وهادن تيمور كما ذكر وهاداه .

([1]) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٤٥٤.

([2]) تحرير التحبير ، ص ٣٧٥.

وأما السلطان احمد فأجاب بجواب مهمل وقال : **هذا الاشلّ الأعرج الجغتائّي ما عساه أنْ يفعل ؟ ومن أين للأعرج الجغتائّي أنَ يطأ العراقيين ؟ وإنّ بينه وبين هذه البلاد لخرط القتاد ، ولكم بين مكان ومكان فلا يخل العراق كخراسان .**

ولئن عقدت على التوجه إلى ديارنا نيتَّه ، لتحلن به منيته ، ولترتحلنَّ عنه أمنيته ، **فإنا قوم لنا البأس والشدة ، والعُدة والعِدَة ، والدولة والنجدة ، ولنا يصلح التشامخ والتأبي** ، حتى كأنه قال فينا المتنبي :

نحــن قــوم ملجّــن فــي زي نـــاس فــوق طيــر لهــا شــخوص الجمــال[1]

فلما علم ذلك منهم شاه ولي ، وأيقن أن كلا منهما عن شجوه خلي ، قال أما أنا فو الله أتوافقنه بعزم صادق ونفس مطمئنة ، فلئن ظفرت به لأنددن بكما في الأمصار، ولأجعلنكما عبرة لأولي الأبصار ، وان ظفر بي فلا على ما يصل إليكما ، فلينزلن القضاء الطام والبلاء العام عليكما ، ثم استعد للقائه واستسلم لقدر الله تعالي وقضائه ، ولما تراءي الجمعان ، واتصلت المراشقة بالضراب والطعان ثبت شاه ولي ساعة لما نابه) [2].

القيمة الأسلوبية التعبيرية والصوتية تبرز في تعبير أبن عربشاه العُدة والعِدة والتي جاءت بأسلوب التجنيس والذي هو (بيان المعاني بأنواع من الكلام يجمعها أصل واحد من اللغة)[3] ، فالعُدة والعِدة هو (من تجنيس التحريف وهو أن يكون الشكل فارقاً بين الكلمتين او بعضهما) [4] ، ولكن التلقي الفني لبيت المتنبي السابق المماثل لألفاظ ابن عربشاه في نثرية خطابه الفني. جاء به ابن عربشاه في أسلوب حد المساواة المحمودة هو إيضاح المعني باللفظ الذي لا يريد عنه ولا

---

(1) ديوان المتنبي ، شرح الواحدي ، ص

(2) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٨٤ – ٨٥.

(3) تحرير التحبير ، ص ١٠٢.

(4) المصدر السابق ، ص ١٠٦.

ينتقص[1] ، ولكن براعة أسلوب ابن عربشاه ، قد استخدم هذه المعني الشاعري في نثره على لسان شاه ولي الذي يخاطب تيمور لنك : **لئن عقدت على التوجه إلي ديارنا نيته ، لتخلن أمنيته ، ولترحلن أمنيته فأنا قوم لنا البأس والشدة ، والعُدة والعِدة ، والدولة والنجدة ، ولنا يصلح التشامخ والتأبي)** [2]. ولم يقول قلت بديهيا، كطبيعة أسلوبه في مثل هذا الوصف بل لجأ إلى التلقي الفني لبيت المتنبي على نهاية الفاصلة النثرية دعامة لأسلوب العصر ، الذي يكثر فيه السجع في النثر الفني ، فجاء به بأسلوب المواردة: (وهي توارد الشاعرين المتعاصرين الذين تجمعهما طبقة واحدة ، على معني واحد ، إما مجرداً أو ببعض ألفاظه أو بأكثرهما أو كلهما ، فان كان أحدهما أقدم أو طبقته ارفع حكم له على صاحبه بالسبق ، وقد رأيت من يجعل اتفاق الشاعرين من طبقتين مختلفتين في عصرين متباينين ، إذ تقارب ما بينهما بعض التقارب في الآخرين او في القوة والقدرة تواردا ً) [3] ، فمثال الاول قول امرئ القيس طويل:

وُقوفاً بها صَحْبي عليَّ مطَّيُهمْ يَقُولونَ لا تَهِلكْ أمّي وتَجَمَلَّ[4]

وقول طرفة (طويل) :

وقوفاً بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أمّي وتَجلّد[5]

ومثال ما جاء من القسم الثاني مثل (الدرُّ المنتظم والدرِّ المنسجم – والذي – لا بد أن يتعانق لفظه ومعناه أولا وأخراً ، ويتطابق عبارته وفحواه باطنا وظاهرا)[6]، هي أسلوبية ابن عربشاه التعبيرية التي بلغ بها أسلوب المواردة الذي لألفاظ بيت آبي الطيب المتنبي الذي يقول فيه :

---

(1) سر الفصاحة للأمير أبي محمد عبد الله بن سنان الخفاجي الحلبي ، تحقيق علي قودة ، مكتبة الخانجي القاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٤م ، ص

(٢) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٨٥.

(3) تحرير التحبير ، ص ٤٠٠.

(٤) القصائد الطوال الجاهليات ، شرح ابن الانباري ، ص ٢٣.

(٥) المصدر السابق ، ص ١٣٥.

(6) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٤٩١.

نحـــن قـــوم ملجـــن فـــي زي نـــاس فـوق طيـر لهـا شـخوص الجمـال[1]

والذي تطابقت ألفاظه مع معاني ابن عربشاه ، وكان الأحسن في الماردة في تعبير ابن عربشاه أن استشهد بقول لبيد ابن ربيعة ، والأحسن أن يقول كأنه قال فينا لبيد فخراً) :

غلـــــــب تشـــــــذر بالـــــــدحول كأنهـا جـن البـدّي رواسـي أقـدامها[2]

لكان حقق أسلوبية التلقي الفني بشواهد الشعر التي تحقق تعريفه البلاغي والأسلوبي إلى الكلام .

فالقيمة الأسلوبية التعبيرية والأدبية في براعة ابن عربشاه في التلقي الفني لشواهد الشعر سواء كان بالإيداع لغيره أو التفضيل لنفسه ، أبرز شاعريته من خلال نثره الفني بأنه شاعراً وصافاً بارعاً محققاً قوله (أن الكلام له مقامات ولكل من الفصاحة والبلاغة درجات) [3] .

فخلاصة القول في هذا الفصل نموذجاً فيما قدمناه من أمثلة لإبراز أن ابن عربشاه أديبا وتبيين خصائص أسلوبه الفني والتصويري واللفظي والمعنوي وكل من يدعم من الأساليب واقعية الصورة الشعرية والفنية في شعره وفي نثره وحقق بنا القول إن ابن **عربشاه أديبا** .

---

(١) ديوان المتنبي ، شرح الواحدي ، ص ١٨٨.

(٢) شرح ديوان لبيد بن ربيعة ، ص ٦١٧.

(٣) عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ص ٤٩٢.

خاتمة البحث

بادي ذي بدء أن القيمة الأسلوبية لكتابي ابن عربشاه موضوع البحث ، بحيث برز جل شعر ابن عربشاه الذي جاء في هذا البحث والذي يمثل شعر الطبع والصنعة بعض الأحيان بمتانة فكرته وقوة عبارته وصدق عاطفته ما يعادل ديواناً كاملاً يستحق الدراسة الفنية المنفردة. أما كتابه فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء فالقيمة الأسلوبية في سردية خطابه الفني بانت في الأشعار والحكم والأمثال والقصص الكثيرة على مستوي لسرد وغير ذلك من قضايا كثيرة لم تكن في موضوع هذا البحث.

أما على مستوي التحليل في تبين خصائص أسلوب ابن عربشاه على مستويات البحث: فكانت على المستوي التاريخي:

برزت لنا قوة موروث ابن عربشاه الذي تركه لنا من شعر ونثر بمضامين القيم الأسلوبية فيها والإنسانية منها فيما عرضه من أجناس الأدب الأخرى من قصص وحكاية ورواية وغير ذلك من الأجناس الأدبية محقق هدف اختيار البحث على المستوي التاريخي بأن هذا الموروث لابن عربشاه يمثل نموذج لقوة الأدب في العصر المملوكي الذي قيل جل أدبه لاسيما الشعر أدب انحطاط.

وعلى المستوي الأدبي حققت لنا خصائص أسلوبه إدلال الحجاج الأسلوبي على مستوي الصورة الفنية ومستوي التركيب ومستوي المعجم ، لاسيما في كتابه فاكهة الخلفاء.

وعلى مستوي المعيار الإسلامي للنقد الأخلاقي برزت من خصائص أسلوبه ذاك الأثر الجيد الكبير للقرآن الكريم وعلوم الأحاديث النبوية الشريفة والأمثال والحكم والشعر الإنساني في الموروث القديم ذو القيم الإنسانية والروحية التي كم كانت دعامة الأمم الأخلاق. وعلى المستوي الفني للقيم الإنسانية والروحية للأدب من خلال تبين خصائص أسلوب ابن عربشاه لاسيما في قصيدته التي قالها بعنوان الدهر دولاب يدور عند وفاة الطاغية تيمورلنك ، بانت خصائص أسلوبه بتلك القيم الإنسانية والروحية التي تأثر فيها بالقرآن الكريم على ضوء الالتزام الأدبي.

الفهارس العامة

أ) فهرس الآيات

الرقم	الاية	اسم السورة	ارقام الايات	رقم الصفحة
١	وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ	البقرة	٣٤	١٦٨
٢	قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى	البقرة	٣٨	١٦٥
٣	كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ	البقرة	٧٤	١٦٩
٤	حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ	البقرة	٢٥٨	١٦٧

٥	كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ	آل عمران	١٨٥	١٧٠
٦	أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ	النساء	٧٨	١٦٥
٧	أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ	النساء	٧٨	١٧١
٨	الْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ	المائدة	٣	١٤٠
٩	فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ	الأنعام	٤٥	٦١
١٠	وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ	الانعام	٩٣	٦١
١١	إِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ	الاعراف	١٧١	٧٥
١٢	وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ	الأنفال	٥٠	٦١
١٣	يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ	التوبة	٣٢	١٧٢
١٤	إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ	يونس	٤٩	١٧٧
١٥	وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ	يونس	٩٠-٩٢	١٧٥
١٦	وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ	هود	٤٤	١٣٣
١٧	وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ	هود	٤٤	١٣٤
١٨	فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ	النحل	٧٤ - ٧٩	١٢٦ - ١٢٧

	أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{٧٦} وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ			
١٩	إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ	النحل	٩٠	١٨
٢٠	إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ	النحل	٩٠	١٧٩
٢١	ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ	النحل	١٢٥	١٧٦
٢٢	ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ	النحل	١٢٥	١٨٣
٢٣	ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ، وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ، وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ، إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ	النحل	١٢٥ – ١٢٨	١٢٨
٢٤	إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ	النحل	١٢٨	١٦٣
٢٥	وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ	الاسراء	١١١	١٦٧

	شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً			
٢٦	قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ	طه	١٢٣	١٦٥
٢٧	يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ	الانبياء	١٠٤	١٦٦
٢٨	أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ*	المؤمنون	٥٥-٥٦	١٧٢
٢٩	فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ	المؤمنون	١٠١	١٠١
٣٠	إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ	النور	٢٣	١١٨
٣١	كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء	النور	٣٩	١٦٩
٣٢	ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ	النور	٤٠	١٧٤
٣٣	وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ	النور	٤٠ ، ٤١ ، ٤٢	١٢٦
٣٤	قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى	النمل	٥٩	١٧٤-١٧٥
٣٥	إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ*	القصص	٤-٦	١٣٩
٣٦	إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا	القصص	٧٦	١٥٨

	يُحِبُّ الْفَرِحِينَ			
٣٧	وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ	القصص	٨٨	١٧٨
٣٨	كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ	القصص	٨٨	١٦٩
٣٩	فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا	الروم	٣٠	١٠٨
٤٠	قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ	سبأ	٤٨ – ٤٩	١٩ ، ١١٧
٤١	وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ	الصافات	١٦٤	٩٣
٤٢	إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ	الزمر	٣٠	١٧٨
٤٣	وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ	غافر	٤٦	١٧٣
٤٤	هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ	غافر	٦٧	١٦٥– ١٦٦
٤٥	إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا	فصلت	٣٠	٩٨
٤٦	وَسُقُوا مَاء حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ	محمد	١٥	٦٠
٤٧	سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ	الفتح	٢٩	١٧٢
٤٨	وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ	الذاريات	٥٦	١١٧
٤٩	وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ، فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ، وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ	الواقعة	٩٢– ٩٤	٩٩
٥٠	وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً	النبأ	٤٠	٩٩
٥١	لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ	عبس	٣٧	١٤٠
٥٢	إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ	الانشقاق	١	٧٥
٥٣	بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى	الأعلي	١٦ – ١٧	١٦٧

(ب) المصادر والمراجع

١/القصائد الطوال الجاهليات ، شرح محمد ابوالقاسم الانباري ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٣م.

٢/ العصر المملوكي في مصر والشام ، دكتور عبد الفتاح عاشور ، الطبعة الاولي – ملتزم الطبع والنشر – دار النهضة العربية – ١٩٦٥م.

٣/ الادب في العصر المملوكي ، محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، الجزء الاول .

٤/ احوال العامة في حكم المماليك ، دكتور حياة ناصر الجمري ، الطبعة الاولي، ١٩٨٤م.

٥/الظاهر بيبرس ونهاية الحروب الصليبية القديمة – بسام العسيلي – الطبعة الاولي – ١٩٧٩م – الطبعة الثانية – ١٤٠١هـ – ١٩٨١م – الناشر دار النفائس.

٦/ الضوء اللامع لاهل القرن التاسع ، تأليف المؤرخ الناقد شمس الدين محمد بن عبدالرحمن ، مكتبة القدس ، الجزء الاول ، ١٣٥٤هـ .
٧/ الاصول التراثية في نقد الشعر العربي المعاصر دراسة نقدية في اصالة الشعر – الدكتور عدنان قاسم – المنشأة الشعبية للتوزيع والاعلان .
٨/ الاسس الجمالية للايقاع البلاغي في العصر العباسي – الدكتورة ابتسام احمد حمدان – دار القلم العربي بحلب – الطبعة الاولي – ١٩٩٧م .
٩/ المرشد الي فهم اشعار العرب وصناعته – الجزء الثاني – الجرس اللفظي – عبد الله الطيب – الدار السودانية للكتب – الطبعة الثانية – ١٩٧٠م .
١٠/ المرشد الي فهم اشعار العرب وصناعته – الجزء الثالث – الرموز والكتابات والصور – عبد الله الطيب – الدار السودانية للكتب – الطبعة الثانية – ١٩٧٠م .
١١/ الكتابة والابداع – الدكتور عبد الفتاح احمد ابو زايدة – شركة اليجا فاليتا – مالطا – ٢٠٠٠م .
١٢/ المعاني في ضوء اساليب القرآن الكريم – الدكتور عبد الفتاح لاشين – دار الفكر العربي –١٤٤٩هـ –٢٠٠٨م .
١٣/ النص والاسلوبية بين النظرية والتطبيق – عدنان ابن ذريل – منشورات اتحاد الكتاب العربي دمشق – ٢٠٠٠م .
١٤/ المثل السائر – في أدب الكاتب والشاعر ، للشيخ الإمام والعلامة والفهام ضياء أبي الفتح نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي الشافهي وبهامشه ادب الكاتب تأليف محمد بن عبد الله بن قتيبة الدينوري ، الطبعة الأولي ، ١٣١٢هـ ، مصر.
١٥/ الادب المقارن – الدكتور محمد غنيمي هلال – الطبعة الثالثة – مكتبة الانجلو المصرية – القاهرة – ١٩٦٢م .
١٦/ القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان اوروناد ديكرو جان رمادي شايقر، ترجمة د. منذر عياش، المركز الثقافي العربي ، ط٢ ، ٢٠٠٧م، بيروت ، لبنان.
١٧/ الاصول – دراسة ابستولوجية للفكر اللغوي عند العرب – الدكتورتمام حسان – عالم الكتب – ٢٠٠٤م .

١٨/ البلاغة الواضحة – علي الجارم ومصطفي امين علي الجارم – دار المعارف – مصر ١٩٤٨م .
١٩/ آراء في الاداب والفنون – عباس محمود العقاد – حديث تلفزيون الظهران – ١٩٦٢م .
٢٠/ الصورة في الشعر العربي – الدكتور علي البطل – دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع – ط١ – ١٩٨٢م.
٢١/ الحجاج في القرآن الكريم من خلال اهم خصائصه الاسلوبية – عبد الله صولة – دار الفارابي – الطبعة الاولي – ٢٠٠١م – بيروت – لبنان.
٢٢/ الاتجاه الاسلوبي في النقد الادبي – الدكتور شفيع السيد – كلية دار العلوم – جامعة القاهرة – دار الفكر العربي – ١٩٩٦م .
٢٣/ بين الفلسفة والنقد ، دكتور شكري محمد عياد ، منشورات اصدقاء الكتاب القاهرة ، ١٩٩٠م .
٢٤/ تحليل النصوص الادبية – قراءات نقدية في النثر والشعر – عبد الله ابراهيم صالح – دار الكتاب العربي الجديد – الطبعة الاولي – ١٩٩٨م .
٢٥/ تيمورلنك في دمشق – الدكتور سليمان المدني – المنارة – الطبعة الاولي – ١٤٢١هـ. ١٩٦٣م .
٢٦/ تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان اعجاز القرآن لابن ابي الاصبع المصري – ٦٥٤هـ – تحقيق حنفي محمد شرف .
٢٧/ تنوير الأبصار في فقه مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان – ج ٣ ، ١٩٨٤م.
٢٨/ حلية الاولياء وطبقات الاصفياء ، الحافظ ابي نعيم احمد بن عبد الله الاصفهاني ، المتوفي ت ٤٣٠هـ ، دراسة وتحقيق مصطفي عبد القادر العطا ، م٧ – م٨ ، دار الكتب العلمية ، بيروت.
٢٩/ حاشية رد المختار –لخاتمة امام المحققين المشهور بابن عابدين علي الدر المختار لشرح تنوير الابصار في فقه مذهب الإمام ابي حنيفة النعمان – الجزء الاول والثاني – ١٩٨٤م .

٣٠/ ديوان ابن الرومي – علي بن العباس بن جريج – شاعر الطبيعة – تعليق وضبط الدكتور عمر فاروق الصباغ – المجلد الثالث – دار الارقم ابن الارقم للطباعة والنشر .
٣١/ ديوان ابن الرومي – شرح وتحقيق عبد الأمير علي مهنا – ج ٣ – منشورات دار الهلال – ١٩٩١م.
٣٢/ ديوان أبي نواس ، تحقيق وشرح أحمد عبد المجيد الغزالي ، القاهرة.
٣٣/ ديوان لبيد بن ربيعة العامري – شرح احسان عباس – دار الثقافة والارشاد – الكويت – ١٩٦٢م .
٣٤/ رسالة ماجستير – كليلة ودمنة في الادب العربي ، الدكتورة ليلي حسين سعد الدين – الجامعة الأردنية.
٣٥/ رسالة الماجستير – لبيد شاعراً – عبد المالك ادريس مالك – كلية اللغة العربية – مكتبة جامعة امدرمان الاسلامية – ٢٠٠٢م .
٣٦/ سر الفصاحة ، للأمير أبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي ، ت ٤١٦هـ ، تحقيق علي فودة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٩٤م.
٣٧/ سيرة الملك الظاهر بيبرس ، تأليف احمد محمد بن عربشاه ، الطبعة الثانية ، ١٩٢٣م ، مطبعة القاهرة ، الجمالية.
٣٨/ شرح ديوان لبيد – دكتور إحسان عباس – دار القلم – الكويت – ١٩٦٢م.
٢٩/ شذرات الذهب في اخبار من ذهب – المؤرخ الفقيه الاديب ابي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي – ١٠٨٩هـ – الجزء السابع – دراسة وتحقيق مصطفي عبد القادر عطار دار الكتب العلمية بيروت – لبنان – طبعة ١٩٩٨م.
٤٠/ شرح ديوان المتنبي ، شرح العلامة الواحدي ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، طبع مطبعة برلين ، ١٢٧٦هـ ، ١٨٦٠م.
٤١/ ديوان عمر ابن ربيعة ، شرح دكتور يوسف فرحات ، دار الجيل بيروت .
٦٣/ ديوان المتنبي – شرح عبد الرحمن البرقوني – ج ٣ – دار الكتاب – بيروت – لبنان – ١٩٨٦م .

٤٢/ صحيح البخاري ، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، الطبعة السلطانية ، مطبعة بولاق الأميرية ، مصر ، ١٣١٢هـ.
٤٣/ صحيح مسلم ، للامام الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، المتوفي ٢٠٦هـ ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الحديث القاهرة ..
٤٤/ عجائب المقدور في نوائب تيمور – ابو محمد احمد بن محمد عبد الله الدمشقي – ٨٥٤هـ – تحقيق الدكتور علي محمد عمر – مكتبة الانجلو المصرية – القاهرة – دار مطابع نافع – ١٣٩٩هـ –١٩٧٩م .
٤٥/ عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي – محمود رزق سليم – ق ١– ط ٢ – النشر الفني.
٤٦/ عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي – محمود رزق سليم – م ٥ – ق ١ – الجزء الأول – النشر الفني – ١٩٥٥م – مصر.
٤٧/ عجائب المقدور في نوائب تيمور ، احمد بن محمد ابن عربشاه الدمشقي ، تحقيق احمد فائز حمص ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، عام ١٩٨٦م .
٤٨/ عجائب المقدور في نوائب تيمور ، احمد بن محمد ابن عربشاه الدمشقي ، طبعة القاهرة ، ١٢٨٥هـ ، الطبعة الأولى.
٤٩/ فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء – احمد بن محمد بن عربشاه – ٨٥٤هـ – ١٤٥٠م – تحقيق د.محمد رجب النجار – الشركة الدولية للطباعة – ٢٠٠٣م .
٥٠/ فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء – للعلامة الأديب والفهامة الأرب الشيخ احمد بن محمد بن عربشاه تغمده الله برحمته ولطفه – وبهامشه كليلة ودمنة ، تأليف بيديا الفيلسوف الهندي – ترجمة عبد الله بن المقفع ، طبع المطبعة الميمنية – مصطفي البابي الحلبي ، ١٣٢٥هـ ، مصر .
٥١/ فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، العالم الأديب السياسي احمد بن عربشاه ، تحقيق وتعليق أيمن الجابري – دار الآفاق الربية – بيروت – ٢٠٠١م.
٥٢/ فصول من البلاغة والنقد الادبي – تأليف الدكتور اسماعيل الصبعي – دكتور حسن محسن – دكتور صلاح الدين حسن – دكتور الجزولي – دكتور عبد الرحمن

سالم – مكتبة الفلاح – الكويت – الطبعة الاولي – ١٩٨٣م – اختلاف اساليب الكلام باختلاف اغراضه – دكتور عز الدين الجزولي – الفصل السادس.
٥٣/ قضية الالتزام في الشعر الاموي ، دكتورة مي يوسف خليفة ، دار الثقافة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٩م .
٥٤/ مصادر الحكمة في قصص كليلة ودمنة ، الدكتورة ليلي حسين سعد الدين ، الجامعة الأردنية ، مركز اللغات ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، ط ١ ، ١٩٨٣ – ١٩٨٤م.
٥٥/ معجم مصطلحات الادب ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٤م ، مادة Rhythm.
٥٦/ مجمع الأمثال للميداني أبو الفضل احمد بن محمد النيسابوري ، منشورات دار الحياة ، بيروت ، ج ٢ ، ١٩٦٢م.
٥٧/ مرزبان نامه ، تأليف الأمير مرزبان نجل أحد ملوك طبرستان من سلالة آل باوند ، ترجمة أحمد محمد بن عربشاه الدمشقي ، دار الانتشار العربي ، ط١ ، بيروت.
٥٨/ نحو نظرية اسلوبية لسانية – قيلي ساندريرس – ترجمة الدكتور خالد محمود جمعة – ٢٠٠٣م.
٥٩/ نظرية التلقي والاسلوبية ، منهاج التقابل الصوتي والدلالي ، عالم الفكر ، العدد ٣٣ ، يوليو سبتمبر ٢٠٠٤م.
٦٠/ نظرية البنائية في النقد الادبي ، دكتور صلاح فضل.
٦١/ نقد الشعر لقدامة بن جعفر – تحقيق كمال مصطفي طه – الناشر مكتبة الخانجي – مصر – ١٩٦٣م .
٦٢/ هداية العارفين في اسماء المؤلفين وآثار المصنفين – المجلد الاول – تأليف اسماعيل باشا البغدادي – استنابول – مكتبة المتنبئ – ١٩٥١م – إعادة طبعة الأوفست.

(ج) فهرس الموضوعات